قتل مع سبق الحب

رواية

تأليف

مجدي كمال

o p e i k a n . c o m

طبعة ٢٠١٦

كمال، مجدي

قتل مع سبق الحب/ مجدي كمال، –الجيزة: أطلس للنشر والإنتاج الإعلامي، ٢٠١٦ .

٥٠٤ ص ,٢٠ سم

تدمك: ٨ ٤٦٤ ٣٩٩ ٩٧٧ ٩٧٨

١- القصص العربية

أ -العنوان

٨١٣

obeikan.com

obeikan.com

قتل مع سبق الحب

أطلس للنشر والإنتاج الإعلامي ش.م.م.

رئيس مجلس الإدارة
عـادل المصرى
عضو مجلس الإدارة المنتدب
نوران المصرى

رقم الإيداع
٢٠١٦/١٩١٩٩
الترقيم الدولى
٩٧٨-٩٧٧-٣٩٩-٤٦٤-٨
الطبعة الاولى

الكتاب : قتل مع سبق الحب

المؤلف : مجدي كمال

الغلاف : محمد صلاح

شكر خاص: محمد جلال الدين

الناشر: أطلس للنشر والإنتاج الإعلامى ش.م.م

٢٥ ش وادى النيل – المهندسين – الجيزة

atlas@innovations-co.com

www.atlas-publishing.com

تليفون : ٣٣٤٦٥٨٥٠ – ٣٣٠٤٢٤٧١ – ٣٣٠٢٧٩٦٥

فاكـــس : ٣٣٠٢٨٣٢٨

****

obeikan.com

إهداء

إلى روح أمي التي كنت أتمنى أن تكون معي لأجلس عند قدميها

obeikan.com

هذه الرواية بلغ فيها الخيال حدًّا طابق الواقع

obeikan.com

جلس جلال على أرض الغرفة العاري وأسند ظهره على حائط كلوح الثلج تنبعث منه برودة تخترق عظامه، عقد ذراعيه المعروقتين حول ساقيه النحيفتين ودفن رأسه بين ركبتيه، تداعت على رأسه مشاهد متقطعة من الماضي لا يجمعها سياق منطقي ولا رابط زمني.

- يا ترى أنا نايم؟!!

لازم بحلم مش ممكن يكون ده حقيقي.

معقول هي دي النهاية!!! مش ممكن أكيد فيه حاجات لسه محصلتش.

كان الألم يعتصر روحه قبل جسده، رفع رأسه من بين قدميه وقد تدلى شعره الأشيب الكثيف على جبهته وبدت عيناه زائغتان خلف زجاج نظارته الرقيق، نظر حوله فوقع نظره على ساعة صغيرة على الحائط أشارت عقاربها إلى الثالثة فجرًا.

مرّ أكثر من ثلاث ساعات وهو جالس على هيئته تلك، نهض جلال واقفًا بصعوبة فبدا نحيلاً هزيلاً، لم تنتصب قامته، شعر بألم يلسعه في ذراعيه وساقيه، استند بيد مرتعشة على حافة السرير الذي كان بجواره طوال جلسته، رفع قدمه بصعوبة كأنما علقت في قيد حديدي من قيود العصور الوسطى.

obeikan.com

شعر جلال بوهن وضعف دبّ في أوصاله، شعر بأنه هرم فجأة..

وكيف لا؟! فحين يشعر الإنسان بالخذلان من أقرب الناس إليه يشيخ ويعرف الضعف طريقه إلى جسده، يتسلل في غدر ثعبان أضمر شرًا يزحف بلون قاتم داخل الأوردة حتى يصل إلى القلب ينفث سمه الأسود فيسكن الظلام حجرات القلب.

تحرك جلال في تثاقل ناحية نافذة مغلقة يطل منها ضوء أصفر شاحب، وضع يده اليسرى أسفل ظهره، اتكأ على السرير وعلى كرسي خشبي في طريقه حتى وصل إليها، فتح الزجاج ودفع بضعف الجزء الخشبي إلى الخارج، نظر إلى هذا السكون الذي خيم على المكان، أشجار الكازورينا الطويلة تلتف حول المبنى تترنح في ملل بفعل رياح باردة تتلاعب بها.

من بين الأشجار بدت بوابة حديدية ذات قضبان صدأة أوصدت بجنزير جُمِع طرفاه بقفل نحاسي ضخم، من بين القضبان تمددت الشوارع خالية إلا من سيارة تمر بين الحين والآخر.

تشبّع المكان بروح حزينة طافت في أرجائه استمدت حزنها ممن يسكنون المكان فمنذ أن انتصبت جدرانه لم يدخل إليه إنسان يحمل ابتسامة.

obeikan.com

ليس سجنًا إلا أنه لم يخطُ إليه يومًا أحد باختياره إلا العاملين ولا أظنهم إلا مرغمين.

كانت تلك إحدى ليالي الشتاء، كانت السماء ترسل بعض قطرات من المطر في إيقاع رتيب فلا هي تمطر ولا هي تقلع، وقف جلال شاردًا إلى الخارج غارقًا في الأحداث التي مرّت في ذلك اليوم، يداعب خياله آملاً أن يكون كل ذلك كابوسًا ثقيلاً سرعان ما يستيقظ منه..

نظر جلال ناحية السرير في جانب الغرفة في إشفاق على زوجته الممددة وبداخله مائة سؤال وسؤال، هل هي نائمة حقًا أم أنها تتألم مثلي؟! لا أظن أنها نائمة فالأم تحزن أضعافًا كثيرة من خذلان أولادها، فدائمًا ما يأتي الحزن على قدر العطاء.

أخذ ينظر إلى وجهها في حيرة وألم، كيف ظهر كل هذا الشعر الأبيض فجأة على رأسها!!! كيف ظهرت كل هذه الخطوط والتجاعيد في وجهها!!! كيف ضعفت وانكمشت فصارت كطفل خائف.

أراح صدره من زفرة كان يكتمها وتمتم في يأس.

- كبرتي فجأة يا زهيرة وعجزتي زيي.. ربنا يسامحك يا ابني.

obeikan.com

أدار جلال رأسه ناحية النافذة مرة أخرى فجاءه صوت ضعيف من خلفه.

- جلال أنا خايفة عايزاك جنبي.

التفت جلال فإذا بزوجته قد جلست على السرير وقد ضمت قبضتيها وألصقتهم بوجهها وهي ترتعش، أسرع إليها جلال في صعوبة وجلس إلى جوارها وضمها إليه في حنان، انفجرت دموعها وشهقت في صوت مكتوم، أخذ جلال يربت عليها في حنان حابسًا دموعًا أوشكت أن تنحدر من مقلتيه، فغر فاه محاولاً الكلام فضاعت الحروف على لسانه.

في الخارج تخلت السماء عن إيقاعها الرتيب ففاضت دموعها حانية على تلك البقعة البائسة.

●●●

قفز المنبه فوق الكومودينو محدثًا صوته المميز حين أشارت عقاربه إلى السابعة، تململ راجي في فراشه في كسل محاولاً تمييز الصوت، أخرج يده من تحت بطانية ثقيلة نُقِش عليها صورة فهد يرقد في استرخاء، تحسس مكان الصوت كرجل كفيف إلى أن تعرفت أنامله على وجه المنبه الزجاجي فضغط على زر أعلاه فخمد صوته، دسّ رأسه تحت البطانية بسرعة مستكملاً نومه،

obeikan.com

أبطأ عقله مستعدًا للدخول في مغزل النوم قبل أن ينبعث صوت آخر من هاتفه المحمول أعاده إلى وضع الاستيقاظ، انتصب جالسًا على السرير والتقط الهاتف وهو مُغمِض العينين.

- ألو.

انساب صوت سبيل الرقيق على الطرف الآخر من الهاتف.

- صباح الفل يا ريجو.

- صباح الخير.

- نمت كويس؟

- الحمد لله.

- طيب يالا قوم عشان متتأخرش على شغلك.

- انتي إيه اللي مصحيكي بدري؟!!

- خوفت تروح عليك نومه لإنك نايم متأخر.

- كويس إنك صحيتيني.

- أنت امبارح تعبت أوي وكنت مقدرة الموقف اللي كنت فيه.

ذكرته كلمة سبيل بما حدث أمس فشرد للحظة يسترجع اليوم...

obeikan.com

لم تمهله سبيل صاحت فيه.

- رييييجو إنت نمت تاني؟!!!

في تثاؤب.

- لأ خلاص أنا قمت أهو.

- طيب أول ما تنزل كلمني.

- حاضر.

أغلق راجي الهاتف وألقاه على السرير وخرج من غرفته التي تشبه مخزنًا للخردة متجهًا إلى الحمام.

●●●

تعالت أصوات البائعين مختلطة بأزيز السيارات التي ملأت الشارع، انعكست صور المارة على بقع الماء التي تناثرت من بقايا ليلة أمس المطيرة.

من خلف سيارة نقل تهادت في الشارع ظهرت سعاد سيدة في أوائل الثلاثينات ذات تعليم متوسط لم يمض على زواجها أكثر من عامين رأت خلالهما كل صنوف العذاب من زوجها إلى أن استطاعت أن تتخلص منه بعد أن دفعت له خمسة آلاف جنيه تحويشة عمرها بالإضافة إلى إبرائه من كل حقوقها، كان زوجها

obeikan.com

من ذلك النوع من الرجال ينام طوال النهار وبالليل يجلس على غرزة في إحدى الأزقة مع شلة الأنس أمثاله ممن جمعهم سلطان الكيف وداء القمار، ينتظرها كل أول شهر أمام البيت كضابط في كمين شرطة يمسك حقيبتها يفتشها ويصادر كل ورقة من أوراق البنك نوت.

كانت سعاد تملك ذلك الجمال البلدي بمواصفاته القياسية، زوج من الأقدام البيضاء الملفوفة كقوالب الزبدة البلدي تعلوهم كرتان مستديرتان لا ترتفع واحدة حتى تهبط الأخرى مع خصر انحسر كأنما شُدَّ بحزام رقيق لا تراه العين، تدور بعينيها الواسعتين في دلال يلهب كل من ينظر إليهما، في مجتمع كهذا كان لوقع كلمة مطلقة فعل السحر على أذن كل راغب في متعة عابرة لكن سعاد كانت قد أتقنت اللعبة تستقبل طلبات الود من الجميع حتى يظن أحدهم أنه اقترب منها ثم لا يلبث أن يجد نفسه لا يزال عند نقطة البداية فهي قريبة إلى كل من تعرفه أو يكون لها عنده مصلحة لكنها في نفس الوقت أبعد ما يكون عمّا يدور في خياله.

لا يعرف أحد في الشارع متى ظهرت لكنهم يعرفون معلومة واحدة أكيدة «أنها لا تريد تكرار الزواج»....

بخطوات متمايلة ونهدين بارزين يعلوان ويهبطان في تنسيق على أعلى مستوى مع مؤخرتها المستديرة شقت سعاد الزحام في

شارع المفوضية متحاشية بقع الماء مرتدية جاكت جلد أحمر على جيبة سوداء وشراب فيليه اختفى في منطقة مظلمة تحت الجيبة.

في منتصف شارع مكة أو المفوضية كما يطلق عليه فدائمًا ما تفرض الشوارع أسماءها مهما وضع عليها من لافتات، فللشوارع دائمًا رأي آخر، انبعثت من عربة الفول القابعة في منتصف الشارع رائحة الفلافل الساخنة والباذنجان العروس المخلل ذو الخلطة السحرية من الثوم والبهارات داعبت تلك الرائحة أنف سعاد فانحرفت ناحية عم صلاح الواقف خلف العربة، طلبت منه بعض السندويتشات بالفول المحوج وثلاثة أقراص من الفلافل الساخنة بالسمسم وبعض شرائح الباذنجان دسّهم لها في ورقة من أوراق الجرائد المقصوصة المعلقة بجانب العربة.

مرّت على كشك الجرائد فابتاعت نسخة من الأهرام اليومي على غير عادتها مما جعل صبحي بائع الجرائد يرمقها بنظرة ملتهبة قبل أن يعض على شفتيه ويصيح بعد أن أولته ظهرها.

- الثقافة حلوة مفيش كلام.

عبرت سعاد الشارع إلى الجانب الآخر متجهة إلى بوابة حديدية تتوسط سورًا من الطوب الأحمر امتد يمينًا ويسارًا على مد البصر، نظرت في ساعتها بعدم اكتراث ودفعت الباب الحديدي الموصود بقدمها.

وثب حشمت البواب رجل خمسيني يرتدي جلبابًا رماديًا، لف على رأسه شالاً أبيض على هيئة عمامة تدلت على جبهته السمراء وعينيه السوداوين العميقتين رفع يده تحية لسعاد التي وقفت أمامه.

- صباح الخير يا عم حشمت.

- صباح الرضا يا ست الصبايا.

اقتربت منه وارتسمت على ملامحها علامات الجدية.

- فيه جديد؟ الليلة عدت على خير؟

في نبرة ثقة وابتسامة باهتة.

- كله تمام الاتنين اللي جم عشية مسمعتلهمش صوت واصل.

قطبت جبينها وبدا عليها الخوف ثم صاحت فيه.

- اللّه يخربيتك لا يكون جرالهم حاجة.

أعطته ظهرها وأسرعت بخطواتها يهتز جسدها كقطعة دهن كبيرة تجاوزت الحديقة ناحية المبنى السكني المميز الذي يقع أخر الدار، تبعها حشمت بخطوات مهرولة متظاهرًا بالاهتمام ثم توقف فجأة ورمقها بنظرة سخرية وتمتم.

- هيجرالهم إيه أكتر من اللي جرالهم.

أطرق إلى الأرض وعقد يديه خلف ظهره وعاد ناحية البوابة بخطوات ثقيلة.

جلس القرفصاء أمام حجرة صغيرة أقرب إلى الكوخ على يمين الباب، كان عم حشمت غفيرًا لهذه الأرض قبل إقامة هذين المبنيين منذ حوالي عشر سنوات ثم أكمل دوره تحت مسمى جديد مواكبًا التطور من حوله، أخبروه أن اسمه سيكون «أمن الدار» دار صفا لرعاية المسنين لكن هذا الاسم لم يرقه كثيرًا، أحس أنه لا يليق بهذا الجلباب الذي يلبسه ولا بطبيعته كرجل صعيدي، كان اسم الغفير يشعره بقوة وغموض أو ربما كان يشعره بتلك القوة التي كان يتمتع بها خفراء قريته الذين طالما سمع ببطولاتهم في فرض القانون وحفظ الأمن.

«خفير دار صفا لرعاية المسنين» هكذا كتب حشمت بخط غير مقروء على لافتة صغيرة أكلت الشمس وجهها وضعت بجوار الباب الحديدي.

رفع حشمت عينيه العميقتين ناحية المبنى المنتصب أمامه وفرك ذقنه بإبهامه وسبابته وتمتم بصوت غير مسموع.

- وبعدهالك يا حزينة.

●●●

في داخل غرفتهم في المبنى المميز هدأت زهيرة بين ذراعي جلال وتوقف المطر خارج النافذة، تراجع جلال إلى الوراء قليلاً وأمسك بكتفي زهيرة ولثم جبينها ونظر في عينيها فرأى خوفًا يطل منهما كخوف طفل صغير ضلّ الطريق.. إبتسم ابتسامة خفيفة.

- مين حبيبك؟

بتلقائية كمن تعودت السؤال.

- إنت.

- مين حبيبتي؟

- أنا.

أرخت جفونها وأطرقت إلى الأرض تخفي عن عينيه حزنًا أصاب قلبها فرفع ذقنها بأطراف أصابعه.

- مش أنا ابنك زي ما كنتي بتقولي!

ابتسمت ابتسامة ممزوجة بمسحة ألم كما لو كانت لا تريد أن تسمع كلمة ابن.

تابع بابتسامة رسمها على وجهه بصعوبة.

- خلاص يا ستي مشيها باباكي.. متهيألي دي أوقع.

Obeikan.com

شعر أبيض ونظر ضعيف، ضهر محني على سنتين واقعين أظن بقى كده كل المواصفات متوفرة.

ازدادت ابتسامتها قليلاً وبدأت عينيها تستعيد بريقها رويدًا رويدًا.

- إنت اللي ليا من الدنيا دي كلها يا جلال.

وضع يده على شعرها ونظر في عينيها.

- أما انتي فلي من الدنيا الماء والهواء ولي من الموت الحياة ومن اليأس الأمل ومن المر العسل.

تهلل وجهها فرحًا وهمست في عتاب رقيق.

- بقالك كتير متقمصتش دور الشاعر ده.

- من هنا ورايح هتلاقيني شاعر وملحن ومغني وممكن أرقص لك كمان بس على شرط

أرجع أشوف ضحكتك الحلوة دي تاني.

- ضحكت ضحكة مكتومة لم يفلح في تغييرها.

- أنا عايزك تحاولي تنامي، عنيكى تعبانة أوي يا حبيبتي.

- مش قادرة أنام أنا خايفة أوي.

وضع وجهها بين راحتيه.

- مش هخلي الخوف يقرب لك.

فاكرة الطريقة السحرية اللي كنت بنيمك بيها؟

ابتسمت ثم أمالت رأسها في هدوء، مدّ لها كفه فأسندت رأسها عليه واستراح خدها على راحة يده وبيده الأخرى أخذ يمسح على رأسها في حنان.

- متفكريش في أي حاجة غير إني جنبك.

أغمضت عينيها وأخذت نفسًا عميقًا وبدأ النوم يتسلل إليها هادئًا، بعد لحظات أراح جلال رأسها على وسادة السرير وسحب كفه برفق وتنفس الصعداء.

- الحمد لله لسه الطريقة شغالة.

تأمل وجهها وهي نائمة كطفلة بريئة وشرد ببصره ناحية النافذة، كان الصبح قد لاح من خلف زجاجها الشفاف معلنًا حضوره.

●●●

أمام فرع الشركة المصرية للاتصالات في شارع الهرم وقف راجي شاب ثلاثيني ممشوق القوام لا يخلو من وسامة ملحوظة، يرتدي بدلة رمادية أنيقة قبل أن يتجاوز السور الحديدي الذي

obeikan.com

انتصب أمام المبنى الرخامي للشركة أمسك هاتفه وضغط على اسم سبيل.

- أنا وصلت.

- إنت كويس.

مسح تحت حاجبيه بإبهامه وسبابته.

- الحمد للّه بس مُرهَق شوية.

بحسم.

- هشوفك النهاردة ضروري.

- أكيد أنا محتاجك أوي نتقابل على ٦ في مكانا.

- أوك يا بيبي.

- يالا سلام عشان متأخر.

أغلق الهاتف ثم عبر الباب الحديدي الضيق في السور، ثم الباب الزجاجي للمبنى ليستقبل صالة الجمهور الكبيرة بخطوات سريعة دون أن ينظر إلى أحد من العملاء الجالسين عبر الصالة ثم دلف إلى باب صغير يسار الصالة فأصبح داخل خدمة العملاء سلّم على زملائه ثم جلس على مقعده الشاغر خلف شباك رقم واحد.

obeikan.com

كانت الصالة مزدحمة بالعملاء منهم الجالسون ومنهم غير ذلك، نظر إليه صفوت في لوم.

- إيه يا مان مش عوايدك تتأخر.

- منمتش كويس.

- حظك لوز اللوز هيما لسه مجاش.

مطّ شفتيه في استهانة.

- ولا يهمني.

- يا أبو رجوه يا جامد.

- يا ابني أنا مسيطر والعملا بيطلعوا من عندي أخر انبساط هو ده المهم.

ضغط على زر أمامه يعلن رقم العميل سعيد الحظ الذي سيحظى بلقاء راجي بعد طول انتظار.

●●●

أفاق جلال من شروده على طرق متكرر على الباب ومحاولات لفتحه فقام متثاقلاً وقد تخدلت قدماه فاستند على الحائط حتى وصل إلى الباب وفتحه.

obeikan.com

في لهفة مصطنعة دخلت سعاد إلى الحجرة دون استئذان.

- إيه يا أستاذ جلال خضتوني عليكوا.

حشمت الغفير قالي إنه مسمعش أي صوت من أوضتكم امبارح.

رمقها جلال وفي تهكم.

- وهو المفروض كان يسمع غنا ورقص مثلاً.

ضحكت في تصنع.

- لأ مش للدرجادي.

نظرت بطرف عينها إلى زهيرة الممددة على السرير تحت الغطاء ثم أردفت.

- أصل دايمًا أي حد جديد بييجي بتبقى أسئلته كتير وبيفضل ينده على الغفير طول الليل مش بيجيله نوم ويفضل رايح جاي في الدار.

نظر إلى زوجته وقد بدأت تتململ في السرير، أشار لها بيده.

- ممكن بهدوء أنا ما صدقت إنها نامت.

رمقته بنظرة من طرف عينها.

obeikan.com

- أنا قلت أطمن عليكوا بس أصل الأستاذ راجي موصيني عليكوا جامد أوي.

تجاهل عبارتها واتجه ناحية الباب وأمسك بمقبضه وفتحه وطأطأ إلى الأرض.

- شكرًا لذوقك.

فهمت الحركة فاتجهت ناحية الباب.

- أنا هسيبكوا النهاردة براحتكوا بس أول ما الهانم تصحى ياريت تعدوا عليا في مكتبي اللي في المبنى التاني عشان أعرفكوا نظام الدار وتتعرفوا على باقي النزلاء.

استدركت واستلت جريدة الأهرام التي تضمها تحت إبطها.

- الأستاذ راجي موصيني كمان أجيب لك الأهرام كل يوم مش برضه بتحب الأهرام.

بابتسامة باهتة تناول الجريدة وودعها جلال وأغلق الباب.

وغمغم في انكسار.

- بتمسح دموعي بعد ما قتلتني يا ابني.

عاد إلى جلسته على الكرسي الخشبي أمام النافذة يراقب الدار وقد قفزت أحداث أمس إلى رأسه يسترجعها.

رنّ جرس الهاتف الأرضي في شقة الأستاذ جلال حلمي البقال الموظف السابق بديوان وزارة التربية والتعليم، تلك الشقة العريقة في شارع القصر العيني، كان كل ركن في تلك الشقة يشع بذكريات دافئة حُفرت في عقله، انتقى كل قطعة أثاث فيها بعناية، كان لها عبق الأماكن الأثرية القديمة يملؤها هو وزهيرة زوجته دفئًا وروحًا، علق على كل حائط صورة له هو وزهيرة في مرحلة من مراحل حياتهم سواء كانت تحمل ذكرى حلوة أو مرة.

أغلق جلال كتابًا كان يقرؤه في الشرفة ودلف إلى الصالة يجيب على الهاتف الموضوع على طقطوقة من الأرابيسك.

- ألو أهلاً يا حبيبي.

- كنت عايز أتكلم معاك إنت وماما في موضوع مهم.

- إنت بتستأذن؟

-لأ بس الموضوع مهم.

تسرب القلق إلى وجه جلال فآخر مرة تحدث فيها راجي بهذه الطريقة كانت عندما رسب في كلية التجارة في السنة الأولى وأخفى عنهم ذلك.

- على العموم أنا في انتظارك.

قالها في خوف وأغلق الهاتف والتفت وراءه فوجد زهيرة تنظر في فضول يشوبه القلق فقد رأت علامات القلق في عيني جلال.. عينان لا تخطئ أبدًا ما يبدو فيهما من مشاعر اقتربت منه ووضعت يدها النحيلة على يده.

- راجي كويس؟

- الحمد لله بس بيقول عايزنا في موضوع مهم!!

- فيه حاجة قلقاك؟

- مفيش حاجة معينة بس بخاف من شطحاته.

التقط كتابه وارتدى نظارته.

- ممكن تعمليلي فنجان قهوة وتجيبهولي البلكونة.

- حاضر.

توجه إلى الشرفة شاردًا فقد ازدادت احتياجات راجي وأصبح أنانيًا لا يفكر إلا في نفسه، قلّت زياراته لهم وانعزل عنهم في شقته بالسادس من أكتوبر، لا يأتي إليهم إلا بعد إلحاح واستعطاف من أمه لكن رغم مفاجآت راجي وعدم توقع تصرفاته فقد كان الأمر مختلفًا هذه المرة.

obeikan.com

من الشرفة سمع جلال جرس الباب وأسرعت زهيرة إلى الباب.

- إزيك يا حبيبي.

- بخير يا ماما فين بابا؟

دخل جلال من الشرفة وسلم على راجي وتقدمه إلى الصالون.

أمسكت زهيرة بذراع راجي وابتسمت في حنان.

- أحضرلك الفطار يا حبيبي؟

بقالك كتير مفطرتش من إيدي.

- لأ يا ماما شكرًا أنا عايزك معانا.

دخل ثلاثتهم حجرة الصالون المذهبة، جلس جلال وجلست زهيرة بجواره وجلس راجي أمامهما.

ساد الصمت للحظات، ظل راجي مطرقًا إلى الأرض يفرك في يده وزهيرة تنظر إلى جلال تارة وإليه تارة أخرى في ترقب فقطع جلال الصمت متسائلاً.

- خير يا ابني كنت عايزنا في إيه؟

obeikan.com

رفع راجي رأسه ناظرًا إلى أبيه.

- باختصار يا بابا أنا محتاج الشقة دي.

- محتاجها إزاي يعني؟

- حاول تفهمني وتستوعب الموضوع.

بثبات دون أن تتغير ملامحه.

- أنا بسمعك.

شعر راجي بقليل من التوتر لكنه تابع.

- أنا مستقبلي بيمر بمرحلة مهمة ولازم نفكر بشكل بعيد عن العواطف.

التقت عينا راجي بعيني زهيرة وقد بدا عليهما الخوف فأطرق إلى الأرض ثانية لكنه واصل كلامه في إصرار.

- فيه شركة كمبيوتر عالمية هتنزل مصر جديد وعايزة وكيل ليها في مصر وأنا عايز أفوز بالوكالة دي ومن شروطهم مقر مناسب في منطقة حيوية ففكرت في الشقة هنا.

قاطعه جلال.

- قصدك قررت.

- مش مهم يا بابا المهم إن الموضوع فرصة ولازم نستغلها.

- ويا ترى فكرت لنا في حل أنا وأمك ولا دي حاجات مش مهمة.

أطرق راجي إلى الأرض مرة أخرى وازدرد لعابه فتابع جلال في ثبات.

- كمل يا ابني انت شكلك مفكر ومقرر والموضوع منتهي.

في تردد.

- أنا لاقيت حل جميل ومناسب.

أنا حجزت لكم في دار مسنين على أعلى مستوى في أكتوبر.

جحظت عينا زهيرة وفغر فاها وشعرت أن الأرض تدور بها، حاول جلال تمالك أعصابه وحاول أن يتكلم لكنه تراجع فقد فقدت الكلمات قدرتها على التعبير واستحال أي عتاب إلى درب من دروب العبث.

استدرك راجي محاولاً تخفيف وقع كلامه.

- هتبقوا جنبي في أكتوبر وكل شوية هاجي أزوركم.

بس المهم لازم نفضي الشقة النهاردة عشان فيه مندوب من الشركة هييجي بكرة يعاين الشقة ولازم تكون فاضية.

دمعت عيني زهيرة وشعرت لأول مرة في حياتها أن من يحدثها شخص آخر غير ابنها، خلع جلال نظارته وقد انحسرت في مقلتيه دمعة أبى أن يذرفها.

في هذه اللحظة فقط أدرك جلال قيمة نصيحة موظف الشهر العقاري قبل شهر عندما ذهبا هو وزهيرة لعمل توكيل بالبيع لراجي.

- إنتوا ليه بتتنازلوا عن الشقة لابنكم استنوا بعد عمر طويل وسيبوا كل حاجة تتوزع حسب الشرع على باقي إخواته.

نظرت زهيرة إلى جلال ثم نظرت إلى الموظف.

- احنا ماحليتناش من الدنيا غيره.

خلع الموظف نظارته ووضعها أمامه ومال بظهره إلى الوراء ورفع عينيه إليهما.

- ده من باب أدعى إنكم متعملوش كده محدش ضامن الدنيا فيها إيه؟!

في ابتسامة وحماس انحنت زهيرة قليلاً ناحية الموظف.

- دي حاجة كده صورية الواد رايح يخطب بنت أهلها ناس غناي ولازم يبقى معاه شقة عليها القيمة باسمه.

كان ذلك نفس السبب الذي قاله راجي لأمه والتي بدورها ساقته زهيرة إلى جلال وأقنعته به، الأغرب من ذلك تلك الجملة التي قالتها زهيرة للموظف وهي في قمة الثقة.

- يعني هو هيطلعنا من الشقة؟!

وضع الموظف نظارته على عينيه ومال على الأوراق أمامه في غير اقتناع وشرع في إتمام التوكيل.

ردد جلال جملة زهيرة بداخله في حسرة.

- أهو بيطلعنا من الشقة يا زهيرة.

دون تأثر واصل راجي كلامه.

- أنا هعدي عليكم بالليل عشان أوصلكم.

راحت زهيرة في ذهول وانهمرت الدموع من عينيها دون أية حركة كأنما تجمدت، نظرت إلى جلال في حسرة وندم كأنها تسمع كل ما يدور في رأسه.

زاغت عينا جلال وانقطع صوت راجي فلم يعد يسمع ما يقوله ولم يعد يميز ملامحه فقد تحول إلى مسخ يتحرك أمامه لا يرى منه أية تفاصيل، كان لا يتخيل أن يحدث ذلك، حتى سؤال زهيرة. «هو يعني هيطلعنا من الشقة؟!!!» كان يبدو سؤالاً غير منطقي وغير قابل للتحقيق، كأن تسأل شخصًا كيف يمكن للإنسان أن يحيا بدون ماء أو هواء!!!

لكن يبدو أنه زمن المستحيلات، أصبح أقرب الناس إليهم هو من يطعنهم بطعنة الجحود ونكران التعب والسهر والتربية، أصاب الموقف جلال بعدم الاتزان، تساوى أمام عينيه الموت والحياة، أن يسكن في بيته أو يسكن في دار أو حتى في سجن، أن يرى بعينيه أو لا يرى لا خير في الدنيا إذا قوبل الوفاء بالغدر إذا قوبل الخير بالشر إذا قوبل العطاء بالجحود والنكران.

لا خير في الدنيا إذا قوبل الحب بالقتل.

ظل جلال في مكانه لم يحرك ساكنًا، كانت زهيرة تراقبه من طرف عينها تنتظر منه أي تعليق إلا أنه لازم الصمت، تحاشى الاثنان أن تلتقي عيونهما كانا خجلين من نفسيهما قبل أن يخجلا مما فعل ابنهما، فما هو إلا نتاج تربيتهما.

كان راجي حاسمًا في كلامه فأصابهما بالخوف، لم يبدُ في هيئة ابن يحدث أبويه بل كان كمشترٍ أراد أن يتسلم شقته فطلب من ساكنيها إخلائها، أقنعا نفسيهما بضرورة تنفيذ طلبه لأن مجرد تخيل الرفض ويقوم هو بإخراجهم بالقوة كان كفيلاً بالقضاء عليهما أو بالقضاء على آخر أمل أنه لازالت هناك رحمة في هذه الحياة.

●●●

بـدأت الشـمس في الارتفـاع في السـماء تطـل بوجههـا ثـم مـا تلبـث أن تختفـي خلـف سـحابة رماديـة تمـر في بطـء أمامهـا، بـدت الـدار كبقايـا واحـة جفـت مياههـا وهجرهـا أهلهـا، أشـجار مـن أنـواع مختلفة فروعهـا ذابلـة وأخـرى لازالـت تقـاوم، تناثـرت بشـكل عشـوائي بالقـرب مـن سـور بُنـي بالطـوب الأحمـر حشـائش غريبـة نمـت علـى الأرض الرمليـة التـي امتـدت أمـام مبنيـين انتصبـا متباعديـن، مجموعـة مـن بقايـا أوان فخاريـة ملقـاة بجانـب السـور كانـت تحـوي يومًـا مـا شـتلات تلـك الأشـجار.

خرطـوم أسـود ممـدد بطـول تلـك الحديقـة المهجـورة لـم تجـرِ في جوفـه الميـاه منـذ زمـن، تبللـت الأرض مـن بقايـا الوابـل الـذي أصابهـا أمـس والـذي أعطـى بعـض الأشـجار فرصـة أخـرى للحيـاة.

بـدأت الحركـة الرتيبـة البطيئـة تزحـف في الـدار، ظهـرت فتاتـان ترتديـان زيًـا رماديًـا نُقـش عليـه وسـم دار صفـا لرعايـة المسـنين، أخـذت إحداهمـا في مسـح السـلم المـؤدي إلـى المبنـى الرئيسـي في حركـة آليـة مـن يمـين كل درجـة إلـى يسـارها بواسـطة قطعـة مـن الخيـش الأسـود والأخـرى دفعـت أمامهـا عربـة كعربـات الـكارو القديمـة وُضِـع عليهـا برميـلان مـن البلاسـتيك الأسـود دُسّ في باطنهـم أكيـاس سـوداء، كانـت الفتـاة تمـر بجـوار السـلال المتهالكـة الموزعـة في الحديقـة لتفرغهـا مـن قمامتهـا في البراميـل وحتـى السـلال الفارغـة

من القمامة كانت ترفعها وتقلبها في أحد البرميلين قتلاً للوقت ورغبة في عدم تكليفها بعمل آخر رتيب، تضم الدار هذين المبنيين فقط، مبنى عن اليمين ومبنى عن اليسار من اتجاه بوابة الدخول أما الذي عن اليمين فهو مبنى صغير مكون من دورين الدور الأول مخزن كبير يحوي غرفة لخزين الدار من المواد الغذائية وغرفة كبيرة بامتداد المبنى تحوي مخلفات من مختلف الأجهزة والأثاث الذي تم تكهينه أما الدور الثاني فهو مقسم إلى ست غرف ويطلق عليه المبنى المميز.

أما المبنى الذي على اليسار فهو مبنى ضخم مكون من طابقين يضم في الدور الأول مبنى الإدارة ومطعم صغير وحجرة ترفيه بالإضافة إلى خمس غرف، بينما الطابق الثاني يضم عشر غرف.

خرجت سعاد من المبنى المميز في خطوات سريعة وقد تقمصت شخصيتها الثانية مشرفة الدار المسيطرة على كل شيء اتجهت ناحية المبنى الكبير داست بأقدامها الحشائش الصغيرة الذابلة في الحديقة الفاصلة بين المبنيين، ما إن رأتها الفتاتان عاملات النظافة حتى ازدادت حركتهن كأنما دبت فيهن روح الحماسة الغائبة عن الدار.

رغم أن الدار لا يتجاوز عمرها عشر سنوات إلا أنك تشعر أنها مدينة عتيقة في عصر سحيق أصابها إعصار فبعثر محتوياتها، لا تجد فيها شيئًا يشبه الآخر وإن وجدت متشابهين لا تجدهما متجاورين، دخلت سعاد إلى المبنى ودلفت إلى حجرة جانبية يتوسطها مكتب خشبي كبير تعلوه لافتة أبانوسية نُقش عليها بلون أسود. «سعاد الخولي المشرف العام».

كانت اللافتة أول إنجاز لها حين تولت الإشراف على الدار، أمضت يومًا كاملاً في العتبة تبحث في أشكال اللافتات حتى اختارت لنفسها تلك اللافتة، أشار عليها البائع يومها بوضع كلمة المشرف العام أسفل اسمها حتى تكتمل هيئتها الموقرة.

قبل أن تجلس خلف مكتبها ضغطت على زر بجوار المكتب ووضعت أكياس الطعام على ترابيزة صغيرة في جانب الغرفة.

لحظات ودخلت ألفت إحدى العاملات في الدار.

- صباح الخير يا ست سعاد.

في اقتضاب.

- صباح الخير.

خدي السندوتشات دي حطيها في طبق وهاتيها.

التقطت ألفت أكياس الطعام ونظرت إلى سعاد.

- مش هتفطري من إيدي النهاردة؟

- عندك إيه فطار؟

- فول وبيض مسلوق.

- هاتيلي كام بيضة وحطيهم في طبق ورشي عليهم كمون.

- عينيا بس هتفطري هنا ولا في الجنينة.

- بلاش الجنينة.

- حالاً يكون الفطار جاهز.

أمسكت سعاد بملف ورقي أزرق على مكتبها فتحته فوقع بصرها على صورة جلال على استمارة كُتب أعلاها. «استمارة تعارف نزيل».

«الاسم. جلال حلمي البقال»

رفعت تلك الورقة وحدقت في صورته.

- مش مستريحالك.

بدت سعاد في ذلك الصباح أكثر صرامة لم تبتسم ابتسامتها المصطنعة ولعل تلك الصرامة تخفي قلقًا لا تعلم مصدره لكن منذ

obeikan.com

رأت جلال وهي قلقة، لا ترى ذلك الخوف في عينيه ككل النزلاء الذين مروا عليها.. ذلك الخوف الذي يشعرها دائمًا بالقوة.

فقط الضعيف من يستمد قوته من ضعف الآخرين.

دخلت ألفت تحمل صينية الإفطار ودون أن تتحدث أشارت لها سعاد بوضع الصينية على المكتب.

أراحت ألفت الصينية في حرص أمام سعاد وهمت بالخروج.

- سيبي الباب مفتوح عايزة أشوف إيه اللي بيحصل!

بدهشة بدت على وجهها فتحت ألفت الباب على مصراعيه وخرجت.

كان وضع مكتب سعاد يمكنها من رؤية كل من يدخل أو يخرج إلى المبنى الكبير وكانت النافذة التي تقع إلى يسارها تمكنها من رؤية الحديقة والبوابة الخارجية وجزء من تلك البرجولة الدائرية التي تقع أمام مدخل المبنى الكبير.

نهضت سعاد إلى النافذة فأشرعتها على آخرها ومسحت بعينين حادتين مجال الدار من يمينه إلى يساره، كل شيء بدا طبيعيًا لكن وضع النافذة لا يتيح لها رؤية المبنى المميز الذي يقع خلف حجرة مكتبها.

opeikan.com

أطلت برأسها خارج النافذة لعلها تراه لكن دون فائدة، عادت إلى مكتبها جلست أمسكت قرصًا من الفلافل وقربته من فمها في شرود كأنها أول مرة ترى النافذة أو تطل منها، زاد ذلك من قلقها ونظرت خلفها تبحث عن طريقة ترى بها المبنى المميز من مكانها.

في الخارج بدأ العاملون في المطعم إعداد وجبات الإفطار للنزلاء الذين بدأ بعضهم يخرج إلى الحديقة في خطوات ثقيلة، كان لكل منهم مكانه المفضل الذي يجلس فيه.

●●●

بعد يوم عمل طويل جلس راجي في مكانه المفضل في ذلك المطعم الهادئ بمدينة الشيخ زايد، لحظات وانحنى أمامه ياسين النادل واضعًا المنيو وانصرف تاركه في غروره وتعاليه.

اعتاد راجي الجلوس في هذا المطعم منذ عام تقريبًا لا يأتي وحده عادة ما تكون معه فتاة بشكل ولون جديد تستمر معه أسبوعًا أو اثنين ثم تأتي أخرى، أصبح كل العاملين في المطعم يعرفونه بعدما شهد المطعم مشاجرة بين فتاته الجديدة التي كانت تجلس معه وفتاة أخرى لم تتمالك نفسها حين رأتهما معًا، استمتع كل من في المطعم بتلك المشاجرة النسائية العنيفة التي تقطعت فيها الملابس وسُمعت فيها وصلات الشتائم مع بعض

obeikan.com

الإيحاءات الجنسية المعبرة فطالما كان للمعارك النسائية طعم خاص حيث تتخلى الفتاة عن أنوثتها وتصبح كائنًا آخر.

جلس راجي شاردًا يسترجع أحداث الأمس حتى أنه لم يلحظ دخول ذلك الغزال الشارد الذي دلف من باب المطعم متجهًا إليه، فتاة لا تراها إلا في إعلانات المنتجعات السياحية، عينان بنيتان واسعتان تقتل دون أن تشعر، شفتان مكتنزتان بلون الكريز شعر أسود حالك كالليل يتلوى على ظهرها كحيات شاردة لامست مرتفعًا أسفل ظهرها نُحِت على يدّ مايكل أنجلو.

عود ممشوق كشجرة نخيل ملكية تمايلت برشاقة حتى استقرت أمام راجي، أزاحت خصلة من شعرها تدلت أمام عينها.

- يااااه ده إنت سرحان خالص!

قالت سبيل في هدوء.

رفع رأسه فاتسعت عيناه.

- سبيل انتي واقفة هنا من إمتى؟!!!!

- من زمان يا أستاذ.

وقف وسلّم عليها، استدارت له فتلقى عنها جاكيت قصير كانت ترتديه وجلست بجواره على الفوتيه جلستها المفضلة محتضنة وسادة بجوارها.

أسبلت عينيها في دلال.

- وحشتني.

في تأثر واضح أمسك يدها وقبلها.

- وانتي كمان أوي.

- عملت إيه النهاردة؟

ابتسم في ثقة.

- مفيش جديد الشغل تمام.. مسيطر كالعادة ومظبط الأداء.

نظرت إلى عينيه في ثبات.

- حسّاك مبسوط.

داعب خصلة من شعرها المتناثر على كتفيها.

- الحل اللي انتي اقترحتيه ده عبقري.

جبتيه منين ده يا بنت الإيه؟!!!!

فتحت حقيبتها وأخرجت علبة سجائر وأشعلت واحدة وأخذت نفسًا عميقًا بطريقة زادتها إثارة كأنها في إعلان ترويجي للسجائر.

- إحنا جامدين أوي.

التهمت عيناه شفتيها المطبقتين على السيجارة.

- طول عمرك جامدة.

في دلال.

- دي معاكسة.

- ده غزل عفيف.

فركت سيجارتها في الطفاية أمامها ومالت ناحيته.

- خلينا في الجد بقى.

أشار لها بسبابته مقاطعًا.

- حاجة أخيرة بس.

- إنتي إزاي عرفتي الدار دي وازاي جبتي شهادة صحية مختومة في نفس اليوم؟

- يا حبيبي متستقلش بقدراتي.

- عندك حق ده أنا لو وزير الصحة ووقفتي قدامي هتنازلك عن الوزارة.

إقترب ياسين النادل ووقف أمامهم فاعتدلت في جلستها وأمسكت علبة السجائر وأخرجت سيجارة أخرى وهي ترمقه بطرف عينها، كانت كأي أنثى تمتلك جهاز استشعار بالغ الدقة

obeikan.com

يرصد ويحلل كل تغير في ملامح أي ذكر يقترب منها، تُجري عليه مسحًا دقيقًا من أعلاه إلى أسفله، تشعر بأي نبضة زيادة عن معدلها الطبيعي منذ أن رأت ياسين شعرت بتغيرات في نبرات صوته وزيادة في ضربات القلب تلقتها وحدة الاستشعار الخاصة بها وحللتها واحتفظت بالنتائج فليس لها أية قيمة لديها.

أخرج ياسين دفترًا صغيرًا من جيبه وأمسكه بيده اليسرى وقلمًا في يده اليمنى وهو ينظر إليها متفحصًا.

- حضرتك تشربي إيه؟

وهي تشعل سيجارتها وتنفس الدخان ناحيته في تعمد وتعالٍ.

- قهوة مظبوطة.

دون أن يلتفت إليه.

- وحضرتك يا راجي بيه؟

بعدم اكتراث.

- قهوة مانو.

انحنى ياسين في احترام وابتسامة عريضة وانصرف ناحية البار في جانب المطعم حيث يقف زملاؤه كعادتهم يراقبون هذا الغزال الشارد كلما زارهم في غابتهم.

obeikan.com

- أحلى قهوة مظبوطة وأي قهوة مانو يا علي وخليك معايا هنا.

دون أن ينظر إلى ياسين مثبتًا نظره على شفتيها وهي تزمهما على تلك السيجارة التي تحترق من مقدمتها ومؤخرتها.

- يا ابني دي جامدة أوي عليك ولا هتاخد بالها منك أصلاً.

دي هتاكل الواد بعينيها وشكل الواد شبط فيها ده بقاله بيجي شهرين معاها مغيرهاش.

تنهد ياسين تنهيدة كادت تحرق الدفتر الورقي الذي بيده.

- أنا البنت دي صعبانة عليا.

خسارة واد زي ده يفضل يضحك عليها كده.

التفت إليه علي في تهكم.

- وإيه عرفك بقى إنه بيضحك عليها؟

التفت إلى علي في غيظ.

- إنت نسيت إنه كان كل أسبوع مع واحدة؟!

واصل علي استفزازه.

- وربنا خلاص هداه واستقر على دي وبقالهم شهرين بيتقابلوا سمن على عسل.

obeikan.com

لـم ينتظـر إجابـة ياسـين فـأردف في هيئـة الصديـق الناصـح الأمـين.

- يـا ابنـي دي مـش مـن توبـك ده لبسـها بـس لوحـده عايزلـه مرتـب شـغلانتين مـن شـغلنا ده فمـا تشـغلش بالـك بيهـا.

كادت القهـوة أن تغلـي فرفعهـا علـي سـريعًا وصـب كل كنكـة في فنجـان وقـال وهـو ينظـر ناحيـة سـبيل.

- ما تسيبني أنا أودي القهوة يا معلم.

تناول ياسين فنجاني القهوة ووضعهم على الصينية.

- أنا خايف عليك إنت لسة عضمك طري.

اقتربـت سـبيل مـن راجـي فلفحتـه بأنفاسـها وسـيطر عليـه برفان جـادور المفضـل لديهـا.

- بـص بقـى يـا ريجـوو منـدوب شـركة الكمبيوتـر هيقابلنـا بكـره وهييجـي معـاه مـازن اللـي كلمتـك عنـه.

- مازن مين؟

- مـازن اللـي هيقنـع منـدوب الشـركة إنـه يدينـا التوكيـل، مـش ده المهـم مـازن ده عايـز ١٠٠٠٠ جنيـه مقابـل إنـه يخلـي المنـدوب يوافـق.

- بس أنا مش معايا المبلغ ده دلوقتي.

obeikan.com

- طيب معاك كام.

- معايا ٣٠٠٠.

ذمت شفتيها وأخذت تفكر وحكت جبهتها ثم ربتت على ركبته ورسمت على فمها شبه ابتسامة.

- ولا يهمك أنا هتصرف هاتهم ونبقى نتحاسب.

أمسك يدها وضمها بين كفيه وانفرجت أساريره.

- ربنا يخليكى ليا مش عارف من غيرك كنت هعمل إيه؟

هزت رأسها في حركة طفولية.

- كنت هتفضل لايص كده من غيري أكيد.

نظر في عينيها البنيتين وابتسم ابتسامة إعجاب.

- كل يوم بكتشف فيكى حاجة جديدة.. بتلاقي حل لأي مشكلة.

إزاي فكرتي إن بابا يكتب لي الشقة قبل ما نقوله على موضوع التوكيل بتاع الكمبيوتر والحل العبقري بقى موضوع الدار بجد أنا بحسد نفسي عليكي.

تراجعت إلى الوراء برأسها معيدة بأناملها خصلات شعرها الشارد إلى مكانها وبلهجة رصينة.

Obeikan.com

- أولاً. لما تيجي تطلب من حد حاجة لازم متسيبلوش فرصة يرفض.

ثانيًا. موضوع الدار ده مش جديد ولا حاجة ده بقى موضة دلوقتي.

إبتسم في عدم اكتراث.

- وحتى لو مش موضة هما بابا وماما في السن ده عايزين إيه؟ هناك خدمة كاملة أكل وشرب وناس في سنهم يتسلوا معاهم.. ده منتجع.

اقتربت منه وهمست في صوت ناعم.

- المهم يا حبيبي تسيبلي نفسك وتسمع كلامي.

اقترب ياسين من مكانهم ووضع القهوة أمامهم فأشاحت بوجهها في تجاهل ممسكة هاتفها.

إبتسم ياسين وانصرف دون أن ينظر إليها.

رآه علي قادمًا ناحيته مبتسمًا فبادره.

- إوعى تقولي إنها ضحكت لك وغمزت لك والجو ده.

وضع الصينية على البار واستند بكوعه عليه وبصوت بدا عليه الارتياح.

- إنت غشيم لسه، يا ابني البنت لما تبقى قاعدة مع اللي بتحبه بجد بتبقى مش حاسة بالناس من حواليها بتبقى الدنيا كلها مختصرة في اللي بتحبه وبيبقى مش فارق معاها مين بيبصلها ولا مين عدى قدامها.

أما البنت شكلها مش بتحب الواد اللي قاعدة معاه، عارفة إني ببصلها وواخدة بالها أوي فبتبص لي بغيظ كأنها بتقولي أنت ولا حاجة ولما لقيتني مُصّر إني أبصلها عملت نفسها مش واخدة بالها.

ضحك علي مقاطعًا وأشار بيده ناحية سبيل.

- طيب إلحق الواد بيشاور لك عايز الشيك.

●●●

في ظهيرة اليوم التالي خرجت زهيرة من الحمام الداخلي من جانب الغرفة فاستقبلها جلال بابتسامة حانية وضمها إليه.

- صباح الورد.

- صباح الخير.

ضمها جلال بقوة قبل أن يجلسها على السرير.

- عايزك توعديني بحاجة؟

obeikan.com

- إيه؟

- عايزك متفكريش في أي حاجة حصلت وتعالي نعيش حياتنا اللي ماعشنهاش.

باستسلام نظرت إليه.

- حاضر.

- دلوقتي تعالي نروح نشوف مشرفة الدار كانت عايزانا نروح لها امبارح.

أمسك بيدها فاستندت عليه وخرجا من باب الغرفة.

كان جلال قد تجاوز الخامسة والستين إلا أنه يبدو أصغر من ذلك، كان هادئًا يهوى القراءة في كل المجالات مما أتاح له ثقافة واسعة، واثقًا في نفسه إلى درجة كبيرة لا يرى في نفسه إلا عيبًا واحدًا وهو أنه يحب زهيرة لدرجة يفقد فيها عقله القدرة على الوقوف أمام قلبه.

كان يشعر أنه أبوها لم يفارقه ذلك الإحساس منذ أن رآها أحبها من كل قلبه، كانت رقيقة هادئة تملك عينين ساحرتين وبراءة استمرت معها رغم قسوة الأيام.

تعلقت زهيرة بذراع جلال وخرجا من باب المبنى المميز، بدا المكان موحشًا بأشجاره اليابسة وذلك السور الذي تعلوه قوائم

obeikan.com

حديدية عُلقت عليها أسلاك أشبه بالأسلاك الشائكة تمتد بطول السور كأنه سور سجن قديم، من بعيد لاحت البوابة الحديدية مغلقة ورجل أسمر بجلباب يجلس على دكة خشبية على جزء من السور بجانب البوابة كُتب بخط يدوي دار صفا لرعاية المسنين قرأها جلال ورددها بصوت خفيض لم تميزه زهيرة.

- بتقول إيه يا حبيبي؟

- بقول كان حقهم يسموها دار الجفا مش دار الصفا.

استطرد في حنق.

- أنا مش عارف ليه مش بيسموا الأشياء بمسمياتها الحقيقية؟!

لو سموها دار العقوق كان هيبقى أفضل.

حاولت أن تجاريه في فلسفته.

- ساعتها هتبقى قاسية أوي.

ازداد تبرمه وقال في مرارة.

- تبقى قاسية وتفكر المجتمع بالجريمة اللي بتحصل أحسن ما يبقى الاسم خادع والناس تتعود وتفتكر إن ده مش عقوق زي ما اتعودنا نسمي الرشوة بقشيش أو شاي أو إكرامية لو فضلت اسمها رشوة هنتكسف نطلبها.

بلعت ريقها في مرارة ولم تستطع أن تنبث بكلمة.

نظر جلال ناحية المبنى الكبير واتجه بخطوات بطيئة ناحيته فظهر من بعيد عدد من النزلاء وقد أخذوا في الانتشار في جوانب الدار يلتمسون الدفء في أشعة شمس الشتاء.

ازداد تشبث زهيرة بذراع جلال ورفعت إليه عينين حزينتين.

- مين دول؟!!!!

لم يكن السؤال غريبًا هي دار مسنين فلابد أن تجدهم فيها، لكن هيئتهم لم تكن كهيئة أي مسن رأته من قبل، كانوا كأشباح حزينة بدو كأجساد خاوية غادرتها أرواحها.

ذكره ذلك السؤال بأبيات من قصيدة «لا أعرف الشخص الغريب للشاعر محمود درويش» كان دائمًا ما يقرؤها.

- لم أجد سببًا لأسال من هو الشخص الغريب؟؟

وأين عاش وكيف مات؟؟

فإن أسباب الوفاة كثيرة من بينها وجع الحياة.

بدا عليها أنها لم تدرك ما يقصده فأردف وهو يشير إليهم بسبابته.

- كلنا مشتركون في وجع الحياة.

●●●

obeikan.com

وقف ذلك الرجل الممتلئ ذو البشرة السمراء والشعر الأسود الكثيف وهو يتحدث الإنجليزية بلكنة هندية.

- الموقع حلو بس الشقة محتاجة تعديلات.

نظرت سبيل إلى مازن الواقف بجوارها شاب أربعيني طويل القامة حليق الرأس ملامحه حادة قاسية، مطت سبيل شفتيها وأشارت بيدها إليه ليرد.

فهم حركة يدها واقترب من فيجاي مبتسمًا.

- متقلقش مستر فيجاي كل التعديلات اللي هتطلبها هتتعمل.

أخذ فيجاي يتجول في الشقة، أشار إلى باب الصالون الزجاجي المغلق فتقدم راجي وفتحه.

- المكان ده مناسب لعرض الأجهزة يتعمل فيه استاندات وفاترينات عرض.

قال فيجاي في هدوء.

أشار مازن بيده إلى جزء في حجرة الصالون.

- وهنا مستر فيجاي يتعمل مكان انتظار العملاء عشان يبقى فيه فرصة يتفرجوا على الأجهزة وهما قاعدين.

أومأ فيجاي موافقًا مازن ومثنيًا على اقتراحه.

اقترب راجي من سبيل في ابتسامة وهمس في أذنها.

- مازن شكله فاهم هيعمل إيه وفيجاي مقتنع بيه.

- طبعًا أمال إحنا هنديله ١٠٠٠٠ جنيه ليه؟

أنهى مستر فيجاي جولته في الشقة وانحنى في احترام مودعًا، سبقه مازن إلى الباب وفتحه له وتبعهم راجي وسبيل إلى الباب فأشار لهم مازن بالبقاء.

- خليكم إنتوا أنا هنزل معاه عشان أظبط الدنيا.

أغلق الباب في ابتسامة وهو ينظر إلى سبيل التي بدا عليها الارتباك.

أسرعت سبيل إلى حقيبتها الموضوعة على ترابيزة السفرة وأمسكتها فاقترب منها راجي.

- إيه على فين؟

تحاشت نظرات عيونه التي تلتهمها وقالت في ارتباك.

- لازم أمشي عشان قلت لبابي إني هعدي عليه عشان باقي فلوس مازن.

اقترب منها راجي ووضع يديه على خصرها محاولاً ضمها إليه.

obeikan.com

- أنا حاسس إني محظوظ عشان انتي جنبي.

أزاحت يده من على خصرها وأخرجت سيجارة في توتر وأشعلتها وأخذت نفسًا ونفسته في توتر وعصبية.

- أنا لازم أنزل حالاً مش هينفع أبقى هنا أكتر من كده.

جذب يدها إلى كنبة بجواره.

- طيب خلاص تعالي أقعدي نتكلم.

حاولت أن تسحب يدها من يده لكنه أبقاها فقالت في تململ.

- الأيام جايه كتير وهنقعد ونتكلم.

اتجهت ناحية الباب فتبعها راجي مختلسًا نظرة على مؤخرتها المنتصبة.

- إبقي كلميني طمنيني.

فتحت الباب والتفتت إليه.

- أكيد أول ما أنزل من عند بابي هكلمك.

- بحبك أوي.

اطمأنت أنها أصبحت خارج الباب فأرسلت له قبلة ملتهبة من شفتيها في الهواء أشعلت النار في جسده ثم غادرت.

obeikan.com

أغلق راجي الباب وسحب نفسًا عميقًا متتبعًا أثر رائحتها المثيرة بأنفه كذكر الأيل الأحمر في موسم التزاوج.

●●●

جلست سعاد خلف مكتبها الخشبي الذي يعلوه قرص من الزجاج الشفاف، جلس جلال أمامها على كرسي من الخيزران وعلى كرسي آخر في المقابل جلست زهيرة، تظاهرت سعاد بالانشغال ببعض الأوراق أمامها محاولة استدعاء أي مشهد يحدث فيه البطل ذلك التأثير السحري من الارتباك والخوف على من يجلس أمامه لكنها لم تتقن الدور وشعرت هي بالارتباك والخوف حينما لمحت بطرف عينها جلال وهو يحدق بها وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة غامضة كأنه يرى ما تفكر فيه ويسخر منه.

نظرت إليه في ابتسامة مصطنعة.

- أهلاً بيك أستاذ جلال.

أهلاً بيكى مدام زهيرة.

- أهلاً وسهلاً مدام سعاد.

- عايزة باختصار أقولكم كام نقطة مهمين.

لم تتغير ابتسامة جلال واصلت سعاد محاولة تجاهل تلك الإبتسامة.

obeikan.com

- أهم حاجة بتهتم بيها الدار هي سلامة النزيل وسلامته دي بتتحقق بإنه يحافظ على النظام وإن أي حاجة هو عايزها بيعرضها على الإدارة.

دون تغير في ملامحه.

- حضرتك يعني؟

لم تستطع تمييز ما إذا كان يسأل أم أنه يسبقها بخطوة فيما يدور في رأسها فقد كانت تلك المقدمة تحفظها جيدًا وتلقيها أمام كل نزيل لتؤدي في النهاية حتى تقول إن الإدارة هي أنا.

- أنا هنا بمثّل الإدارة وفي نفس الوقت بعتبر إني بمثلكم، مهمتي هي تلبية كل رغباتكم.

أراد جلال اختصار ذلك الحديث الممل فقد ميز شخصيتها سريعًا.

- وبما إنك وسطينا فانتي ستر وغطا علينا طبعًا صح؟؟

اتسعت عيناها واندفع الدم إلى وجهها فهذا ما كانت تريد أن تمهد له لكن حين يجد الشخص نفسه مباح الفكر والنوايا ليس له ستر من دون الناس يشعر وقتها أنه تجرد من ملابسه وقد تهاوت كل جدران الأمان التي يختبئ وراءها.

أراد جلال أن ينهي الحوار رأفة بحالها فقد كانت أضعف مما كان يتخيل.

- أنا والمدام عايزين نقضي اليومين اللي فاضلين في هدوء وسلام لا هنضايقك ولا هنضايق حد وهنسمع كلامك وأي حاجة هنقولك عليها وملناش طلبات خالص.

بدأ الارتياح يبدو على سعاد قبل أن يصعقها بجملة أخيرة أسقطت كل الجدران وأسقطت حتى ما ترتدي من ملابس.

- وأهم ميزة فينا أننا لا نسمع ولا نرى ولا نتكلم.

وقف جلال في تثاقل ومدّ يده إلى زهيرة ممسكًا يدها واتجها إلى الباب المفتوح تاركين سعاد تلملم ملابسها وترمم جدرانها.

في الخارج أمام المبنى الكبير على جزء من العشب الذابل انتصبت برجولة خشبية طليت باللون الأخضر الذي تحول تحت وطأة الشمس والأيام إلى لون رمادي غريب أو ربما مسه الكبر كمن جلسوا عليه.

داخل البرجولة على شكل دائري وضعت دكك خشبية على شكل نصف دائرة في مواجهة مدخل المبنى الكبير.

opeikan.com

جلس على الدكك سيدتان يبدو من هيئتهما رقة الحال وبلغا من العمر عتيًا، تغزل إحداهما همومها في قلب خيوط من التريكو شاحبة وباهتة تمامًا كتلك النظرة التي ترتسم على وجهها والأخرى شاردة بعينين جاحظتين تدوران في حيرة في كل مكان.

غير بعيد قبع كهل ثمانيني على كرسي متحرك، أطرق رأسه إلى الأرض لا يحركها، بجواره جلست زينب فتاة سمراء نحيفة لم تكمل عقدها الثاني بعد، كانت ترتدي زيّ الدار الموسوم بشعارها، اقترب جلال تتكئ على يده زهيرة.

- السلام عليكم.

ردت السيدتان في صوت خافت أما الرجل فلم يحرك ساكنًا وأشارت زينب التي تجلس بجواره إلى أذنها.

- هو مبيسمعش.

أطبقت زهيرة يدها على ذراع جلال الذي أحس بنبضات قلبها تتسارع فقرر الابتعاد بها ناحية المبنى المميز.

- مالك يا حبيبتي؟

- إحنا هنبقى زيهم كده؟

لم يستطع جلال الإجابة فتابعت بصوت مرتعش.

- أرجوك يا جلال أنا مش عايزة أموت هنا.

في ثبات وحسم.

- إحنا هنموت في المكان اللي ربنا مقدر لنا نموت فيه.

دمعت عيناها ونزلت دموعها ساخنة على وجنتيها الذابلتين وتمتمت بصوت ضعيف.

- ليه يا ابني تعمل فينا كده ده أنا دوقت المُرّ عشان أخلفك!!

ضمها جلال إليه وقد أشفق عليها ومسح دموعها بكفه فلا يوجد أحد في هذه الدنيا يستطيع أن يشعر بما تشعر به غيره هو.

هو فقط من عاش معها لحظة مماثلة قبل أربعين عامًا.

●●●

أمام تلك البناية التي امتلأت واجهتها بلافتات الأطباء بميدان باب اللوق استندت فتاة رقيقة بشعر بني قصير على يد زوجها الشاب المشوق وقد أمسك بيدها بينما تنهمر دموعها على وجنتيها النضرتين وقد أخذ يمسح دموعها بكفه.

- يعني أنا مش هخلّف!!!!

- حبيبتي الدكتور مقالش كده.

قال فيه شوية مشاكل لازم نحلها الأول عشان يحصل حمل.

obeikan.com

انقبضت رئتيها وشعرت بصعوبة في التنفس وتمتمت في ضعف.

- يعنى أنا مش طبيعية؟!

- حبيبتى انتي طبيعية وأحسن من كل البنات.

ده بالعكس بقى البنات اللي بتحمل على طول بتظهر المشاكل في البيبي لكن إحنا أحسن نحل المشاكل الأول عشان البيبي يطلع جميل زيك.

ابتسمت رغم دموعها المترقرقة، كانت لديها تلك البراءة التي تجعلها تستطيع أن تجمع بين الضحك والبكاء.

لم يستطع جلال أن يقاوم براءتها فأحبها حبًا ملأ كيانه رغم كثرة التجارب التي عاشها وقصص الحب التي ارتوى منها، كانت قصصًا وتجارب لا تتجاوز صفحات الروايات فقد كانت كل رواية يقرؤها بمثابة تجربة يعيشها لا سيما روايات إحسان عبد القدوس التي عرف منها كيف يكون للجسد احتياجات تطغى على العقل، أعجب بأسلوبه ومنطقه وجرأته وصار كاتبه المفضل.

لقد كانت معظم روايات عبد القدوس التي قرأها تصور فساد المجتمع المصري وانغماسه في الرذيلة وحب الجنس والشهوات وابتعاده عن الأخلاق.

يذكر جلال أنه قرأ يومًا خبرًا في إحدى الصحف أن الرئيس عبد الناصر اعترض على رواية البنات والصيف والتي وصف فيها عبد القدوس حالات الجنس بين الرجال والنساء في أجازات الصيف وأن عبد القدوس أرسل للرئيس عبد الناصر يخبره أنه يكتب من وحي الواقع بل أن الواقع أسوأ بكثير وأنه يكتب أملاً في إيجاد حلول.

شكلت كتابات عبد القدوس وجدان وعقل جلال، ظن أن المرأة هي فقط التي في كتاباته.

حتى رأى زهيرة أحس أنه وقع على كنز لم يكن له مثيل في الدنيا، كانت بمثابة صفحة بيضاء خط هو أول خطوطها وحفر في قلبها أول كلمات الحب، لقد تعرفت على العالم من خلاله لم تكن تعرف قبله معنى الحياة.

طوال ثماني سنوات عاشت زهيرة حياتها متنقلة في عيادات الأطباء تبحث عن حل للإنجاب، كان جلال بجانبها في كل لحظة لم يشكُ يومًا.

قالت له مرة وقد تملكها اليأس.

- إتجوز.

- أتجوز مين؟؟

ﻓﻲ عدم اكتراث.

- أي واحدة.

ﻓﻲ رقة وهدوء.

- وتضمني لي منين إنها تكون بتخلف؟

أشاحت بوجهها أطرقت إلى الأرض ﻓﻲ يأس.

- إتجوز واحدة تكون خلفت قبل كده.

- طيب واللي هخلفه هيكون شبهك؟

ﻓﻲ تلقائية.

- لأ طبعًا هيبقى شبهي منين؟!!!

- يبقى مش عايزه.

رفعت عينيها ﻓﻲ تمنٍ.

- يعني مش هتزهق؟؟

أحاط وجهها الصغير براحتيه.

- لو حد من حقه يزهق فهو انتي.

أنا لا بتشك بحقن ولا باخد أدوية ولا بعمل أشعة.

obeikan.com

ملأت عينيها دمعتان كحبات اللؤلؤ وهمست في وله.

- أنا بحبك.

- أنا بعشقك.

كان يشعر بما تشعر به من ألم فأي امرأة يمكن أن تتقبل أن تكون غير جميلة أو أن تكون فقيرة أو أن تكون بأي عيب، أما أن يكون العيب في كونها امرأة تحمل وتلد وترضع فهذا فوق احتمال البشر.

في صبيحة يوم جمعة استيقظ جلال قبل أذان الظهر بوقت قليل، كان الشيخ في المسجد المجاور لهم لم ينهِ قراءة القرآن بعد.

أسرع جلال فتوضأ وذهب إلى الصلاة.

كان عنوان الخطبة بر الوالدين وقد أفاض الخطيب في تعديد فضل بر الوالدين وساق من الآيات والأحاديث الكثير، كان ضخم الصوت عاليه، فخم الراءات والقافات يتمايل يمينًا ويسارًا يتحشرج صوته أحيانًا في تلاوة آية فيهمهم المصلون إعجابًا، كان يجلس إلى جواره صبي صغير لم يتجاوز الثامنة في جلباب أبيض ويرتدي طاقية بيضاء وقد استند هذا الصبي إلى والده وكان الصبي ينظر إلى والده في إجلال وحنان معًا ويبدو أن كلام الخطيب مسّ هذا الصبي أو أن أجواء المسجد وصوت الخطيب وهمهمة المصلين هي من استرعت انتباهه وإعجابه.

obeikan.com

شعر جلال حينها بحنين إلى صبي يصحبه في الدنيا يمشي بجواره إلى المسجد يعلمه ويخط على صفحته البيضاء.

عاد جلال إلى البيت وقد وجد زهيرة أعدت الإفطار فابتدرته في لوم.

- إنت مصحتتيش ليه قبل ما تنزل؟!

- صحيت قبل الصلاة بدقايق.

دخل جلال إلى حجرة مكتبه وأخذ يلملم كل التحاليل وكل الإشاعات وكل روشتات الأدوية ووضعها في ملف ورقي كَتَب عليه «رب لا تزرني فردًا وأنت خير الوارثين» وكتب أسفل الآية «عبدك الفقير جلال».

نادى جلال على زهيرة بصوت عال فحضرت، إقترب منها وأجلسها على كرسي أمام المكتب.

- إحنا عملنا اللي علينا طول السنين اللي فاتت والملف ده يشهد.

وضع الملف أمامها.

أمسكت زهيرة الملف من جلال وقرأت الآية على غلافه وفتحته فرأت كل التحاليل والأشعات وروشتات الدواء، مدّ إليها

جلال القلم الذي كان يمسكه وضعت زهيرة الملف على المكتب وأمسكت القلم وكتبت أسفل اسم جلال «عبدتك زهيرة».

إبتسم جلال.

- هي مش بتتكتب كده.

- أمال بتتكتب إزاي؟

- تتكتب أمتك زهيرة.

ضحكت ثم وقفت واستدارت إليه وارتمت بين ذراعيه.

●●●

أفاقت سعاد من شرودها منذ أن خرج جلال من مكتبها على صوت الهاتف الأرضي وجاءها ذلك الصوت الأجش.

- إيه الأخبار؟

- كله تمام.

- مال صوتك انتي نايمة ولا إيه؟!

- يا باشا هو أنا أقدر أنام ده أنا عينيك هنا في الدار!!!

- المهم عندنا زيارة بكره.

ابتسمت ابتسامة واسعة.

obeikan.com

- يا مسهل بقالنا كتير من أول الشتا مفيش حد عبرنا.

- موجة الساقعة والمطر اليومين اللي فاتوا عملوا شغل.

جهزي نفسك.

- تمام يا باشا.

- وأخبار الاتنين اللي جم إمبارح إيه؟

انصرف بصرها إلى ملف جلال على مكتبها.

- لسه بدرسهم بس متقلقش سعاد مبتغلبش.

- أنا متأكد.. سلام.

- سلام.

أغلقت سعاد الهاتف وأمسكت ملف جلال وتمتمت بصوت خافت.

- سعاااد مبتغلبششش.

●●●

كان ذلك اليوم يبدو يومًا عاديًا من أيام العمل بديوان عام وزارة التربية والتعليم قبل أن يدخل عاشور الساعي إلى مكتب الأستاذ جلال.

obeikan.com

- الأستاذ مرسي عايز حضرتك.

- أنا جاي على طول.

لملم جلال بعض الأوراق في ملف أمامه وحمله وخرج من مكتبه ودلف إلى طرقة طويلة آخرها ظهرت لافتة كُتب عليها «الإدارة المالية».

طرق جلال الباب ثم دخل.

- صباح الخير يا أستاذ مرسي.

- صباح الخير يا جلال.

أشار له بالجلوس ووقع بعض الأوراق وأزاحها من أمامه جانبًا فبدأ جلال بفتح الملف الذي بيده.

- أذون الصرف بتاعة المقاول جاهزة على توقيع حضرتك.

- سيبك من المقاول.

أنت سمعت عن دكتور اسمه محمد أبو الغار؟

- لأ ماله حضرتك؟

- ده من أشطر الدكاترة بتوع النسا والولادة.

وضع جلال الملف على ترابيزة أمامه ومال ناحية الأستاذ مرسي.

opeikan.com

- الموضوع مش موضوع شطارة الموضوع عايز معجزة.

- أسمع للأخر.

الراجل ده عمل مركز اسمه المركز المصري لأطفال الأنابيب في المعادي ده أول مركز يتعمل في مصر والشرق الأوسط.

خد مراتك وروح.

- يا فندم العملية دي بتتعمل بره وغالية جداً.

هزّ رأسه في تبرم.

- يا سيدي بقولك الراجل دخّل الموضوع مصر لأول مرة، روح وشوف تتكلف كام.

في ارتباك.

- أنا آسف يا فندم بس أنا ما صدقت إن زهيرة نسيت الموضوع مش عايز أعلقها بأمل تاني.

في نبرة حاسمة.

- أسمع الكلام الموضوع جديد وفيه ناس كتير ابتدوا يعملوه.

نهض جلال ومدّ يده شاكراً.

- ألف شكر يا فندم.. حضرتك أب لينا كلنا.

obeikan.com

- أبوك اللّه يرحمه كان أستاذنا.

شكره جلال وعاد إلى مكتبه وكلام الأستاذ مرسي ينهش رأسه.

- أقولها ولا بلاش؟!

بلاش متعلقهاش بأمل تاني.

ما يمكن الموضوع ينجح.

طيب وتكلفة العملية؟!

مش مهم المهم الموضوع ينجح إنشاء اللّه أبيع هدومي.

ممكن يبقى فيه خطر على صحتها؟!

يا سيدى نروح ونشوف والدكتور هو اللي يقول.

ألف فكرة وفكرة دارت في رأس جلال هذا اليوم ولم يصل لتأكيد أيًا من تلك الأفكار لكن الأكيد أن هذا اليوم لم يكن يومًا عاديًا كما بدأ.

●●●

كانت الشمس تميل إلى الغروب وكانت السيارات الملاكي تزحف على استحياء بجانب الميكروباصات التي بدت ككلاب جامحة تريد أن تنطلق فتكبحها سلاسل علقت في رقابها وكان

التوكتوك ذلك الكائن الثقيل يشارك في هذا الصراع يحتل كل فراغ صغير يتبقى من السيارات.

في إحدى سيارات الميكروباص جلس ياسين بعد أن أنهى عمله في ذلك المطعم وقد شق الميكروباص طريقًا سريعًا متجاوزًا طريق الواحات إلى أن علق في ذلك الزحام في أول شارع الملك فيصل، ألقى الميكروباص بنفسه في أتون المعركة أما ياسين فقد وضع سماعات هاتفه المحمول في أذنيه مستمعًا إلى الراديو مفضلاً عدم سماع الموسيقى التصويرية المصاحبة لمشهد الصراع المتكرر في فيلم شارع فيصل.

توقف أحد التكاتك فجأة أمام الميكروباص وهبطت منه فتاة قد غطت رأسها بكاب أحمر وارتدت بالطو أسود طويل، أخذت تتجاوز المارة في خطوات سريعة، حدق ياسين في ملابسها وفي ذلك الشعر المتهدل على كتفيها فغر ياسين فاه وصاح بصوت عالٍ.

- على جنب يا أسطى.

هبط سريعًا وأسرع خطاه وراء تلك الفتاة إلى أن أصبح بينه وبينها أمتار معدودة فلمح جانب وجهها وهي تلتفت فتمتم في صوت خافت.

- هي البت بتاعة المطعم بس بتعمل إيه هنا دي؟!!! يا ترى ساكنة هنا!!

openkan.com

حافظ على المسافة بينه وبينها، كانت تمشي بخطوات سريعة لا تلتفت لأحد ممن ألقوا عليها عبارات الغزل، انحرفت يمينًا في شارع جانبي وواصلت السير إلى أن وقفت أمام بركة من الماء توسطت الشارع بحرص شديد تجاوزتها فقد كان حذاؤها ذو الكعب العالي غير مهيئ للمشي في تلك البيئة، بعد أمتار قليلة دلفت إلى إحدى البنايات وصعدت سلمًا صغيرًا يؤدي إلى المدخل ثم صعدت السلم الخاص بالبناية ولم تقف أمام الأسانسير.

انتظر ياسين قليلاً ثم صعد خلفها ووصل بخفة إلى الدور الأول، كان هناك شقتان واحدة عن اليمين والأخرى تقابلها على اليسار ولا توجد أي علامات على الأبواب، صعد إلى الدور الثاني نفس الشقتين بدون علامات أيضًا.

همّ بالنزول قبل أن يسمع صوتًا في الدور الأول، كان صوتها تحدّث أحد الأشخاص وقد فُتح باب الشقة وخرج منها فتى لم يتجاوز الخامسة عشر من عمره يمسك في يده ورقة حمراء فئة الخمسين جنيهًا وأغلق الباب.

هبط ياسين سريعًا وخرج من باب البناية مراجعًا علامات الشارع ومدخل العمارة.

●●●

أكمل جلال السير في حديقة الدار تستند إلى يده زهيرة وقد لاحت أمامهم البوابة الحديدية ومن خلفها بدت الحياة تدب بإيقاع آخر.

بجوار البوابة جلس حشمت على دكته الخشبية.

نظر إليها جلال كانت لا تزال مشدوهة، أشار إليها ناحية البوابة.

- تعالي نتمشى ناحية البوابة.

- هنخرج؟؟

- مش دلوقتي.

إقترب جلال من حشمت في ابتسامة.

- السلام عليكم.

- وعليكم السلام يا بيه.

مدّ جلال يده إلى حشمت مصافحًا.

- أنا جلال موظف سابق في وزارة التربية والتعليم ودي زوجتي مدام زهيرة.

مدّ حشمت يده فصافح جلال واكتفى بتحية زهيرة من بعيد.

obeikan.com

- أهلاً بيكم في الدار.. أنا حشمت الغفير.

- من فين يا حاج حشمت؟

- من أسيوط.

- ومبسوط هنا؟

- الحمد لله يا بيه الشغل مش متعب تقريبًا بنام أكتر ما بشتغل.

بدا حشمت رجلاً بسيطًا ملامح الجنوب تكسو وجهه، تعوّد على العمل البدني يقيس صعوبة العمل بمدى المجهود الجسدي الذي يُبذل فيه، يملك حكمة البسطاء.

كان يُشفِق عليهم من هذه الدار.. بدا ذلك من ملامحه.

تطلّع جلال إلى خارج الباب الحديدي ينظر إلى المارة لأول مرة يدرك قيمة أن تمشي حرًا دون قيود، لاحظ جلال كثرة الوجوه السمراء في الشارع.

- واضح إن فيه سودانيين كتير ساكنين هنا!

التفت حشمت ناحية الباب.

- دول مش سودانيين بس سعاتك دول من بلاد كتير عشان المفوضية بتاعة اللاجئين في آخر الشارع.

obeikan.com

تأمل جلال الوجوه السمراء ليرى في عيونهم نظرة انكسار مَن فارق بلاده وأهله لا يعلم هؤلاء أن هناك لاجئين في بلادهم ولا يعلموا أن هناك أغراب وسط الأهل فالغربة داخل الإنسان وليست خارجه.

وقع نظر جلال مرة أخرى على اسم الدار الذي كُتب على السور وتوقف عند كلمة صفا، أثارت الكلمة غضبه مرة أخرى فغمغم بكلام غير مفهوم وهو شارد خارج الدار.

قطع جلال شروده ونظر إلى حشمت الذي يراقبه في صمت.

- إنتوا عندكم في الصعيد دار زي دي؟

تنهد حشمت كما لو أطل من نافذة على بلدته.

- عندينا لو الواحد ماشالش أبوه وأمه يتعاير بيهم؟

- ولو مالهمش أولاد؟

في نبرة تفاخر.

- يبقى أي قريب ما يتفاتوش واصل.

اقتربت زهيرة في خطوات تلقائية ناحية الباب فنظر حشمت إلى جلال.

- ممنوع حد يقرب ناحية الباب الست سعاد كاشفة البوابة.

وضع جلال يده على كتف زهيرة وأمسك يدها وجذبها واتجها إلى الداخل، التفت جلال إلى حشمت من وراء كتفه.

- ممكن أبقى آجي نكمّل كلامنا؟

- بعد صلاة العشا بقعد شوية إبقى تعالى اشرب معاي الشاي.

أومأ جلال بابتسامة واتجه ناحية المبنى المميز ممسكًا يد زهيرة مسترجعًا كلام حشمت..

تابعهم حشمت في إشفاق حتى ابتعدوا.

- اللّه يرحمك يا أمي.

قالها وهو ينظر إلى البوابة الحديدية وقد لاح أمامه ذلك اليوم الذي ترك فيه منزله في الصعيد.

ارتفع صوت أذان الفجر في تلك القرية في جنوب مصر فشق السكون الذي غلفها وسرى الصوت في خشوع عبر الميكروفون الكبير الذي علق بحبل من الليف على جذع النخلة المقابلة للجامع، أخذت بعض الأجساد النحيلة تتحرك من بعيد في الظلام قادمة ناحية المسجد.

ebeikan.com

تعالت أصوات الطيور في أحد المنازل الطينية منتظرة وجبة الإفطار التي اعتادوا عليها، ازداد صياح البط مع أول حركة لخديجة التي استيقظت في نشاط وأمسكت علبة من الصفيح كانت يومًا عبوة محترمة من عبوات السمن الصناعي قبل أن تبيِّت بها بقايا خبز جاف منقوعة من ليلة أمس، أخذت خديجة تلقي لهم كتل الخبز الطرية فتدافعت الطيور والبط مع الدجاج والإوز حتى الحمام هبط من بنيته في كبرياء يلتقط فتات الخبز من على أطراف هذه المعركة.

كانت للطيور والحيوانات في تلك البيوت حقوقًا أعظم من حقوق الإنسان التي أقرتها مواثيق الأمم المتحدة، تأكل الحيوانات والطيور وتشرب قبل أهل البيت، تشاركهم المنزل كأنهم أصحابه لا يتأففون منهم ولا يضجرون، يعاملونهم برفق ورحمة وكيف لا والحيوانات والطيور مصدر رزقهم وطعامهم.

كانت خديجة تدور في الدار كالنحلة، أوقدت الكانون ووضعت فوقه حلة صغيرة من الألومنيوم ملأتها باللبن المحلوب من مساء الأمس، أخذت تزيل فضلات الطيور من على مصطبة طينية توسطت الدار جلست دون أن تشعر، شردت عيناها الواسعتان كوجه فرعوني رُسم على جدار معبد فقد كان اليوم غير كل الأيام.

انتبهت إلى يد صغيرة تمسك جلبابها المنقوش بنقشة اللوبيا،

obeikan.com

كانت صفية ذات الأربع سنوات تقف تفرك عينيها من بقايا النوم بظهر يدها.

التفتت لها خديجة في حنان وضمتها إليها.

- روحي صحي إخواتك على ما اعملكم الفطار.

دلفت خديجة إلى حجرة جانبية أسدل على بابها بطانية قديمة من الخيش كانت بمثابة باب الحجرة، أزاحتها ودخلت فوجدت زوجها قد جلس على سرير من جريد النخل علته مرتبة قطنية خرجت أحشاؤها.

في قلق بدا على وجهها الحزين سألت.

- مالك يا حشمت؟

نظر إليها في إشفاق.

- منمتش طول الليل.

- حسيت بيك بتتقلب.

وضع رأسه بين يديه وأطرق إلى الأرض.

- أنام كيف وأنا فايتكم؟

أمسكت بكتفه محاولة التخفيف عنه.

obeikan.com

- متشيلش همّنا وبعدين يعني إنت فايتنا بكيفك ما الحال زي ما إنت شايف.

- إن شاء اللّه أول فلوس أدبرها هبعتهالك.

وقفت أمامه وأمسكت ذراعه.

- قوم عشان تفطر.

- هلحق الفجر الأول.

خرج من باب الدار فوجد أولاده يغسلون وجوههم بماء الطرمبة الحبشية المنتصبة خارج الدار، ضمهم في حنان ثم أمسك صفية ورفعها إليه واحتضنها فسألته في براءة.

- إنت مسافر يا ابا؟؟

- أيوة.

- هاتلي حاجة حلوة؟

- حاضر يا بتي.

نظر إلى ولديه أحمد ومحمود اللذين بدت عليهما ملامح الرجولة.

- خلوا بالكم من أمكم ومتتعاركوش مع بعض.

obeikan.com

في صوت واحد.

- حاضر يا بوي.

تحشرج ميكروفون الجامع قبل أن يعلن المؤذن إقامة الصلاة.

أنزل حشمت صفية بجانب أخويها.

- هصلي الفجر وجاي تاني.

أسرع الخطى ناحية الجامع ورأسه تمتلئ بالأفكار والمشاعر المختلطة، أول مرة يغادر فيها قريته، صحيح أنه لن يغادر مصر إلى دولة أخرى ككثير من أهل القرية لكن أليس البعد عن الأولاد والزوجة غربة!! أليس الفقر وضيق الحال غربة!!! تمتم مع إمام الجامع حين رفع صوته الأجش الله أكبر.

- يارب ملناش غيرك.

داخل الدار جلست خديجة شاردة وقد بدا عليها حزن عميق كانت تخفيه أمام زوجها وأولادها.

لا تملك إلا أن تشد من ظهر زوجها لابد أن تظل صامدة قوية كما علمتها تلك البيئة القاسية التي لا تعترف بضعف امرأة ولا لوعة فراق تصرخ بصوت مكتوم تهتز له جدران البيت العتيقة ولا يسمعه أحد.

obeikan.com

كانت تسخر مع جارتها على فلانة التي تبكي لفراق زوجها وعلى علانة التي تهرول إلى ساعي البريد تسأله على خطاب زوجها الذي تأخر ثلاثة شهور لكن دائمًا «اللي على الشط عوام» أتى اليوم الذي تذوق فيه ألم الفراق ولا تستطيع إلا الصمت.

أفاقت من شرودها على صوت أحمد.

- يا امًّا جدتي بتنادي عليكي.

نهضت خديجة ودلفت إلى حجرة صغيرة بجانب الفرن البلدي أزاحت بابًا آخر من الخيش يغطي باب الحجرة جلست دهب أو أم حشمت كما ينادونها امرأة تجاوزت العقد السادس من العمر، نحيفة دقيقة الملامح، افترشت الأرض على سجادة صلاة قديمة نُحِل وبرها تسبّح على أناملها في خشوع كأنها ولي من الأولياء جلس تحت قبته.

شبّكت خديجة يدها أمام صدرها وفي تبجيل وانحناءة خفيفة من هامتها.

- عايزة حاجة يا أمي؟

بهدوء وسكينة.

- وينه حشمت؟

- راح يصلي.

سألت في حنان.

- غيَّر ريقه قبل ما يطلع؟

- لا قال لما يرجع.

رفعت رأسها إلى فتحة صغيرة أعلى الغرفة ينبعث منها نور الفجر الأبيض فانعكس على وجهها فلا تعرف بالتحديد مصدر النور وجهها أم تلك الفتحة تمتمت في حزن.

- عارفاك يا ولدي لما تكون مهموم خشمك ما يدوق الزاد.

- أنا هكبله دنشة عسل مع العيال وأحطله حتة جبنة طرية لسه قطعاها من الشندة.

- لا يا بتي قومي اسلقيله كام كحريته وصري قطعة الجبنة معاهم وقمري رغيفين وحطي شوية حياق في ورقة وحطيهم في المنديل وهو لما يركب القطر هيجوع ويبقى ياكل.

- حاضر يا أمي.

أطرقت إلى الأرض تكمل تسبيحها في خشوع ووقار.

في الجامع سلّم الإمام يمينًا ويسارًا والتفت إلى المصلين في هدوء يسبّحون في خشوع تعلو وجوههم مسحة من الرضا لا تراها إلا على وجوه الكادحين، وقف حشمت متجهًا إلى باب المسجد ولحق به بعض المصلين.

في خارج المسجد وقفت سيارة تويوتا ربع نقل بيضاء على نصفها الخلفي غطاء من قماش سميك أكلته الشمس، أرخى على قوائم حديدية بداخلها دكتان خشبيتان عن اليمين وعن الشمال وقف بجانبها الأسطى حنفي السواق رجل أربعيني ممتلئ الجسم، بدأ يتجمّع حول السيارة بعض الرجال والشباب ممن قرروا السفر إلى القاهرة ليبتغوا من فضل الله ورزقه، اقترب حشمت من حنفي السواق الذي جلس مسندًا ظهره إلى سيارته.

- معليش يا عم حنفي هطل على أمي أسلّم عليها دقايق وهاتلاقيني قدامك.

دون أن ينظر إليه وهو يضغط على قطعة الفحم المتقدة على حجر المعسل فوق الجوزة ويسحب نفس عميق وينفثه أمامه.

- جوام يا حشمت القطر مابيستناش حد.

خفق قلب حشمت لسماع اسم القطار فطالما سمع عن هذا الوحش الذي أكل كثيرًا من أهل القرية ما بين مدهوس على قضبانه وما بين محترق في عرباته، كان تأثير سماع اسمه أقوى من تأثير سماع اسم أمنا الغولة ذات العيون الحمراء عليه وهو صغير.

تناولت خديجة بعض البيض من قن الفروج ووضعته في

صفيحة أخرى كتلك التي نقعت بها خبز الطيور ووضعتها على الكانون الذي اشتعلت النار بين أحجاره.

وتناولت صفيحة العسل الأسود عسل نجع حمادي الشهير ومن ثقب أعلى الصفيحة صبت منه في طبق من البلاستيك أمام الأطفال الذين جلسوا على المصطبة في دائرة وأمام كل منهم كوبًا من اللبن كان كل شيء في الدار يعكس الفقر وضيق ذات اليد كغالبية البيوت في قرى الصعيد.

دخل حشمت من الباب فهشت إليه خديجة.

- تعالى غير ريقك مع الولاد.

بامتعاض.

- ماليش نفس.

مصمصت شفتيها في غيرة ودهشة.

- كانها أمك عارفاك أكتر مني.

في لهفة.

- هي صحيت.

ودون أن ينتظر إجابة أسرع إلى حجرتها ودخل عليها جثا على ركبتيه عند قدميها وأمسك يدها وقبلها.

obeikan.com

- ادعيلي يا أمي.

- داعيالك يا وليدي ربنا ينجحلك المقاصد.

- ادعيلي حملي يخف.

في صوت امتلأ حكمة ورضا.

- الحمول كلها تقيلة يا ولدي ربنا يشد ضهرك وتقدر تشيل.

- ربنا يشد ضهرك وتقدر تشيل.

كررها حشمت وهو لا يزال واقفًا يراقب الشارع من خلف قضبان البوابة.

●●●

منذ ثلاثين عامًا جلس جلال وزهيرة في حجرة الاستقبال في المركز المصري لأطفال الأنابيب بالمعادي منتظرين دورهم في الدخول لعرض التحاليل الخاصة بزهيرة على الدكتور محمد أبو الغار، وقع نظره على آية قرآنية وضعت على الحائط قرأها في نفسه.

«يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ».

- دي حكمة ربنا في المنع والعطاء.

- ليه ربنا بيخلينا نعاني عشان ناخد شيء طبيعي خلقه في كل البشر؟!

obeikan.com

ربنا مش متربص بينا ومش عايزلنا غير الخير.

معظم الناس بتخلّف ليه يمنع الصفة دي من بعض الناس وهو اللي زرع جوانا غريزة الأمومة والأبوة.

ربنا بيعرف اللي ينفعنا واللي يضرنا في اللحظة اللي بنعيش فيها وبيعرف برضه اللي بينفعنا واللي بيضرنا في المستقبل فلازم نصبر لحد ما نشوف حكمته.

واصبر إزاي على شيء ممكن مبقاش عايش لحد ما اشوف الحكمة منه؟!

عدم مدّ عمرك للحظة دي هو في حد ذاته حكمة، الأمر كله في اليقين.. يقينك بالله في كل شيء.

خواطر كثيرة دارت في عقله الدائم التفكير وهو يتأمل مفتاح الحياة المرسوم على العمود الأسطواني المنتصب في منتصف غرفة الاستقبال.

كان مفتاح الحياة هو شعار المركز كما هم الأطفال دائمًا مفتاح الحياة.

رفعت إحدى الممرضات صوتها باسم مدام زهيرة، جاء دور زهيرة للدخول للدكتور أبو الغار بعد ساعات طويلة من الانتظار، فقد كانت حجرة الاستقبال مكتظة بنساء ورجال من مختلف

الأعمار والطبقات، وقفت زهيرة في خجل وخوف لكن بالرغم من ذلك الخوف الذي يملؤها إلا أنها شعرت بأنها ليست الوحيدة التي لديها مشاكل في الإنجاب، فهي طبيعية على نحو ما، كانت تريد أن تقول لجلال تبرئ نفسها من وصمة النقص.

- فيه ستات كتير زيي-

بملامح بشوشة وابتسامة ملأت عينيه الفيروزيتين شرح لهم الدكتور أبو الغار كيف سيتم سحب الكثير من البويضات ووضعها في أنبوب ثم اختيار بويضة واحدة ووضع مئات الحيوانات المنوية معها إلى أن ينجح أحدهم في تخصيبها ثم إرجاع البويضة المخصبة إلى الرحم.

أنهى الدكتور أبو الغار اللقاء بروشتة ملأها بأدوية لتنشيط التبويض وبعض الفيتامينات، كانت تلك اللحظات من اللحظات الفارقة في حياة زهيرة وفي حياة جلال أيضًا فبعد أقل من شهر أخبرهم الدكتور أبو الغار بنتيجة تحليل هرمون الحمل في الدم الذي جاء إيجابيًا ليعلنهم الحالة رقم ١٧ في حالات الحمل على طريقة ما عرفت حينها بأطفال الأنابيب وذلك بعد عشر سنوات من زواجهم، عشر سنوات من المعاناة والبحث عن استكمال أهم صفات الإنسان الطبيعية.

●●●

أكمل ياسين طريقه سيرًا إلى منزله الذي كان يبعد محطتين عن المكان الذي نزل فيه فقد كان الصراع محتدمًا بين السيارات التي كانت تزحف كسلحفاة بطيئة.

- أنا عايز إيه من البنت دي؟؟

ومن إمتى وأنا بدور ورا حد؟

أسئلة كثيرة سألها ياسين لنفسه لم يعلم إجابتها لكنه يعلم أنه منذ أن وقعت عيناه على تلك الفتاة شعر أنه يعرفها منذ زمن وأنها غير ما تبدو عليه.

كان ياسين يعمل في ذلك المطعم بمدينة السادس من أكتوبر منذ سنتين فبعد أن تخرج من كلية السياحة والفنادق قسم الفندقة لم يجد في سوق العمل غير أن يعمل ستيوارت في الباك أريا إلى أن رقاه صاحب المطعم نادلاً في الصالة، كان يحلم بامتلاك مطعم أو كافيه يديره بفكره وطموحه حتى يجعل منه أكبر مكان في مصر، كان ككل الشباب رأى وتحدث مع فتيات كثيرة، فهناك من أبدى إعجابه بها ومنهن من أبدت إعجابها به لكنه يومًا لم يشعر بذلك الإحساس الذي أحسه حين وقعت عيناه على سبيل، أحس أنها فتاته التي ينتظرها ويبحث عنها ورغم أنه رآها مع شاب آخر لكنه كان يشعر أنها ستكون له.

obeikan.com

كان يحاول أن يبدو طبيعيًا أمامها حين يضع فنجانها المميز من القهوة، كان يشعر أنها تنظر إليه خلسة وأنها تتوتر حين يقترب لكنها تخفي ذلك التوتر بل تطرده طردًا من رأسها كل ذلك كان مجرد إحساس ليس عليه دليل هكذا كان يخبر نفسه في نهاية كل يوم يراها فيه في المطعم لكن اليوم تطور الأمر إلى شيء أخر ساقها القدر أمامه في منطقته أحس أنه اقترب منها خطوة عرف عنها معلومة صغيرة لكنها قد تكون هي المفتاح.

في ذلك اليوم أدرك أن سبيل باتت أقرب إليه من أي يوم مضى.

●●●

جلست سبيل جلستها المفضلة على ذلك الفوتيه الأحمر واحتضنت إحدى الوسائد السوداء الثلاث الموضوعة عليه وأمسكت الريموت وأخذت تقلب في القنوات على شاشة كبيرة ثبتت على الحائط أمامها، استوقفها مشهد رومانسي من أحد المسلسلات التركية ركع فيها البطل على ركبتيه أمام حبيبته ممسكًا باقة من الزهور البنفسجية قدمها لها فأمسكت الورود وقربتها أمام وجهها وأسبلت عينيها فوقف البطل بشعره الذهبي وعينيه الزرقاء وضمها إليه في حنان مع تصاعد موسيقى حانية هادئة.

أفاقت سبيل من تلك اللحظة الرومانسية نادرة الوجود على صوت جرس الباب فغيرت القناة ووقفت متجهة ناحية الباب قبل أن تمد يدها لتفتح، أدير مفتاح كالون الباب ففُتح لتجد أمامها مازن بملامحه القاسية، كانت سبيل تجهل عنه أكثر مما تعرف، دخل ممسكًا بيده بعض الأكياس البيضاء وعلق على كتفه حقيبة بها لاب توب بملامح باردة كبرودة الجو سألها.

- بقالك كتير؟

- من ساعة ما كلمتك ومرديتش.

- كان معايا مصلحة.

دلف بالأكياس إلى طرقة ممتدة أمامه من الصالة ونادى بصوت عالٍ.

- ولا يا بورده.

تبعته سبيل.

- بورده مش هنا أنا بعته يجيبلي سجاير.

كان ذلك مكتب مازن لخدمات الكمبيوتر والتليفون المحمول كما يطلق عليه، شقة مكونة من صالة وضع في منتصفها مكتبًا طويلاً أمامه كرسيان وحجرة على يمين الصالة وضع فيها

التلفزيون وطقم أنتريه أحمر كان بمثابة ليفينج رووم وحجرة أخرى تلي حجرة الليفينج كانت مكتبه الخاص المغلق دائمًا، في آخر الطرقة بعد المطبخ والحمام اللذين على اليسار تدلت ستارة زرقاء رُسم عليها بلون أبيض عقرب كبير أضفى جوًا من الغموض على المكان لا يقل عن غموض مازن.

ناولها الأكياس البيضاء من يده.

- جبتلك رغيفين حواوشي من ميزو إنما إيه؟!

- أنا فعلاً جعانة جدًا.

تناولت الأكياس ودخلت إلى المطبخ ودخل هو إلى مكتبه وأخرج جهاز اللاب توب من حقيبته وأخذ يفحصه ثم تركه وخرج إلى الصالة ودلف إلى الليفينج رووم وارتمى على الفوتيه فاردًا قدميه أمامه وصاح بصوت عالٍ.

- إيه الأخبار؟

- كله ماشي تمام.

لحظات وخرجت من المطبخ ممسكة صينية وضعت عليها أرغفة الحواوشي بعدما قامت بتقطيعها إلى أجزاء وأمسكت بيدها الأخرى زجاجتين كوكاكولا.

obeikan.com

وضعت كل ذلك أمامه على ترابيزة صغيرة، قربت كرسيًا كان منزويًا في جانب الغرفة وجلست في مواجهته وقد بدا الاهتمام على وجهها.

- فهمني براحة إيه اللي هيحصل بعد كده؟

دون أن ينظر إليها تناول قطعة من أول رغيف حواوشي أمامه وبدأ في التهامها وبصوت ضاعت معالمه مع عملية المضغ.

- المعرفة على قدر الحاجة.

تجاهلت قاعدته المفضلة التي دائمًا ما يلوكها في فمه وزفرت في ضيق.

- ما أنا محتاجة أعرف.

ألقى بقطعة أخرى في فمه بشراهة.

- أهم حاجة تنفذي اللي بقوله بالحرف.

نظرت له في غضب.

- أنا بنفذ على فكرة وأحسن ما انت بتقول.

توقف فجأة عن عملية المضغ ونظر إليها في تحدٍ.

- ما أنا عشان كده مظبطك.

ران عليهما الصمت للحظات ثم استطردت كأنها وجدت في كلامه فرصة.

obeikan.com

- بالمناسبة أنا عايزة فلوس.

أكمل تحريك فكيه.

- ليه ما أنا مديكي من أسبوع ألف جنيه؟

في أسى.

- أمي الدكتور كتب لها على دوا كتير فيهم نوع واحد العلبة بـ ٢٠٠ جنيه.

أشار ناحية الصينية بغتة.

- انتي مبتاكليش ليه؟

أخذت قطعة صغيرة خارقة نظام الريجيم القاسي الذي تتبعه قبل أن يباغتها.

- بس الواد شكله واقع أوي فيكى؟!

في حدة.

- أنت مش كنت عايز كده؟!

- آه بس أوعي هو اللي يوقعك؟!

سحبت منديلاً من علبة بجواره على الفوتيه ومسحت يدها ورمقته بنظرة تحدٍ.

obeikan.com

- على فكرة مش أنا اللي أقع.

ارتمـى بظهـره إلـى الـوراء مفرغًـا زجاجـة الكوكاكـولا في فمـه وأشـار لهـا بيـده.

- كملي أكلك؟

تناولت الصينية من أمامه وانتصبت واقفة ورمقته بتأفف.

- شبعت.

همت بالإنصراف وهي تغمغم.

- خلي بورده يبقى ياكل الباقي.

استوقفها بإشارة من يده محاولاً تخفيف حدة الحوار.

- أحيانًـا بحـسّ إنـك بتسـيبي نـص أكلـك عشـان تديـه للـواد بـورده؟!

يا بنتي الواد بياكل وبيصرف نفسه وأنا بديله فلوس.

لم تعقّب ودلفت إلى المطبخ.

لحظـات ودق جـرس البـاب فخرجـت سـبيل مـن المطبـخ وفتحـت البـاب كان بـورده يلهـث حامـلاً في يـده علبتـي سـجائر أخذتهـم منـه في ابتسـامة.

obeikan.com

- شكرًا يا بورده خش المطبخ فيه أكل عشانك.

تهلل وجهه وقفز إلى المطبخ وعادت هي إلى مازن.

جلست على طرف الفوتيه بجوار مازن ومدت له إحدى علب السجائر فتناولها بابتسامة واسعة.

- كلك ذوق والله.

أشعلت هي سيجارة وتناولت زجاجة الكوكاكولا ورشفت منها رشفة.

- دلوقتي الراجل الهندي هيوافق يدينا التوكيل؟؟

ضحك مازن ضحكة مبالغ فيها.

- راجل هندي مين يا خالتي انتي صدقتي إنه هندي؟!

بدهشة وتأفف.

- أنا مش فاهمة حاجة!!

- أنا قولتلك المعرفة على قدر الحاجة.

وضعت سبيل الزجاجة على الترابيزة وفركت السيجارة في الطفاية في غضب.

- لازم أمشي عشان متأخرش، إديني الفلوس؟

وضع مازن السيجارة في فمه وأخرج ٥٠٠ جنيه دسها في يدها.

تناولت سبيل حقيبتها ووضعت الفلوس بها ونظرت له في غيظ.

- سلام.

لوح لها بيده وهو ينفث دخان سيجارته.

خرجت ناحية الباب ودون أن تلتفت خلفها صاحت.

- سلام يا بورده.

أطل برأسه من باب المطبخ ممسكًا قطعة من الحواوشي بين أصابعه.

- سلام يا أبله سبيل.

●●●

- في مساء الليالي الشتوية تثقل البرودة كل الكائنات، تهرب الطيور إلى أعشاشها بمجرد غروب الشمس نهار قصير أتعبهم في البحث عن الرزق وليل طويل بارد يلتهم دفئهم، تخف الحركة في الشوارع حتى الكلاب الضالة تبحث لها عن مأوى قبل هبوط الليل، بدت تلك الليلة شديدة البرودة.

جلس جلال على السرير بيده جريدة الأهرام يقلب صفحاتها وبجواره استلقت زهيرة تحت بطانية ثقيلة وقد أحاطت جلال بذراعيها حول خصره مستمدة منه الدفء أكثر مما تستمده من تلك البطانية الثقيلة.

obeikan.com

في إحدى الصفحات الداخلية للجريدة قرأ جلال خبرًا جانبيًا عنوانه المركز المصري لأطفال الأنابيب يحتفل بمرور ثلاثين عامًا على إنشائه.

كتبت ليلى عبد الفتاح.

جرت عيناه على السطور.

يمر اليوم ثلاثون عامًا على إنجاب أطفال الأنابيب في مصر بما يعني أن أول طفل أنابيب في مصر عمره الآن ثلاثون عامًا.

هز جلال رأسه وبدت الحسرة على وجهه.

- الأولى كنتوا عملتوا تحقيق عن الأب والأم اللي عانوا عشان يخلفوا الطفل ده وعشان تعرفوا إن مفيش ما يدعو للفخر لو كانت هي دي النهاية.

أكمل جلال القراءة في مرارة.

وفي احتفالية بهذه المناسبة قال الدكتور محمد أبو الغار أستاذ النساء والتوليد بجامعة القاهرة والمدير الإكلينيكي للمركز المصري لأطفال الأنابيب أن نسب نجاح تجارب أطفال الأنابيب في مصر للسيدات في سن مبكرة تصل إلى ٤٠ في المائة مؤكدًا أن العقم يمثل عبئًا نفسيًا على الزوجين.

أغلق جلال الجريدة وألقاها بجواره على الأرض وغمغم بصوت مكتوم وهو ينظر إلى زهيرة في إشفاق.

- والعقوق يسبب عبئًا وألمًا وذلاً وكسرًا في الظهر والقلب.

تململت زهيرة بجواره وبصوت ضعيف.

- مش هتنام يا حبيبي؟؟

نهض جلال من جوارها وفتح حقيبة في زاوية الغرفة وأخرج زجاجة شفافة بها زيت والتفت إلى زهيرة.

- أول حاجة حطيتها في الشنطة زيت النعام بتاعك.

- حبيبي الألم كان هيموتني ومكنتش عايزة أقولك.

نظر إليها في حنان واقترب بجانب السرير وجثا على ركبتيه بجوارها.

- أنا بحس بللي بتحسّي بيه ويمكن قبل ما تحسّي بيه كمان.

قالت بصوت مذبوح.

- بقالك ٤٠ سنة بتحسّ بللي بحسّ بيه وعمري ما عرفت أداري عنك حاجة.

إبتسم في ود.

- طيب مستغربة ليه؟

obeikan.com

أجابت بصوت متهدج.

- أنا مش مستغربة بس طول الوقت كان ده اللي بيطمني إنك لسه بتحبني بنفس الدرجة.

- يعني انتي طول الوقت بتختبري حبي؟!

إبتسمت فازدادت التجاعيد حول عينيها.

- عشان من غير حبك ممكن أموت.. مقدرش أعيش لحظة من غير حبك.

مسح على رأسها في حنان فأردفت.

- وبحب أسمع الكلمة دي «بحسّ باللي بتحسّي بيه ويمكن قبل ما تحسّي بيه».

- طيب فيه مرة خيبت ظنك؟

- أبدًا يا حبيبي.

أطرقت كأنما تريد أن تقول شيئًا لكنها بدت مترددة ثم حزمت أمرها ورفعت رأسها إليه.

- ممكن الحب اللي بينا ده يتحول لكره؟!

هزّ رأسه نافيًا.

obeikan.com

فأردفت في حسرة كست صوتها.

- أمال ليه راجي عمل كده بعد كل الحب اللي حبيناهوله واللي عملناه علشانه؟!

باغته السؤال فتمايل كالذبيح وبدت أمام عينيه ملامح راجي القاسية يوم أن أودعهم الدار.

- ده السؤال اللي بدور على إجابته طول الوقت.

نفض رأسه واقترب منها ثم أزاح الغطاء من ناحية قدميها وبرفق سلت الجورب الصوف من قدميها النحيلتين وأسقط بعض القطرات من زيت النعام على أطراف أصابعه وبدأ يدلك قدميها برفق.

شعرت زهيرة بالألم ينسحب من قدميها واسترخى جسدها وراحت في نوم عميق، ألبسها جلال الجوربين وفرد الغطاء وأحكمه عليها وجلس مكانه يتأمل وجهها الملائكي، لازال جلال يراها جميلة بريئة كما رآها أول مرة.

تسللت إلى أذني جلال موسيقى مقدمة أغنية هذه ليلتي لأم كلثوم فنهض متتبعًا الصوت، اتجه ناحية النافذة فتح جزء منها اتقاءً لبرودة الجو، كانت الأغنية تنبعث من ناحية البوابة وقد جلس حشمت على الأرض أمام كوخه البسيط وأشعل بعض الأخشاب وفرد كفيه يصطلي جذوة النار وقد لفه الظلام إلا

وجهه الذي انعكست عليه ألسنة النار الصغيرة مما أضفى على المشهد رومانسية وغموضًا.

بدأت الكلمات تنساب بصوت الست كأنما وقفت عند الكوخ تنشد في شموخ.

هذه ليلتي وحلم حياتي ●● بين ماض من الزمان وآت

الهوى أنت كله والأماني ●● فاملأ الكأس بالغرام وهاتِ

بعد حين يبدل الحب دارًا ●● والعصافير تهجر الأوكارا

وديار كانت قديمًا ديارًا ●● سترانا كما نراها قفارا

سوف تلهو بنا الحياة وتسخر ●● فتعالَ أحبك الآن أكثر

أدار جلال رأسه ناحية زهيرة وتمتم في مرارة وألم.

– لهت بنا الحياة وسخرت واستحال الحب خنجرًا في ظهري وظهرك.

●●●

obeikan.com

ما إن تعبر سلم الكوبري الذي يمر من أمام آخر بوابات جامعة القاهرة مارًا أعلى الطريق حتى تجد نفسك وقد انتقلت إلى عالم آخر، ضاقت الطرقات، ازداد الزحام، كثر الباعة الجائلين، روائح المأكولات الشعبية تنبعث من المطاعم الصغيرة، تحولت الطرقات إلى بقع من الوحل والماء الراكد من بقايا المطر، تقاربت الشرفات في الشوارع الجانبية حتى أنك تستطيع أن تسلم على جارك في الشقة المقابلة وأنت تقف في شرفتك، في أحد الشوارع الجانبية جلست سبيل في شرفة غرفتها الصغيرة المطلة على شارع ضيق من تلك الشوارع في منطقة أبو قتادة تلك المنطقة الشعبية التي تقع وراء خط المترو الذي يفصل بينها وبين جامعة القاهرة من الخلف.

جلست سبيل وقد وضعت سماعات هاتفها في أذنيها تستمع إلى بعض الموسيقى وقد وضعت الكاب تشو على رأسها، كانت تنظر إلى الشارع والبيوت البسيطة وحبال الغسيل التي تدلت منها الملابس، نفس الملامح تكسو الشوارع تكسو الوجوه في معظم المناطق الشعبية الفقيرة

نفس السيناريو يتكرر، كم رأت سبيل تلك القصة في الأفلام العربية القديمة.

فتاة جميلة تنشأ في حي فقير فتصير مطمعًا لكل شخص معه بعض المال.

ترى ماذا تفعل لكي تستطيع أن تعيش بأقل الخسائر، كانت تلعب لعبة خطرة معادلة لابد لها من الدقة في أطرافها حتى تحصل على نتيجة ترضي طموحها، تمشي على حبل رفيع من تحته المجهول.

رآها مازن ابن منطقتها يومًا أمام محله الصغير لإكسسوار الموبايلات الذي يقع على ناصية الشارع الذي تسكن فيه، رآها تشتري غطاءً لهاتفها المحمول، عرض عليها العمل عنده في المحل بعد أوقات الدراسة في الجامعة لتجذب له المراهقين قبلت حتى تستطيع أن تشتري ما يسترها وتجد لها مكانًا في كرنفال الأزياء في الجامعة.

نجحت الفكرة فأصبحت إكسسوارات مازن أشهر محل إكسسوار في تلك المنطقة يقف أمامه المراهقون يشترون أي شيء لمجرد أن يحظى كل واحد منهم بكلمة منها أو حتى نرفزة أو توبيخًا.

أدرك مازن أنه وقع على كنز لابد وأن يحسن استغلاله فكانت على مدار سنوات الدراسة فرس الرهان الذي يحركه في كل سباق.

إستمرت في ولائها له لم ينظر لها يومًا كأنثى ولم يطمع في جسدها، كان من ذلك النوع من الرجال الذين يستهويهم البيزنس

obeikan.com

أكثر من أي شيء، لم يكن بخيلاً معها فبقدر ما تدر عليه من أموال بقدر ما يعطيها ويكافئها.

مرت سنوات الدراسة في كلية التجارة سريعًا وانتقل مازن إلى منطقة فيصل وترك محل أبو قتادة لشوقي أحد صبيانه من شباب المنطقة، كان من حين لآخر يكلف سبيل ببيع أو شراء لاب توب أو موبايل أو تصريف بعض الإكسسوار لزميلاتها داخل الجامعة إلى أن أرسلها ذات يوم إلى الشركة المصرية للاتصالات لتخليص بعض الأوراق الخاصة بخط النت والهاتف في محل أبو قتادة، أخذت كامل زينتها وذهبت لإنهاء المهمة متسلحة بكل أنواع أسلحة الدمار الشامل حصلت على رقم من فرد الأمن الذي وقف أمامها فاغرًا فاه لدقائق قبل أن يفسح لها المجال لكي تدخل لحظات وجاء دورها وجدت نفسها أمام شباك رقم واحد يجلس أمامها شاب وسيم أبيض البشرة يرتدي نظارة شفافة رقيقة، ذو شعر أسود قصير كانت تجيد اللعبة، بدأت سريعًا بنظرة ثابتة مباشرة إلى عينيه وبرقة وصوت خافت.

- لو سمحت أنا عندي مشكلة؟

ابتسم راجي وبادلها نظرة شاردة في عينيها الواسعتين.

- صباح الخير الأول.

بارتباك مصطنع.

obeikan.com

- سوري.

قرب وجهه إليها من خلف الكاونتر الرخامي.

- مفيش أي مشاكل مع الوش الجميل ده.

- مرسي.

دار الحوار كما خططت وحصلت على ما تريد وحصلت أيضًا على رقم تليفونه على كارت قدمه لها للاستفسار عن أي شيء وقبل أن تغادر استوقفها.

- أنا لسه كل ده معرفتش اسمك.

بعينين مسبلتين أصابت هدفها.

- سبيل.

- ممكن رقم تليفونك؟؟

- لازم يعني؟!

- لو مكنش يضايقك.

منذ ذلك اليوم سيطرت سبيل على راجي سيطرة كاملة أو هكذا ظنت فأحيانًا كثيرة يصبح الصياد هو الطريدة.

نقلت كل ما تعرفه من معلومات كالعادة إلى مازن الذي تولى إدارة العملية.

obeikan.com

رنت في أذن سبيل تلك النغمة المميزة لهاتفها فقطعت انسياب الموسيقى.

- ألوو.

- إنتي فين؟؟

- سوري يا حبيبي اتأخرت عند بابي لحد ما خلص اجتماعات ووافق يديني الفلوس.

- يعني خدتيهم.

- ووصلوا لمازن والموضوع هيخلص متقلقش.

- مش عارف من غيرك كنت هعمل إيه؟؟

- حبيبي أنا وأنت واحد يا رجروجتي.

- إيه الخطوة اللي جاية؟؟

- مازن هيبلغني محتاج إيه في الشقة وأنا هقولك.

- ممكن نتغدى مع بعض بكره عشان انتي وحشتيني؟؟

- أوك اتفقنا.

- تصبحي على خير.

- وانت من أهله.

●●●

obeikan.com

خفتت ألسنة النار واستحالت إلى جمر أحمر ولف المكان السكون إلا من صوت الراديو الذي يهتز طربًا من صوت الست.

أمسك حشمت بيده كنكة الشاي ودسها بين الجمر قبل أن يلمح خيالاً يتحرك من بعيد، جفل حشمت وترك كنكة الشاي من يده ووقف محدقًا حتى لاح وجه جلال على ضوء مصباح معلق على سور الدار من الخارج.

- مساء الخير يا راجل يا طيب.

أفرغ حشمت رئتيه من هواء الخوف الذي كان يكتمه واستراح كتفاه المتجمعان وبصوت بدا هادئًا.

- فزعتني يا بيه.

- فيه صعيدى بيتفزع برضه يا راجل؟

في دهشة.

- إيه اللي مصحيك لحد دلوك؟

- جيت أسمع معاك الست واشرب كباية شاي.

ولا أنت بخيل؟

تلفت حشمت حوله وفي تردد.

- تنور بس ده ممنوع إنك تاجي حد البوابة فى الوقت ده.

obeikan.com

- يعني أرجع؟؟

شعر حشمت بالحرج وغلبت عليه حمية الصعيد.

فأشار له بالجلوس على الدكة الخشبية وجلس هو على الأرض جاعلاً جمرات النار بينهم يتقاسمون دفئها، مال جلال إلى الأمام وسأل محاولاً جذب أطراف الحديث.

- صحيح جبت منين اسم حشمت ده؟

في اقتضاب.

- اسم زي بقية الأسامي.

- إنت عارف إنه اسم تركي؟

تخلى حشمت عن تحفظه قليلاً وأجاب في تلقائية.

- أعرف إن أبوي سماهولي على اسم واحد صاحبه في بلد جنبينا.

أردف جلال في ثبات محاولاً كسر ما تبقى من تحفظ حشمت.

- فيه بعض الأسماء التركية لسه موجودة من أيام محمد علي زي حشمت وعفت ونازلي ورفعت ودولت.

لانت أسارير حشمت وضحك.

opeikan.com

- والله يا أستاذ جلال لو شفت حشمت صاحب أبوي ده ما هتقول عليه إنه تركي ولا يعرف ريحة التراكوة ده أكحل من قعر الحلة.

ضحك جلال ومد يده يأخذ من حشمت كوب الشاي الذي صبه له بطريقة استعراضية صعيدية أصيلة.

اطمأن جلال فقد سار الحديث بينهم طبيعيًا، أدنى كوب الشاي من فمه يستشعر منه الدفء ثم أردف.

- مش كل حاجة بتشبه اسمها ممكن تلاقي واحد اسمه سعيد وهو حياته كلها حزينة.

مش كل حاجة بالمظاهر.

رمقه حشمت بنظرة باردة.

- عنديكم هنه كل حاجة بالمظاهر.

ابتسم جلال متسائلاً.

- أمال عندكم إنتوا إيه؟

- عندينا كل واحد معروف أصله وناسه هنا الدنيا تايهة في بعض.

ارتشف حشمت رشفة طويلة صاحبها صوت أعطى للشاي طعمًا في فمه وشرد بعينيه العميقتين اللتين انعكس عليهما ضوء خافت من بقايا الجمرات.

- تخيل يا بيه لو كان ربنا بتخدعه المظاهر هو كمان كان اللي زي حالاتنا لا طال دنيا ولا أخرة.

كان جلال لا يريد أن يدخل في جدال فلسفي مع حشمت فكان يجاريه في بعض نقلاته الغير منطقية، أخذ رشفة من الشاي محاولاً تقليد ذلك الصوت الذي أصدره حشمت فلم يفلح فنظر إلى حشمت وقال في هدوء.

- واضح إنك راجل طيب وتعرف ربنا كويس.

أشار حشمت بسبابته إلى السماء وقال بصوت بدا عميقًا.

- كل الناس تعرف ربنا بس مين يخافه.

تعجب جلال من كلمات حشمت ولمعت عيناه من وقع تلك الكلمات وازداد فضولاً للدخول في أعماق ذلك الرجل فباغته.

- وانت بتخاف ربنا؟

- اللي زي حالاتي راس ماله خوفه من ربنا وكتير زيي كده في البلد.

obeikan.com

شعر حشمت بتنميل في مفاصله من جلسته على الأرض فانتصب وجلس بجوار جلال على الدكة.

والتفت إليه.

- هحكيلك حكاية واحد عندينا في البلد اسمه أبو إسماعيل عنده ست عيال، شغال أجري عايش يوم بيوم لو لقى غداه يبات من غير عشا ولو اتعشى ميلاقيش فطوره، كان يمشي حافي في القيالة ميلاقيش لا مؤاخذة جزمة بلاستيك يلبسها لما كبر ومبقاش حد بيكريه واحد بلدياتنا شغله كنّاس في محطة القطر في يوم لقى شنطة كبيرة فتحها لقى فيها فلوس كتير وسبايك دهب راح وداها للأمن مش ناقصة مليم خاف من ربنا يأكل عياله مال حرام.

صاحب الشنطة بخل عليه بحلاوة رجوع الشنطة فالمحافظ كرمه وقاله هطلعك رحلة عمرة عارف أبو إسماعيل قاله إيه.

- إيه؟

- قاله إديني حق العمرة ناشف.

المحافظ قاله مش عايز تروح عمرة؟

أبو إسماعيل قاله عليا الطلاق يا بيه ربنا ما هيحاسبني.

صمت جلال ولم يحرك ساكنًا فاستطرد حشمت.

- ربنا هيحاسبنا على اللي في قلوبنا وهو عارف زين إن قلوبنا بتخافه.

اتكأ جلال على الدكة.

- ربنا عادل يا حشمت شايف كل واحد من جواه وكل واحد هياخد حقه.

سكت الاثنان قليلاً قبل أن يتابع جلال في سؤال مباغت.

- إيه اللي واجعك؟

برقت عينا حشمت وشرد كأنما رأى شيئًا من الماضي.

- والله يا بيه من ساعة ما أمي قابلت وجه كريم ما سمعت السؤال ده من حد.

كانت ساعة ما تقولي الكلمة دي وتطبطب على كتفي من غير ما أحكي أي حاجة حتى برتاح.

- أحيانًا مجرد السؤال بيكون هو الدوا.

تابع حشمت في شرود.

- أنا واجعني حاجات كتير.. واجعني موت أمي.. واجعني غربتي.. واجعني الناس اللي بتتلون وواجعني أكتر إني غصب عني بتلون معاهم.

obeikan.com

- فيه حاجات من وجعك ممكن تتداوى.

هز رأسه نافيًا.

- كنت داويتها من زمان يا بيه.

سكت جلال كأنما يأخذ استراحة.

فرد له حشمت المباغتة.

- وانت إيه واجعك؟

أحس جلال بالندم أنه سأل سؤاله لكنه لم يجد مفرًا من الإجابة.

- واجعني الذل بعد العز.. واجعني الضعف بعد القوة.. واجعني كسرتي في ابني ورميته لينا أنا وأمه هنا؟

- والله يا بيه من الحاجات اللي بتهون عليا وجعي إني بقول إني عيشتي أرحم من عيشتكم.

أطرق جلال إلى الأرض وشعر حشمت بقسوة كلماته فاستدرك في عفوية بادية.

- بس الدار هنا مليحة برضه مش شايل هم حاجة بتاكل وبتشرب وفيه ناس في خدمتك.

بصوت خلى من أي مشاعر كما لو كان صوتًا آليًا.

obeikan.com

- فيه حاجات أهم من الأكل والشرب.

مؤكدًا على كلامه أومأ حشمت إيجابًا.

كان الحديث ممتعًا، حديث بين اثنين يملك كل واحد منهما مخزونًا من الحكمة يختلف مصدره دار الحديث دافئًا متدفقًا من الجانبين إلى أن نهض حشمت وفرد جلبابه على قدميه.

- كفاية كده يا بيه بكره يوم طويل جايلنا زيارة والست سعاد منبهة علينا نقوم بدري.

- زيارة؟؟؟ زيارة من مين؟

حاول حشمت إضفاء جو من الغموض مستدعيًا روح الغفير المحافظ على الأمن والأسرار.

- بكره هتشوف وهتعرف كل حاجة.

لم يتكلم جلال ورفع يده محييًا.

- تصبح على خير.

- وأنت من أهله يا بيه.

لملم حشمت الكنكة وأكواب الشاي وأزاح بعض التراب على الرماد ودخل كوخه.

●●●

oreeikan.com

منذ أكثر من ثماني قرون بالقرب من مدينة قرطبة بالأندلس كان هناك فيلسوف ومفكر عربي يسمى ابن طفيل كتب قصة رائعة أسماها «حي بن يقظان» كانت تدور حول طفل رضيع ساقته الأقدار إلى جزيرة نائية فتربى بين الحيوانات والنباتات إلى أن كبر، فاهتدى بفطرته إلى مكنونات الخلق وعظمة الخالق من خلال عقله وبصره وسمعه الذي ألقاه إلى الكون منصتًا إليه.

هناك دائمًا لغة للكون لا يفطن لها ولا يعلم مفرداتها إلا من يلقي السمع، دائمًا ما يتحدث الكون، يبعث بالرسالة تلو الأخرى وينظر ماذا نحن فاعلون؟؟

طوال ثلاثون عامًا من تربية راجي كان الكون يتحدث حين ربي على الأنانية والحصول على كل شيء دون تعب، كان الكون يتحدث حين تنازل جلال وزهيرة عن حقوقهم وصار هو صاحب الحق الوحيد، كان الكون يتحدث حين لم يعلماه فضل بر الوالدين ولم يعلماه الصلاة والصيام خشيةً عليه من التعب كان الكون يتحدث، كانا يفسدان طبيعته ولو تركوه دون تدخل لكان خيرًا لهم وله ولاهتدى مثل حي بن يقظان.

ألقى جلال رأسه على الوسادة بجوار زهيرة وأغلق عينيه آملاً أن يتوقف عقله عن التفكير كان يريد أن يجد إجابة عن سؤاله.

«لماذا فعل راجي ذلك؟»

لاحت من خلف زجاج النافذة خيوط الفجر تلتف حول الظلام فتبدده فهرب النوم من على أجفانه.

بدأت الحركة في الدار مبكرًا فقد كانت التعليمات صارمة من سعاد استعدادًا للزيارة فقد انتشرت عاملات النظافة في كل أرجاء الدار وارتدت المشرفات الزي الرمادي الموسوم بشعار الدار.

شقت سعاد طريقها إلى الدار في شارع المفوضية توقفت عند صبحي بائع الجرائد الذي انتفض واقفًا ما إن رآها انحنت فأزاحت حجرًا وُضع على نسخ جريدة الأهرام واستلت واحدة، اختلس صبحي نظرة إلى مؤخرتها فعضّ شفته السفلى وصاح كأنه ينادي على سلعة.

- لهيب الجسد.

حدجته بنظرة ازدراء وغمغمت.

- بتقول إيه يلّي تتشك في عينك؟

فتح ذراعيه ملوحًا في استعراض ونظر إليها بطرف عينه.

- ده كتاب جديد بس إيبييه مولّع.

- يولعوا فيك بجاز وسخ يا بعيد.

obeikan.com

بعصبية فتحت حقيبة يدها لتخرج له ثمن الجريدة.

فاقترب منها هامسًا.

- بقولك إيه ما تفكك من الأهرام فيه كتاب جديد اسمه الانحراف اللذيذ ما تجربي تقريه.

أخرجت من حقيبتها بعض العملات المعدنية وقذفتها في وجهه وتركته وهي تواصل وصلة الشتائم.

دفعت الباب الحديدي بعصبية فوجدت حشمت وقد وقف وأمسك بيده مقشة مبعدًا بها بعض أوراق الشجر التي حركتها الرياح الباردة.

- صباح الخير يا ست سعاد.

بوجه مكفهر وبنبرة حادة.

- صباح النور.

عايزاك تبقى واخد بالك ومصحصح أول ما تشوف عربية مدكور بيه الباب يتفتح في ثواني سامع ولا لأ؟

- تمام يا ست الصبايا هو أنا هاتوه عن عربية مدكور بيه.

- آه ممكن تتوه طول ما انت مش شايف شغلك وقاعد تتسامر طول الليل وتضايف في سي جلال.

obeikan.com

- نزلت كلمات سعاد عليه كالصاعقة وفغر فاهه.

- أرجوكي يا ست سعاد تسامحيني مش هتتكرر تاني.

دون أن تنظر إليه وفي تعالي وغطرسة تركته.

- حسابك بعدين.

هرول وراءها حانيًا ظهره.

- أول وأخر مرة تحصل.

بصوت عالٍ متعجرف لم يخلُ من العصبية.

- ارجع مكانك.

طأطأ حشمت رأسه واستدار في خطوات منكسرة ناحية الباب وظل واقفًا بجواره علها تلمحه من نافذتها فتجده واقفًا فيرق قلبها ولا تحرمه من ربع راتبه، فقد كانت قاسية في عقابها لا تلقي بالاً لعدد الأيام التي تخصمها.

أخذ حشمت يلوم نفسه على ما حدث ليلة البارحة.

- ليه أول ما شوفته مامنعتوش يقرب من البوابة؟

ليه خليته قعد وخد وادى معايا في الكلام؟

ومين بت الكلب اللي بتبلغ آااه لو أعرفها لأقصف عمرها؟

obeikan.com

عاد إلى نفسه لائمًا.

- ولا هتقدر تقصف ولا حتى تكلمها.

ليه يا حشمت ما أنت طول عمرك ماشي في حالك ليه تعمل الغلط وتلوم على اللي بلّغ

ظل في شروده يجلد ذاته منكسرًا بجوار الباب.

وقف فريق العاملات في الدار أمام سعاد التي جلست خلف مكتبها ملقية أخر التعليمات.

- مش عايزة أشوف ورقة ولا منديل في طرقة.

عايزة الطرقة والأوض يتعاد عليهم مسح تاني وزودوا المطهر في المياة اللي بتمسحوا بيها؟ عايزة أشم ريحته؟

يتنبه على النزلاء مفيش رغي مع الضيف.

آخرهم يقولوا الحمد لله إحنا مبسوطين.

وقفت وتحركت من خلف المكتب واتجهت إلى زينب تلك الفتاة السمراء النحيلة التي وقفت منتصبة كجندي أمام قائده.

- أخبار البطاطين إيه؟

- كل أوضة فيها بطانية واحدة بس من البطاطين الخفاف زي ما قولتي.

obeikan.com

دارت حول زينب وهمست في أذنها في توّعد.

- عارفة لو مريت ولقيت بطانية تقيلة ولا أكتر من بطانية في كل أوضة هعمل فيكى إيه؟؟؟؟

دارت عينا زينب في محجريهما وفغرت فاها وبصوت مرتعش.

- أبدًا والله أنا طلعت البطاطين الخفيفة بإيدي.

- لمّا أشوف؟

صرخت سعاد فتبعثرت العاملات من أمامها خارج مكتبها وهن يغمغمن بكلام غير مفهوم، خرجت سعاد أمام المبنى الكبير تراقب المنظر العام لمحت حشمت وهو واقف منكسر على الباب الحديد فازدادت شعورًا بقوتها للحظات قبل أن ينصرف بصرها تلقاء المبنى المميز ويطل جلال إلى رأسها بملامحه الهادئة المستفزة فتتحول نظرة القوة التي ارتسمت على وجهها إلى نظرة حائرة تريد أن تطرد صورته من خيالها.

التفتت في عصبية إلى زينب التي كانت لاتزال تقف خلفها فهي الوحيدة التي لا تشملها الأوامر العامة دائمًا ما تكلف بالأعمال الخاصة.

صاحت فيها.

- مش عايزة حد من المبنى التاني يظهر لحد ما الزيارة تخلص.

- حاضر أنا هروح أقفل الباب بتاع المبنى.

- لأ متقفليش حاجة أقفي هناك متخليش حد يخرج وبس.

هرولت زينب ناحية المبنى المميز تاركة سعاد في نشوة السيطرة.

●●●

استيقظت زهيرة كطفل بريء يفرك عينيه وتحسست وجه جلال براحة يدها كعادتها حين تستيقظ فتظاهر جلال بالنوم حين شعر بيدها انحنت على وجهه بوجهها.

- أنت نمت الساعة كام يا حبيبي؟

دون أن يفتح عينيه.

- بعديكي على طول.

كان وجه زهيرة حزينًا خائفًا، كان يفقد نظرة البراءة كل يوم، هزت زهيرة كتف جلال هامسة.

obeikan.com

- ممكن تصحى أنا بكره المكان ده ومحبش أعيش فيه لحظة وأنا مش شايفة عينيك.

فتح جلال عينيه فتأملتهما في اطمئنان.

- من عينيك بشوف الدنيا الحلوة.

لاحظ جلال نظرة الخوف في عينيها فانتصب على السرير وناداها كما اعتاد أن يناديها.

- مالك يا زهرة الزهور.

تعالت أنفاسها وظهرت نبرة الخوف جلية في صوتها.

- أنا حلمت بكابوس.

أحاط إحدى يديها بكفيه فشعر بأناملها باردة مرتعشة فتناول يدها الأخرى وضمهم بين كفيه يفركهما ليدفئهم.

- خير احكيلي بالراحة؟

- حلمت إني في مكان ضلمة كله عضم وناس ميتة وإن الناس الميتة بتصحى وبتمشي ناحيتي وأنا أجري منهم ومش عارفة أطلع من المكان.

سكتت قليلاً وقد تعالت أنفاسها وبدا الفزع على قسمات وجهها الذابل كأنما رأت الكابوس من جديد.

obeikan.com

- أنا عايزة أطلب منك طلب؟

سكتت لبرهة وابتلعت ريقها.

- أنا مش عايزة أموت هنا عايزة أمشي؟

انهمرت بالبكاء فاحتضنها جلال وهمس في أذنها مصارحًا.

- مش هنقعد هنا أوعدك بس ممكن تستحملي شوية عشان خاطري؟

نظرت إلى عينيه وأومأت في ابتسامة ممزوجة بدموع ترقرقت في عينيها.

●●●

التصق حشمت بالباب مطأطئ الرأس كتلميذ صغير عاقبه أستاذه تدور في رأسه خيالات من الماضي والحاضر وسعاد والمرتب وأولاده كأنه سُيعرَض على المحكمة في جريمة قتل.

أفاق حشمت من شروده على صوت كلكس سيارة مرسيدس سوداء توقفت أمام البوابة فأسرع بفتح الباب.

من بعيد هرولت سعاد ناحية السيارة التي توقفت عند حدود الحديقة، فتح حشمت باب السيارة فنزل منها مدكور بيه رجل في أواخر الخمسينات ممتلئ الجسم، أصلع الرأس، ذو شارب كثيف،

obeikan.com

يرتدي بدلة بنية واسعة وقميصًا أزرق أظهرا ذوقًا مترهلاً كجسد من يرتديهم.

من باب السيارة الآخر هبط الحاج حسين رجل في نفس العمر تقريبًا تبدو على وجهه ابتسامة خفيفة طيبة، ذو لحية كثيفة بيضاء.

أشار مذكور إلى الحاج حسين فمشى بجواره ناحية المبنى الكبير ومشت سعاد خلفهم بابتسامة مصطنعة حاولت من خلالها أن تظهر بعض الخجل الممزوج بالتدين على قليل من الأنوثة وقد أحنت ظهرها في انكسار مفتعل وعيناها تدور في كل أنحاء الدار في ترقّب.

وصلت تلك الجلبة إلى حجرة جلال في المبنى المميز فأطل من الشباك واقتربت من خلفه زهيرة، واصل مذكور السير ومعه ضيفه إلى أن دخلوا المبنى الكبير بجوار حجرة سعاد فُتح باب مكتب مذكور الذي أشار للضيف بالدخول في انحناءة مبالغ فيها وبصوت ملأه التبجيل.

- اتفضل يا حاج ناخد القهوة الأول وبعدين ناخد جولة.

في عدم اهتمام وحسم.

- ناخد جولة أفضل أنا معنديش وقت إنت عارف.

تدحرج مدكور أمامه باحترام زائد.

- زي ما تحب يا حاج.

سأل الحاج حسين باهتمام.

- أنا عايز أعرف إنتوا إيه اللي ناقصكم؟

دلفا إلى طرقة مؤدية إلى الغرف ودخلا إحداها واستدار مدكور حتى كادت بطنه المتدلية أن تلامس الحاج حسين وبصوت لاهث.

- إحنا في الشتا بنحتاج كمية من البطاطين الزيادة عشان موجة البرد زي ما حضرتك شايف.

استدار مدكور في تأثر وهو يشير إلى بطانية خفيفة مهلهلة طويت على طرف سرير إحدى النزيلات.

بتأثر وهو ينظر إلى البطانية والنزيلة المستكينة المنكمشة على السرير غمغم الحاج حسين.

- مفهوم.

لمعت عينا مدكور وهو يرى تأثر الحاج حسين فحاكاه في تأثره.

- وكمان عايزين سخانات مياة في الحمامات وبس مش عايزين نتقل عليك؟

obeikan.com

قالها مدكور في ابتسامة متملقة.

بدا تململ الحاج حسين على وجهه وأراد اختصار المشهد فقال في حسم.

- لأ أبدًا عدّي بكره على معرضنا هنا في أكتوبر شوف كل اللوازم اللي نقصاكم واعمل بيهم أوردر.

لمعت عينا سعاد من الخلف وتبادلت نظرة سريعة مع مدكور وبصوت هادئ متهدج تمتم مدكور.

- اتفضل حضرتك القهوة في المكتب.

استدار جمعهم إلى مكتب مدكور.

اكتفى الضيف بتلك الجولة واحتسى القهوة سريعًا وغادر مع مدكور، كان جلال لا يزال يراقب المشهد من نافذته.

●●●

في ذلك المطعم الهادئ وقف ياسين بجوار البار يراجع بعض الفواتير عندما أشار له علي بطرف عينه ناحية الباب، التفت ياسين فإذا بسبيل وقد أطلت بأنوثتها الطاغية كشلال ماء منحدر مرتدية بنطلونًا من الجينز قُطع من أعلى الركبة ذلك القطع المتعمد المثير في موضة هذا العام وقد ظهر من القطع لون قدميها الخمريتين المشربتان بالحمرة وقد برز نهديها واقفين شامخين تحت تي شيرت أحمر كحبات عنب في عنقود لم يمسسه بشر.

جلست سبيل في مكانها المفضل جلستها المعتادة وقد احتضنت الوسادة البيضاء الموضوعة على تلك الكنبة الوثيرة.

ما إن رآها ياسين حتى خفق قلبه واندفع الدم إلى رأسه وبدا عليه الارتباك وأمسك المنيو ومشى ناحيتها كأن أحدًا يجذبه بتنويم مغناطيسي وبصوت بدا عليه التردد.

- صباح الخير.

أزاحت سبيل نظارتها الشمسية في استعراض فأطلت عينيها القاتلتين وقد أطلقت سهامها بعشوائية.

دون اكتراث.

- قهوة مظبوطة.

استمرت في شرودها المفتعل تستعرض أنوثتها في تيه ودلال قبل أن يباغتها ياسين.

- على فكرة أنا شوفتك إمبارح.

انتفضت والتفتت إليه وقد استردت تركيزها ورمقته بنظرة حارقة.

- شفتني فين؟

- في فيصل.

انطفأت الهالة القرمزية التي كانت تغطيها في شبه دائرة منذ دخولها أصبحت بلا خطوط دفاع

في محاولة للتماسك.

- مش فاهمة برضه أنت عايز إيه؟

- عايز فرصة أتكلم معاكي صدقيني مش هتندمي؟

بتبرم.

- تتكلم في إيه؟

في ابتسامة ثقة فقد استطاع أن يخترق الحصن ويجذب انتباهها.

- فيه كلام مهم لازم تسمعيه كلام ممكن يغير حياتك.

بدا كلامه غامضًا على أذنيها فلم تستطع أن تستشف منه أي شيء.

هل رآها في التوكتوك.. هل رآها وهي تصعد شقة مازن!! ماذا يريد؟؟

فى ضيق وانفعال.

- أنا برضه مش فاهمة إنت عايز إيه؟؟؟؟

obeikan.com

أشار لها بيده محاولاً تهدئتها.

- أنا ساكن في فيصل قريب منك ممكن نتمشى شوية في الشارع مش هاخد من وقتك كتير

هما كلمتين اسمعيهم وامشي على طول.

هدأت قليلاً وأزاحت الوسادة التي كانت تحتضنها جانبًا، كان الموقف غامضًا مما جعلها مترددة ما بين الهجوم عليه وما بين الفضول الذي يقتلها لمعرفة ما وراءه.

بعد صمت للحظات قالت بصوت أقل انفعالاً.

- بس أنا مش ساكنة في فيصل ومش بتمشى مع حد.

رفع المنيو التي بيده وأخرج قلمًا بسرعة كأنما أعد ذلك مسبقًا وبثبات.

- إديني رقم تليفونك ونبقى نتكلم عشان أنا عارف إن المكان مش مناسب.

لم تستطع أن ترده فالفضول ينهشها.

- مفيش مشكلة ياخد التليفون المهم أعرف أخره إيه؟

قالت ذلك في نفسها قبل أن تنطق برقم هاتفها في تردد.

obeikan.com

كتب الرقم سريعًا على المنيو التي في يده وانحنى في احترام يكاد قلبه يرقص فرحًا

وانصرف في نفس اللحظة التي دخل فيها راجي من باب المطعم.

●●●

في المساء جلس جلال على كرسي بجوار السرير وقد أمسك بأحد الكتب التي أحضرها معه إلى الدار، قبل أن يفتح دفتي الكتاب اقتربت منه زهيرة في هدوء.

- راجي متّصلش؟

لم يتوقع جلال سؤالها وبدا عليه التململ.

- لو اتصل بينا كانوا قالولنا وبعدين انتي لسه قلبك بيحن له!

تحشرج صوتها وهمست.

- أنا أم يا جلال وده ابني الوحيد.

هز جلال رأسه مستنكرًا.

- نفس الجملة اللي قضت عليه وقضت علينا وخليتنا في المكان ده «ابننا الوحيد».

أردف بحدة.

obeikan.com

- إيه دلالة إنه ابننا الوحيد؟؟؟

أنا مش شايف لها دلالة غير إن أنا وانتي مفيش حد غيره ياخد باله مننا في سننا ده.

مالوش إخوات تاني ممكن ياخدوا بالهم مننا مش العكس.

بقلب أم مكلوم لا تجد من الحنين لولدها بديلاً.

- أنا قلقانة عليه يا ترى عامل إيه؟

- متقلقيش زمانه عايش في مشروعه بالعكس أنا حاسس إنه بقى مبسوط أكتر.

- هو إحنا كنا تاعبينه في إيه؟؟؟

- قولي لنفسك كنا تاعبينه في إيه!!

حارت عيناها وقطبت جبينها.

- يعني إيه مش هييجي يزورنا؟

ابتسم ساخرًا.

- ممكن في حالة واحدة بس لو لسه معانا حاجة عايزها!!

ألجمها رد جلال فسكتت ولم تعقب فأحس الأخير بثقل الحقيقة على قلبها فوضع الكتاب الذي في يده جانبًا وجلس بجوارها على السرير مبتسمًا.

obeikan.com

- بقولك إيه تعالي نغير الموضوع؟

كل واحد فينا يحكي موقف حصل معاه وماحكيناهوش لبعض.

ابتسمت ابتسامة فضولية ترتسم على وجه كل زوجة حين يخبرها زوجها أنه سيحكي لها حكاية لا تعرفها وقالت في ود.

- احكي أنت الأول.

ابتسم هو الآخر.

- حاضر يا ستي.

فاكرة لما كنتي بتحكيلي إن عمتك عنايات كل ما تشوفك تقولك مآنش الآوان أفرح بعيالك وأشوف عوضك والكلام ده؟

أومأت برأسها إيجابًا.

- آه فاكرة هي زهقتني بأسئلتها وكنت ببقى مش عايزة أشوفها بس هي كانت طيبة وبتحبني وعايزاني أخلف.

ارتسمت على فمه ابتسامة ماكرة.

- طيب فاكره بنتها ضحى؟

اتسعت عيناها.

- آه فكراها.

o p e i k a n . c o m

أكمل في إثارة من سيكشف سراً.

- أهي عمتك دي جات زارتني أكتر من مرة في الشغل وكانت بتجيب بنتها ضحى معاها تقعد تكلمني إنه لازم يبقى عندي عيل يشيل اسمي وإني صبرت كتير ومن حقي إني أتجوز عليكي والشرع مديني الحق وإن حرام عليا لو فضلت كده.

فغرت زهيرة فمها في غيظ.

- يا بنت الـ.....

وضع يده على فمها.

- عيب يا حبيبتي متشتميش.

- مشتمش إيه ده أنا لو شفتها هاكل زمارة رقبتها.

ابتسم ابتسامة ماكرة.

- دي حتى كانت جيبالي عروسة.

- مين؟

- ضحى بنتها كانت بتيجي متشيكة وتقعد تقولي خد بالك من صحتك وكل كويس وحاجات كده.

صاحت في غيظ.

- وأنت إزاي تقابلهم وتقعد معاهم؟؟

obeikan.com

- هما اللي كانوا بييجوا عندي المكتب أطردهم يعني؟

- أيوا كنت اطردهم.

- ما أنا طردتهم بس بطريقتي.

أشاحت بوجهها بعيدًا في غضب طفل مدلل.

أعاد وجهها إليه ونظر في عينيها.

- عمتك كانت بتقنعني إن ضحى بتحبني من زمان فأنا روحت واخدها على جنب كده وقولتلها بس أنا عندي مشكلة، قالتلي إيه؟! قولتلها أنا اللي مبخلفش فا اتخضت كده وقالتلي أنا كنت فاكرة زهيرة، قولتلها ما هي بتقول كده قدامكم عشان متجرحنيش.

ابتسمت زهيرة ولمعت عيناها فأكمل جلال.

- لقيتها قامت كده وارتبكت وقالتلي أنا هعدي مش عارف على مين وهبقى أزورك ومن بعديها مشفتهاش ولا هي ولا بنتها.

ضحكت زهيرة.

- أتاريها بطلت فجأة تسألني ومبقتش تزورنا!!

نظرت له في حب.

- يعني أنت عمرك ما فكرت تتجوز عليا؟؟

obeikan.com

- فكرت بس خوفت منك.

برقت عيناها في شك.

- بجد؟

لثم جبينها في رقة واقترب من أذنها وهمس في حرارة.

- عمري ما اتخيلت حد مكانك.

ابتسمت في رضا قبل أن يباغتها.

- احكيلي انتي بقى؟

رفعت سبابتها في براءة.

- بس متضحكش عليا؟

- مش هضحك.

- فاكر البواب اللي كان في العمارة اللي جنبنا؟

- آه فاكره عم حربي الراجل النوبي.

- كان عنده خمس عيال فوق روس بعض كده طول النهار بيتنططوا فا أنا فكرت أروح أقوله يديني واحد وأديله الفلوس اللي هو عايزها وأجيبهولك وأقولك مش أنت نفسك في عيل أديني جبتلك واحد.

obeikan.com

ضحك جلال حتى دمعت عيناه.

- بس دول كانوا سُمر أوي يا حبيبتي.

- هما دول اللي لقيتهم.

احتضنها بقوة فغاصت بين ذراعيه، ظلت مختبئة في حضنه حتى شعرت بالنوم يتسلل إلى أجفانها فارتخى ذراعيها فأحس جلال ذلك فأسند رأسها برفق على الوسادة وأرخى عليها البطانية وأحكمها عليها من كلا جانبيها، نهض جلال إلى النافذة ونظر ناحية كوخ حشمت فوجد نورًا ينبعث من الكوخ وصوت الراديو يكاد لا يسمع.

داخل الكوخ جلس حشمت على السرير الحديدي الأبيض ماركة إيديال وقد علق الراديو في الحائط في مسمار دقه فوق رأسه يستمع إلى نغماته عندما سمع صوت جلال في الخارج وهو يهتف.

- يا حاج حشمت.

خرج حشمت متجهمًا.

- عاوز إيه يا أستاذ جلال؟

تعجب جلال من نبرته لكنه تابع.

- عاوز أقعد معاك شوية نتسلى؟

في حزم.

- ممنوع يا حضرت.

اقترب جلال منه في دهشة.

- مالك يا راجل؟!

أدار حشمت ظهره وفي حسم.

- لو سمحت اتفضل على مطرحك ممنوع تيجي هنا كفاية اتأذيت بسببك.

كان جلال يعلم طيبة وعفوية حشمت فتظاهر بالامتثال لرغبته.

- طالما مُصر مفيش مشكلة أنا همشي بس ممكن تديني فرصة أشيل الأذى اللي اتسببت فيه؟

باستنكار.

- كيف يعني؟

بهدوء وثبات.

- صلِّ على النبي واسمعني؟

- عليه الصلاة والسلام.

obeikan.com

- أنا مايرضينيش إنك تتأذى بس كل مشكلة بيبقى ليها حل.

ظهرت الحيرة على وجه حشمت وتلفت يمينًا ويسارًا في قلق.

- طيب في عرضك خش جوه الأوضة عشان ممكن حد من البنات بتوع الدار يكون شايفنا.

دخل جلال إلى الكوخ وجلس على السرير وخلفه حشمت الذي جلس على إحدى صفائح الدهانات التي اعتبرها كرسي.

بادره جلال.

- أولاً فهمني الأذى جه من مين؟

- هو فيه غيرها سعاد حد بلغها إنك كنت قاعد معايا عشية فا عطتني كلمتين في جنابي وهتخصملي أسبوع على الأقل.

مستنكرًا.

- ليه يعني هو ممنوع حد ييجي يتكلم معاك؟؟

تحاشى أن ينظر في عينيه وغمغم.

- مش ممنوع بس شكلها المشكلة فيك أنت.

سكت جلال لحظة محاولاً تفسير كلمة حشمت الأخيرة، لكنه نفض رأسه وتابع.

obeikan.com

- طيب بص يا سيدي أنا هعلمك إزاي تتعامل مع سعاد وتخليها تعملك ألف حساب.

الناس دول نوعين.. نوع معدنه أصيل ونوع معدنه عفش بلغتكم في الصعيد.

اللي زي سعاد دي معدنها عفش هي ضعيفة من جواها وبتصنع لنفسها القوة من ضعف اللي قدامها.

اعتدل حشمت في جلسته وأومأ مؤكدًا.

- من ناحية معدنها عفش فدي حقيقة لأني عارف أصلها كانت إيه وبقت إيه؟

- كويس إنك مقتنع وكمان هسألك سؤال.. هل فيه مرة سعاد رضيت تسامحك لما اتحايلت عليها في حاجة أو إديتك مكافأة مثلاً؟؟!

فغر فاه محاولاً إيجاد موقف واحد.

- الحقيقة لأ.

تابع جلال في ثقة خبير.

- ليه! لأنها كل ما بتشوفك ضعيف بتستقوى وتزيد في إذلالك هو كده الإنسان الضعيف ميعرفش غير الذل إما إنه يذل اللي تحته وإما مذلول للي فوقه.

obeikan.com

سكت برهة وأردف.

- أوعى ترضى بالذل.

في عدم اقتناع وفي صوت خفيض محاولاً تبرير تعامله مع سعاد.

- يا بيه لازم نطاطي للريح عشان تعدي.

صاح جلال في حنق.

- ده كلام العجزة.

الريح بتروح على اللي مطاطي وتدوس على ضهره فيطاطي أكتر أما اللي بيواجها فبتخبط فيه وبعدين تبعد بعيد عنه.

شرد حشمت شروده الذي يرى فيه الماضي وبدا عليه الاقتناع.

- كنّ كلامك صح يا بيه.

استراح جلال لملامح الاقتناع التي بدت على حشمت فأردف.

- أما النوع التاني اللي معدنه أصيل لا يمكن يستقوى على حد ضعيف.

حك حشمت جبهته في حيرة.

- برضك مفهمتش أعمل إيه معاها؟

obeikan.com

- بكره لما تيجي متقومش تسلم عليها ولو صبحت عليك متردش هترجعلك تشوفك مالك تقولها كلمتين بس- مش حضرتك ناوية تخصميلى براحتك خالص بس خليكي فاكرة- بس كده ولا كلمة زيادة ولا كلمة نقص.

- ماشي يا بيه أجرب.

- ولو الموضوع منفعش مش هتشوفني عندك أبدًا.

عضّ حشمت على سبابته متوعدًا.

- أموت وأعرف مين اللي بيبلغها!!!!

- بص شوف مين اللي دايمًا ملازم سعاد ومين اللي في الكبيرة والصغيرة تنده عليه هتعرف على طول.

شرد حشمت باحثًا في ذاكرته عن الشخص الذي تنطبق عليه المواصفات وفجأة لمعت عيناه ورفع سبابته ناحية رأسه كأنما وجد الشخص.

- آااه يا محساس الفرن يا واطية.

أمال جلال أذنه ناحية حشمت مستوضحًا.

- بتقول إيه؟؟

obeikan.com

- زينب يا بيه زينب البنت الكحلة الرفيعة اللي دايمًا في ديل سعاد.

- أديك عرفت كل حاجة أهو.

وقف جلال بغتة ناهيًا الحوار راضيًا بما وصل إليه مع حشمت.

- أسيبك وبكره نتكلم.

وقف حشمت مواجهًا لجلال.

- متزعلش مني يا بيه؟

- مش زعلان يا حشمت.

تصبح على خير.

- وأنت من أهل الخير.

خرج جلال من الكوخ في خطوات هادئة.

تدور في رأسه كلمة حشمت- المشكلة فيك أنت-

شعر جلال وهو يمشي متحسسًا خطاه أنه يرى زينب بعيونها الدقيقة الشاردة وبشرتها السمراء تقف من بعيد تنظر إليه وقد ارتسمت على وجهها تلك الإبتسامة الفاترة، تمتم جلال.

obeikan.com

- ما أكثر الضعفاء الذين يصنعون الطغاة!

لم يستطع حشمت النوم في هذه الليلة وقد أطلت عليه ذكريات من الماضي، كاد صدره أن ينفجر من ثقلها فقد كان منطق جلال غريبًا على أذنه، لم يسمع طوال حياته إلا عبارات المهادنة والاستكانة والخنوع وأن من يسلك هذا الطريق فهو لا محالة فائز أما من يعترض ويواجه فهو يلقي بنفسه إلى التهلكة.

أغمض عينيه يريد الليل أن ينقضي ليرى وجه سعاد حين ترى منه وجهًا غير الذي كانت تراه

إن موعدكم الصبح أليس الصبح بقريب!!!

●●●

جلست سبيل في شرفتها الصغيرة تتصفح الفيسبوك على هاتفها، كانت الساعة قد تجاوزت الثانية عشرة وقد خلا الشارع من المارة إلا قليلاً.

شعرت بلسعة البرد تتسلل إلى أناملها الممسكة بالهاتف فأغلقته ودسته في جيب الترينج القطني المبطن الذي ترتديه، تثاءبت عندما بدأ النوم يداعب عينيها فوقفت في تثاقل قبل أن يومض هاتفها في جيبها وانبعثت منه تلك الموسيقى المميزة.

obeikan.com

أخرجت الهاتف ونظرت إلى الرقم الذي بدا غريبًا في تردد.

- ألوو.

- آسف لو كنت قلقتك.

- مين معايا؟

- أنا ياسين ويتر المطعم.

جلست مرة أخرى وتصنعت عدم الاهتمام.

- آاه.. أهلاً.

- باختصار وبدون لف ودوران أنا لما قولتلك إني شوفتك في فيصل مقصدتش غير حاجة واحدة.. إنك تديني فرصة أكلمك.

تنهد وتعالت أنفاسه حتى أحست سبيل أن أنفاسه الحارة لفحت وجهها.

- معلش إني متوتر شوية بس اللي عايز أقولهولك إني حابب أتكلم معاكي؟

- تتكلم معايا في إيه؟

- انتي شكلك حلو وملفت وممكن تبقي مطمع لأي حد وممكن كمان تبقي مطمع لناس انتي فاكراهم بيخافوا عليكي وبيحبوكي بس هما مش زي ما انتي فاكرة.

obeikan.com

- مش فاهمة وضّح كلامك؟

سكت ياسين لبرهة وأحس أن أي كلام سيقوله يمكن أن يكون له مردود عكسي.

شعرت بتردده فباغتته في مكر.

- قصدك راجي مثلاً؟!

حاول أن يتكلم بدبلوماسية محاولاً الابتعاد عن الحديث عن راجي بشكل مباشر.

- انتي رغم مظهرك اللي ممكن يوحي إنك بتفهمي في الناس إلا إني بحس إنك طيبة وممكن أي حد يأثر عليكي.

ابتسمت ابتسامة خفيفة ولم تعقّب منتظرة أن يلقي كل ما لديه.

أردف ياسين في تردد.

- أنا قصدي من كلامي إني أنصحك لإني بحسّ إني بخاف عليكي.

بصوت بدا عليه التبرم.

- أنا مبحبش اللف والدوران لو زي ما بتقول خايف عليا اتكلم بصراحة؟

obeikan.com

قصدك راجي؟!!!!!!

- أيوه أنا معرفش العلاقة اللي بينكم ولا هو بيعاملك إزاي بس هو شخص كان كل يوم مع واحدة وحصلت قبل كده خناقة كبيرة في المطعم بين بنتين من اللي كان بيعرفهم فا أنا عايزك تاخدي بالك؟

لم يبدُ عليها أي تأثر بكلامه وقالت في هدوء.

- ميرسي على اهتمامك بس متخافش عليا؟

شعر بالارتباك من ردها.

- والله ما أقصد حاجة غير إني عايزك تديني فرصة نتكلم من وقت للتاني على الأقل اعتبريني صديق وفي بيخاف عليكي.

سكت لحظة ثم أردف.

- حد يكره يكون فيه حد بيخاف عليه!!!

- محدش يكره بس أنا بقولك متخافش عليا؟

- على العموم أنا هخلي بالي منك من بعيد لبعيد من غير ما أضايقك.

ope ikan.com

في برود.

- على العموم ميرسي لاهتمامك.

- آسف إني ضايقتك.. سلام.

أغلق الهاتف وأحس بقطرات العرق تتصبب على جبينه وغرق في أفكاره.

ظلت سبيل جالسة مكانها تسترجع كلمات ياسين عن راجي وبحثت في ذاكرتها عن اللحظات التي وقف أمامها ياسين في المطعم، حاولت أن تتذكر أول مرة لاحظت تغيره معها، أول مرة ظهر عليه هذا الاهتمام، ظلت تبحث في ذاكرتها المشتتة.

تظل الأنثى دائمًا تبحث عن البدايات.

●●●

استيقظ حشمت كما لم يستيقظ يومًا، لم يشعر بذلك الخوف الذي طالما لازمه منذ أن قدم إلى القاهرة، شعر أنه يمكنه أن يكون شخصًا مختلفًا تهابه سعاد ويهابه جميع من في الدار، أضاءت له كلمات جلال جانبًا من شخصية سعاد فاختفت الهالة التي كان يراها حولها وأصبحت في نظره شخصًا عاديًا لكنه كان قلقًا فربما لا تنجح الطريقة مع سعاد وتزداد توحشًا وقسوة، أخذ نفسًا عميقًا فملأ رئتيه بالهواء البارد.

obeikan.com

جلس على كرسيه بجوار الباب يستقبل أشعة الشمس الدافئة على وجهه في هدوء عندما دفعت سعاد الباب الحديدي ودخلت في عجرفة كعادتها.

مرّت من الباب متجاوزة حشمت كأنها لا تراه، فقد أخبرتها زينب أن حشمت استقبل جلال مرة أخرى ولم يرقب قولها فعزمت على توقيع جزاء غليظ عليه، ظلّ حشمت قابعًا على كرسيه ووجهه الأسمر يستقبل أشعة الشمس الذهبية كتمثال فرعوني.

توقفت سعاد فجأة وغمغمت في دهشة.

- هو أنا عديت قدام حشمت وماوقفش؟!!!!!

لأ أكيد عمل كده وأنا اللي مخدتش بالي!!

بس أنا مسمعتوش بيقولي صباح الخير!!

رجعت حتى وقفت أمامه محاولة التأكد.

- أنت برضه سمحت لجلال يقعد تاني معاك!!!

أنت مش بتحرّم!!!

ازداد ثباتًا وثقة بعد أن عادت إليه سعاد.

- واللّه كان بيسألني عن حاجة وجاوبته.

استشاطت غضبًا من بروده.

- أنت مخصوم منك شهر.

دون أن يلتفت لها.

- اللي انتي شايفاه صح اعمليه.

وقعت عليها الكلمة وقع الصاعقة، خيّل لها لبرهة أنها تتحدث إلى شخص غريب في مكان آخر.

- أنت قولت إيه؟؟؟؟؟

في صوت ثابت لم يتغير.

- بقول لحضرتك اللي تشوفيه.

ازدادت عصبيتها وسقطت منها نسخة الأهرام التي تحت إبطها فا انحنت تلتقطها وصاحت في حنق.

- لااااأ أنت شكلك شارب حاجة أنت لازم تمشي أنا مش هسكت على اللي بيحصل ده؟

وهتفت في غضب.

- يا زينب يا بت يا زينب.

obeikan.com

وقف حشمت وفي خطوات هادئة تقدم ناحيتها وفي صوت بدا غريبًا على أذنيها كأنها تسمعه لأول مرة.

- بس لو مشتيني ماتلومينيش يا ست سعاد على اللي هعمله.

وضعت يدها على فمها في دهشة ولم تستطع أن تنطق بكلمة.

من بعيد عند المبنى الكبير لاحت زينب تهرول تجاهها كماعز جبلية سوداء حتى وقفت بجوار سعاد التي لا تزال غارقة في دهشتها.

- أيوا يا ست سعاد.

لم تسمعها سعاد فكررت.

- أيوا يا ست سعاد.

تنبهت إلى زينب بجوارها وصاحت فيها بعصبية.

- مالك عايزة إيه؟؟

- حضرتك كنتي بتندهي عليا.

- غوري من وشي مش عايزة حاجة.

قفزت زينب إلى الخلف وهي تنقل نظرها بين حشمت الواقف في ثبات وبين سعاد التي تغلي مكانها كقدر على النار،

obeikan.com

تلقت صيحة أخرى من سعاد فأطلقت لساقيها العنان تسابق الريح حتى اختفت.

التفتت سعاد إلى حشمت وبصوت تصنع الهدوء.

- مالك يا حشمت أنت عيان؟

- أنا مليح انتي اللي عايزة تفتري عليا.

في ود زائف.

- أنا يا عم حشمت!

ده أنت زي والدي بس قولي فيه إيه بس؟

أحسّ حشمت بشخصيته ولأول مرة يدلي برأيه في شيء يخصّ الدار.

- فيها إيه لما حد ييجي لحدي ويسألني على حاجة؟

- مفيهاش حاجة.

اقتربت منه محذرة.

بس ده بالذات لأ لأن أهله منبهين إنه ميخرجش بره.

اقتربت أكثر وهمست في أذنه.

- دول حتى منبهين مفيش حد يتصل بيه كمان وأنا خايفة عليك لا حد يجيب سيرتك إنك بتقعد معاه وكده.

في نبرة تحدٍ.

- مين اللي هيجيب سيرتي مثلاً؟

- ممكن حد من النزلاء يقول إشمعنى جلال اللي بيقعد معاك وييجوا يقعدوا هنا على البوابة والموضوع يوصل لمدكور بيه.

- أنا محدش بيجيب سيرتي غير البت الكحلة زينب.

أمسكت سعاد رأسها بيدها وشعرت أن الأرض تميد من تحتها وشعرت أن هناك شيئًا غريبًا يحدث ففضلت الانسحاب ململمة نفسها من أمام حشمت الذي كشف لها عصفورتها التي تنقل لها الأخبار وبصوت تصنعت فيه الضعف.

- عن إذنك يا عم حشمت مش عارفة مالي حاسة إني دايخة ومصدعة إوعى تاخد على خاطرك مني أنا كنت بهزر معاك.

في ضحكة ماكرة.

- ألف سلامة عليكي يا ست الصبايا.

خطت سعاد لأول مرة منذ أن وطأت الدار خطواتها بهذه الطريقة المترنحة ولا تعرف أين هي ولا إلى أين تذهب؟

مِن أعلى كان جلال يراقب الموقف من خلف الزجاج، وكانت خطوات سعاد المترنحة تخبره لمن حُسمَت الجولة.

نظر حشمت ناحية الشمس كأنما يريد أن يمسك بخيوطها وتمتم بفرح.

- إن صادفك سعد الأيام وأنت على النحس ديمه.

اضرب عصاك لقدام عوجه تاجي مستقيمة.

•••

طوال الطريق من بيته في شارع العشرين في فيصل إلى مطعم كويت كورنر في أكتوبر ظل ياسين يفكر فيما قاله لسبيل.

- مش صح اللي انت عملته إمبارح الموضوع كان عايز ييجي واحدة واحدة.

لو متكلمتش كده كنت هفضل طول عمري مكاني ولا هيحصل حاجة.

بس انت متعرفش حاجة عن شخصيتها جايز تكون بتحب راجي وهو بيحبها.

أنا متأكد إنه مش بيحبها ومتأكد إنها بالنسباله زي أي واحدة عرفها.

أنا بحبها ومش هفضل واقف مكاني مستني متعودتش أتنازل عن أحلامي.

obeikan.com

بس ده حلم بعيد.

مفيش حلم بعيد هعمل المستحيل إنها تكون ليّا.

تفتكر هي تستاهل حبك ده؟

أنا حاسس إن اللي جواها أحلى ١٠٠ مرة من شكلها.

برضه ده مجرد إحساس مفيش دليل عليه.

عمر إحساسي ما خاب في حد وعمر قلبي ما اتحرك زي ما اتحرك ناحيتها.

أمضى ياسين نوبته في المطعم، كان طوال الوقت شارد الذهن لا تغيب صورتها عن عينيه. يراها جالسة في مكانها كلما مرّ عليه.

قبل أن يغادر ياسين المطعم استوقفه علي.

- استنى يا ياسين عايزك؟

تقدمه علي خارج المطعم ووقف الاثنان تلفحهما موجة برد قاسية.

اكتست ملامح علي بالجدية وقال في تأثر واضح.

- ياسين إنت أخويا وأنا بحبك ومن ساعة ما عرفتك وأنا شايفك إنسان طموح مش شايف غير مستقبلك وإنت بتكبر كل يوم عن التاني.

obeikan.com

بس ياسين اللي أنا شايفه النهارده مش ياسين اللي أنا أعرفه؟

أشاح ياسين بوجهه في ملل.

- مالي بس يا علي إيه اللي حصل ما أنا زي ما أنا؟

وضع علي يده على كتف ياسين.

- إنت تايه يا ياسين مش مركز ولو استمريت كده مش هتحقق حاجة في حياتك ومش هتطولها برضه.

ارجع ياسين اللي أعرفه وسيبك منها دي أخرها تتفرج عليها مش تحبها وتتجوزها.

تركه ياسين مبتعدًا.

- إنت مش فاهم حاجة يا علي أنا بحبها غصب عني.

تبعه علي حتى وقف أمامه.

- كل اللي أقدر أقولهولك يا صاحبي خلي بالك من نفسك.

أمسك ياسين بذراع علي وضغط عليه.

- متخافش يا علي متخافش.

obeikan.com

تركه ياسين ثم استقل الميكروباص عائدًا، عندما دخل الميكروباص شارع فيصل وأمام المكان الذي نزلت فيه سبيل سابقًا، نادى ياسين على السائق بصوت هادئ.

- على جنب يا أسطى.

●●●

كان الظلام يحيط المكان ولا أكاد أرى كفّ يدي حينما ظهرت مجموعة من الكلاب لا أرى سوى بريق عيونهم المتقدة وأنيابهم التي تسيل منها الدماء وبدأوا في الاقتراب مني فأخذت أجري أمامهم وهم خلفي حتى ارتطمت بسور عال وأخذت أبحث فيه عن أي باب لم أجد والكلاب تقترب مني.

كان ذلك حلم زهيرة المتكرر كل يوم تستيقظ خائفة ترتعش تقصه على جلال فيأخذها بين ذراعيه كطفلة صغيرة، يُظهِر أمامها القوة وهو يذوب من داخله خوفًا عليها.

كانت زهيرة تضعف يومًا بعد يوم لا يدخل جوفها إلا لقيمات يقمن صلبها وحبة صغيرة من عقار الفاميد دواء الروماتويد الذي كان يضرب مفاصلها دون رحمة.

كان طلبها المتكرر كل يوم من جلال.

- مش عايزة أموت هنا.

obeikan.com

جاءت إحدى العاملات حاملة طعام الإفطار كعادتها كل يوم ووضعته داخل الغرفة وقبل أن تتصرف نظرت إلى جلال.

- كنت عايزة أنضف الأوضة.. ممكن حضرتك والمدام تسيبوهالي ساعة؟

صمت جلال برهة وقد وجد ذلك فرصة أن يصطحب زهيرة في جولة تحت أشعة الشمس الدافئة.

- إحنا هنتغدى في المطعم النهاردة ممكن تبقي تيجي في الوقت ده.

خرجت العاملة وأغلقت الباب ونظرت زهيرة وقد ظهر الخوف في عينيها.

- أنا مش عايزة أروح المبنى هناك.

- إحنا هنتمشى شوية مش عجباني قعدتك محبوسة.

- مش هقدر جسمي كله واجعني.

- جربي النهاردة بس ولو تعبتي مننزلش تاني وكمان عشان البنت تنضف الأوضة كويس.

استسلمت تحت إصرار جلال.

obeikan.com

جلست سعاد في مكتبها ووقفت أمامها زينب تتلو عليها تقريرًا وافيًا عن حركة الدار بالأمس.

كانت زينب وهي تقص تقريرها على سعاد تشير بيدها وتتغير ملامح وجهها كأنها ممثل يقف على خشبة المسرح.

- قعدوا في الأوضة ييجي ساعتين بعد كده خرج الراجل الكهين اللي اسمه جلال.

واللي مايتسماش حشمت فضل صاحي بعديه بساعة كده وبعدين طفا النور واتخمد.

مطت سعاد شفتيها وهمست.

- لو قدرتي تعرفيلي بيتكلموا يقولوا إيه هجيبلك جلابية حلوة.

أدارت زينب عينيها يمينًا ويسارًا في جو من الإثارة.

- أنا هلبد ورا أي شجرة قريبة أحاول أسمعلك بيقولوا إيه؟

غمغمت سعاد بكلام لم تستطع زينب تمييزه.

- ما هو مش معقول حشمت فجأة يكلمني بالطريقة دي أكيد جلال قاله حاجة؟!

بس هيكون قاله إيه وهو يعرف إيه أساسًا؟!

ob e i k a n . c o m

فركت جبينها بعصبية.

- أنا هتجنن.

برقت عينا زينب وهي تتابع سعاد وقد ارتسمت على وجهها نظرة بلهاء.

- حضرتك بتقولي حاجة؟؟

انتبهت فجأة وبعصبية.

- انتي لسه واقفة بتهببي إيه؟؟؟؟؟

روحي شوفي شغلك.

قفزت زينب في خطوتين كانت خارج المكتب.

وقبل أن تعود سعاد إلى حديثها مع نفسها، قفزت زينب مرة أخرى إلى داخل المكتب حتى كادت أن تتكفئ على وجهها كأنها كرة قذفتها للحائط فارتدت لها وقالت في ذعر.

- جايين على هنا.

فزعت سعاد من قفزة زينب وأمسكت بعلبة مناديل ورقية بجوارها وقذفت بها زينب فأصابت وجهها.

- هما مين يا مخبولة انتي!!!

- الأستاذ جلال ومراته جايين على هنا.

- فزعتينى اللّه يخربيتك وإيه يعني لما ييجوا إمشي من وشي.

فزعت سعاد وتملكها القلق أكثر من زينب إلا أنها حاولت التماسك ولو قليلاً.

نهضت سعاد من على مكتبها وأخذت نفسًا عميقًا وخرجت من مكتبها وقد رسّمت على وجهها الجدية والصرامة وما إن رأتها العاملات حتى وقفن في انضباط، سارت أمامهن عبر تلك الطرقة الطويلة ناحية قاعة المطعم التي تقع في نهايتها.

كان تصميم الدور الأول عبارة عن طرقة طويلة أولها على اليمين مكتب سعاد ثم مكتب مدكور بيه ثم قاعة النشاط الاجتماعي والترفيه وفيها يقضي النزلاء معظم أوقاتهم ثم قاعة الطعام وهي عبارة عن بعض الترابيزات الخشبية التي وضعت عليها مفارش قماش خضراء وحول كل مائدة أربعة مقاعد من البلاستيك وعلى اليسار من باب المطبخ طرقة طويلة أخرى يقع بها الغرف الأرضية يمينًا ويسارًا.

تجاوزت سعاد قاعة الترفيه ودخلت إلى المطعم، كان كل شيء في مكانه لا يوجد شيء خارج الروتين اليومي.

اقترب جلال من مدخل المبنى الكبير تستند زهيرة على ذراعيه.

كانت رائحة الطعام تزكم أنف جلال انبعثت قوية من الداخل.

استدارت سعاد خارجة من قاعة المطعم فلاح لها من بعيد جلال وزهيرة فتظاهرت بعدم رؤيتهما وصاحت بصوت جهوري.

- أنا مش هسمح بأي إهمال أو تقصير وأي تجاوز أو مخالفة للوائح هيبقى فيه عقاب.

أدرك جلال على الفور أنها تسمعه هو ذلك الكلام، ابتسم في هدوء وواصل سيره ناحية المطعم مقتربًا من سعاد.

خطت سعاد هي الأخرى ناحية جلال وزهيرة، أصبحت قاعة الترفيه على يمين جلال فسمع صوت التلفزيون ينبعث من القاعة فنظر إلى زهيرة.

- ما تيجي نقعد شويه نتفرج على التلفزيون؟

هزت زهيرة رأسها موافقة فقد بدأ الألم يضرب قدميها.

بدت غرفة الترفيه كقاعة عزاء في مسجد عمر مكرم فقد رُصّت الكراسي بجوار حوائط القاعة وجلس عليها النزلاء في سكون كأن على رءوسهم الطير، يثبّتون نظرهم أمامهم على شاشة

تلفاز علقت أمامهم على الحائط، دخل جلال وزهيرة فتحولت الأنظار إليهم ثوانٍ معدودة ثم عادت الأنظار إلى الشاشة.

لم يجد هؤلاء المسنون في جلال وزهيرة شيئًا جديدًا، عجوزان بائسان تعيسان ضاقت بهم الأماكن في الخارج وأصبحا عبئًا ثقيلاً غير مرغوب فيه فأُنزلا الدار غير مأسوف عليهما.

تسلل جلال إلى الداخل ملتمسًا أي مقعدين في القاعة، وجد ضالته في أحد الجوانب فانزوى إليهم في هدوء، أجلس زهيرة ثم جلس.

كان التلفاز يعرض مسلسلاً عربيًا قديمًا بدون ألوان لم يتعرف جلال عليه، لم يبد على جميع المشاهدين أي تفاعل معه، ملامح ذابلة مستسلمة، أبصار زائغة لا تبصر إلا النهاية، كان المشهد كأنك في متحف قديم لم يزره أحد من مائة عام.

دخلت سعاد فقطعت السكون ونظرت إلى التلفاز وصاحت في غضب.

- إيه اللي انتوا مشغلينه ده!!!!!!

كان صوتها وطريقتها في الكلام كأنها ضبطت فيلمًا إباحيًا سرب إلى الدار في حين غفلة منها.

كان صوتها كأن إسرافيل قد نفخ في الصور لكن الغريب أن أحدًا من الموتى لم يستجب، ظل هؤلاء البؤساء في ثباتهم، هرعت زينب فأمسكت الريموت ونقلت القناة إلى إحدى قنوات القرآن الكريم فتابعت سعاد في طريقة مسرحية وقد ارتدت ثوب الواعظ.

- القرآن مفيش أحسن منه يطرد الشياطين من وسطينا.

نظرت إلى جلال عند هذه الكلمة وتابعت.

- كلكم محتاجين بركة ربنا من القرآن.

كان أداؤها ركيكًا كممثلة مغمورة في مشهد مبتذل.

لا أدري لماذا نربط دائمًا بين القرآن وكبر السن، بين القرآن والموت، بين القرآن والحزن، أليس يقرأ في المآتم والجنازات مع أن جوهر القرآن هو الأمل والعمل «واعبد ربك حتى يأتيك اليقين»، واليقين لا تعرف متى يأتيك فقد يأتيك صغيرًا وقد لا يأتيك إلا كهلاً.

كان جلال يتابع المشهد في تعجّب، لم يعجب من سعاد ولكنه عجب منهم وقد ارتدوا ثوب الزهد والمسكنة يفرطون في حقوقهم طائعين، أوهمهم المجتمع أنهم على أبواب الموت فليس لهم حق في الحياة، قتلوا فيهم الأمل فاستسلموا لتلك الأوهام ورددوا كلماتهم.

obeikan.com

قولوا ما شئتم قولوا أنه زهد أنه عفو.. قولوا أنه تواضع.. قولوا أنه لم يعد في العمر شيء...

لكن جلال لم يره إلا دربًا من الذل والهوان والخنوع واليأس الغير مبرر.

كل لحظة في العمر تستحق أن نحيا فيها حتى وإن كانت لحظات من آخر العمر.

أصاب المشهد زهيرة بحالة من الهلع لم يلحظها جلال إلا حين نظر إليها، أمسك بيدها وسألها في إشفاق.

- إحنا ممكن نقوم لو مش حابه نقعد؟

اكتفت بإيماءة من رأسها فأوقفها جلال فتشبثت بذراعه واتجهوا مغادرين.

ظلت سعاد تمشي في تبختر جيئة وذهابًا في طرقات الدار حتى خرج جلال وزهيرة متجهين إلى غرفتهم، رمقتهما بنظرة تحدٍ ودلفت إلى مكتبها قبل أن يرّن جرس الهاتف الأرضي التقطت السماعة.

- ألو.

- هعدي عليكي كمان ساعة نروح معرض الحاج حسين؟

تهللت أساريرها فرحًا ولمعت عيناها.

- مستنياك يا باشا.

أغلقت الهاتف وارتمت على مكتبها في سعادة.

●●●

لم تنم سبيل في تلك الليلة كانت رأسها تدور كطاحونة قديمة تتصارع الأفكار داخلها بلا هوادة كان جهاز الرادار المثبت في رأسها يرصد ويحلل كل من يدخل مجالها تحدد نواياه وأهدافه بنسبة خطأ تكاد تكون منعدمة.

ماذا حدث!!! جهاز الرادار لا يعمل، شوشت كلمات ياسين عليه فأصبح لا يرسل أي بيانات أخرى.

استيقظت خاملة لا تدري كم الساعة، نظرت إلى هاتفها فإذا بشاشته تشير إلى عدد كبير من المكالمات الفائتة.

مازن.

راجي.

توقفت عيناها عند رقم هاتف بدون اسم.

تأملت الرقم.. يبدو كأي رقم مجهول حادثها يومًا يريد أن يتقرب منها ويبدي اهتمامًا

obeikan.com

تمتمت في نبرة أعياها التفكير.

- يا ترى عايز إيه؟

كان ذلك السؤال دائمًا مفتاح كل شيء تقابله، كان أول درس تعلمته في حياتها.

«كل شيء له مقابل».

كان ذلك الدرس على يد طفل صغير حين كانت في السنة الأولى في كلية التجارة، شاركت حينها في مبادرة تبنتها إحدى الجمعيات الأهلية وكانت تهدف إلى استضافة أطفال الشوارع في مكان يتعلمون فيه القراءة والكتابة ويقيمون فيه بدل الشارع.

نزلت إلى الشارع هي ومجموعة من الطلبة واقتربت من أحد الأطفال لم يبلغ السادسة وقدمت له علبة عصير وطلبت منه أن يأتي معها ليعيش في هذه المدرسة فرفض أن يأخذ منها العصير وبعد محاولات أخذ العصير ولكنها حين طلبت منه أن يأتي معها ففاجأها الطفل بسؤاله.

- من الأخر انتي عايزه إيه يا أبله؟

- مش عايزة منك حاجة أنا عايزة أساعدك؟

- مفيش حاجة من غير حاجة قصادها؟!

هكذا علمت الدنيا هؤلاء الأطفال مبكرًا أن كل شيء له مقابل، حفرت هذه الكلمات في ذاكرتها وكانت دائمًا نصب عينها.

إذا أخبرك أحد أنه يخاف عليك ولا يريد منك شيئًا فهو لا محالة يريد شيئًا.

- الانتظاااار.

قالت سبيل في حسم.

كان ذلك الدرس الثاني الذي تعلمته.

«انتظر حتى تجيب لك الحياة على كل الأسئلة».

●●●

على ناصية شارع ربيعة المتفرع من شارع فيصل وقف ياسين ينظر في ساعته في توتر يدور حول نفسه جيئة وذهابًا لا يطيق الانتظار، دقائق وهبط شاب في منتصف العشرينات من أحد التكاتك متلفتًا يمينًا ويسارًا اقترب من ياسين وسلّم عليه.

- معلش يا كيش جبتك كده على ملا وشك بس أنت عارف فيه حاجات مبعرفش أتصرف فيها؟

- انت تؤمر يا معلم.

obeikan.com

أشار ياسين بيده إلى الشارع وتقدم كيش.

- ده الشارع تعالى أوريك العمارة والشقة.

اصطحبه ياسين ودخلا البناية التي دخلتها سبيل قبل أيام وصعدا إلى الطابق الذي به تلك الشقة، نظر الكيش إلى الباب كخبير مثمن ثم صعد إلى الطابق الثاني وهبط سريعًا وأمسك ياسين من يده وأخذه خارجين من تلك العمارة.

عند مدخل العمارة تلفت الكيش يمينًا ويسارًا ثم التفت إلى ياسين.

- خلاص اتكل على الله انت وأنا هكلمك.

انصرف ياسين تاركًا الكيش الذي أشعل سيجارة وأخذ يمسح الشارع بعينيه.

●●●

كان صوت القرآن ينبعث في كل جانب من جوانب المعرض، أجهزة كهربائية من مختلف الأنواع والماركات تراصت بجوار بعضها، أقسام للملابس وللأدوات المنزلية، لافتات علقت في كل مكان تعلن عن عروض على الألحفة والبطاطين بمناسبة الشتاء، بائعون وقفوا في خشوع تظهر على جباههم علامة السجود كما لو كانت وُشِمَت على وجوههم.

ok-elkan.com

كانـت سـعاد تمشـي بجـوار مدكـور بـك يتقدمهـم عصـام أحـد البائعـين في المعـرض يكتـب كل مـا يختارونـه.

أخذت سعاد تشير لمرافقهم على السخانات.

- ١٠ سـخانات، ١٠٠ بطانيـة وعايزيـن كمـان ١٠ حلـل علـى كام طاسـة كـده.

دوّن عصام كل الذي اختارته سعاد.

توقفت سعاد أمام قسم الإلكترونيات وأجهزة الكمبيوتر.

اقتربت من مدكور وهمست في أذنه.

- إيه رأيك نطلب أجهزة كمبيوتر؟

رمقها باستنكار.

- مش منطقي هتبقى مفقوسة.

- بالعكـس أولاً عايزيـن نسـجل كل البيانـات بتاعـة الـدار علـى الكمبيوتـر وكمـان عايزيـن النـزلاء يتعلمـوا يسـتخدموه كإننـا بنعملهـم حاجـات ترفـه عنهـم وتسـليهم.

أمسـك مدكـور بذراعهـا مبتعـدًا بهـا عـن عصـام الـذي كان يرقبهـم وهمـس في أذنهـا.

- هتعرفي تصرفيهم؟

ابتسمت في ثقة.

- يا باشا سعاد مبتغلبش.

التفت إليهم عصام المرافق.

- فيه حاجة تاني.

اقتربت منه سعاد مشيرة إلى قسم الإلكترونيات.

- محتاجين أجهزة كمبيوتر.

- طيب لحظة واحدة هكلّم الحاج.

تبادل مدكور نظرة لوم مع سعاد التي أشارت إلى عصام بيدها.

- وماله يا أخويا كلّم الحاج.

ابتعد الموظف قليلاً وأمسك هاتفه.

- ألوو يا حاج هما لحد دلوقتي اختاروا حاجات بخمسة وستين ألف جنيه ولسة عايزين أجهزة كمبيوتر.

- ماشي المهم المبلغ الإجمالي مايعديش ١٠٠ ألف وتروح معاهم وتاخد منهم إيصال استلام بالحاجة على ورق الدار ومتنساش

obeikan.com

تخليهم يختموه وتديه للأستاذ سعيد في الحسابات وتقوله يثبت المبلغ في الإقرار الضريبي على إنه مصاريف عشان يتشال من الضرايب بتاعتنا.

- حاضر يا حاج.

أغلق الهاتف وعاد إليهم وأشار لهم أن يتبعوه إلى قسم الإلكترونيات.

●●●

ألح مازن في الاتصال بسبيل في ذلك اليوم حتى أجابت على مضض.

- ألوو.

- انتي مش بتردي ليه؟؟

- تعبانة شوية وكنت نايمة.

- مفيش وقت للنوم.

عايزين راجي يبدأ يجهز الشقة.

- يعني يعمل إيه بالظبط؟

- أنا هبعتله حد من طرفي يقوله على الحاجات اللي أنا عايزها بس مش ده المهم.

في ضيق واقتضاب.

- أمال إيه؟

- لازم يجهز مبلغ عشان التجهيزات.

- راجي مش معاه فلوس.

- ما هو ده دورك بقى.

هزي الواد كده وقلبيه.

خليه يطلّع أي فلوس يكون شايلها على جنب أو أي حاجة ينفع تتباع أو يميل على أبوه وأمه.

- أبوه وأمه إيه إنت نسيت ما احنا خليناه رماهم في الدار.

- وإيه يعني بالعكس دلوقتي يقدر ياخد منهم أي حاجة بدون ما يتكلموا.

- حرام كفاية اللي حصلهم.

- حرام في إيه هو إحنا هنكون أحن عليهم منه؟

قطع كلامه فجأة وبنبرة هادئة.

- وبعدين انتي مش عجباني مالك؟

- ولا حاجة قولتلك تعبانة شوية.

obeikan.com

- ماما عاملة إيه؟

- الحمد للّه.

- عدّي عليا ليكي فلوس.

- ربنا يسهل.

ماتنسيش راجي ضروري نبدأ خلال أسبوع بالكتير؟

- أوك.

أغلقت الهاتف وعقدت ذراعيها خلف رأسها وأغمضت عينيها .

●●●

كان البدر يطل من السماء على استحياء لا يكاد وجهه يظهر حتى يتوارى خلف تلك السحب الكثيفة التي لبدت السماء، هبط سقيع ليل الشتاء على الدار فزادها سكونًا على سكونها، يهربون إلى النوم يجدون فيه راحة من كل شيء، ليل طويل تنامه خير من نهار تنتظر فيه المجهول.

لا يبغون إلا إحدى الراحتين اليأس أو الموت.

أما الموت فبيد الله فلا يبقى إلا اليأس.

obeikan.com

أمـام المبنـى الكبيـر تـوارت زينـب خلـف البرجولـة انتصبـت ملتصقـة بأحـد أعمـدة الإنـارة لا تسـتطيع أن تميزهـا عـن هـذا العمـود الصـدأ، كانـت ترتعـد مـن البـرد ورغـم ذلـك تقـف في إصـرار جنـدي كُلـف بمهمـة مـن قائـده عيناهـا مثبتـة علـى بـاب المبنـى المميـز في انتظـار خـروج جـلال في رحلتـه إلـى حشـمت خيـل إليهـا أن المبنـى بأكملـه يتحـرك يتمايـل يمينًـا حتـى يـكاد يلامـس الأرض فينتفـض واقفًـا متمايـلاً ناحيـة اليسـار، فجـأة يميـل إلـى الـوراء يـكاد يقـع علـى ظهـره لا إنـه يشـتعل بـل أن هنـاك كائنـات رماديـة شـفافة هبطـت مـن الفضـاء علـى سـطحه.

تحـرك خيـال نحيـف أمـام المبنـى المميـز في خطـوات هادئـة متجهًـا ناحيـة البوابـة الخارجيـة.

لازالـت زينـب تقـف غائبـة عـن الوعـي غارقـة في خيالاتهـا، كانـت تتبعـه بنظرهـا لكنهـا لـم تحـرك سـاكنًا، كانـت تحسـبه أحـد الكائنـات الفضائيـة التـي هبطـت علـى السـطح نـزل يمشـى علـى أرض الحديقـة.

كان صـوت الراديـو ينبعـث خافتًـا مـن داخـل كـوخ حشـمت، كان عـم جابـر أبـو حسـين والأبنـودي يرويـان السـيرة الهلاليـة علـى موجـات إذاعـة شـمال الصعيـد، اقتـرب جـلال مـن الكـوخ فـرآه حشـمت.

– مسـاء الخيـر يـا أبـو زيـد الهلالـي.

ضحك حشمت فلمعت سنته الذهبية في جانب فمه.

- مساء النور يا بيه نروح فين إحنا في أبو زيد الهلالي.

تابع حشمت على نفس طريق راوي السيرة.

- فرطت قلعي ماجانيش ريح... وعاودت على البر ناوي.

ياما ناس زينا مجاريح... لكن صابرة على البلاوي.

باندهاش وإعجاب.

- الله عليك ده انت طلعت شاعر كبير.

جلس جلال على الدكة الخشبية بجوار حشمت.

- أنا نفسي في كوباية شاي تدفينا وولّع لنا شوية خشب واحكيلي اللي حصل مع سعاد.

في ابتسامة.

- حاضر يا بيه.

كانت زينب لازالت ترى ذلك الكائن الفضائي وهو يقف عند البوابة وقد خرج له كائن فضائي آخر وأخذوا يتحدثون وفجأة اشتعلت نار بينهما فأضاءت وجوههم فنفضت زينب رأسها وتمتمت.

obeikan.com

- ده جلال وحشمت يا بت يا زينب أنا شكلي كنت بحلم.

قفزت إلى جانب السور فالتصقت به وأخذت تتسلل ناحية البوابة حيث يجلس جلال وحشمت، كانت تحتضن جزع كل شجرة من أشجار الكازورينا الممتدة بطول السور تختبئ وراءها وتدور بعينيها حتى تطمئن أن أحدًا لا يراها ثم تقفز للشجرة التي تليها لا تستطيع أن تميز منها غير عينيها التي تلمع بانعكاس الضوء المنبعث من أعمدة الإنارة في الخارج، من بعيد تعالت ألسنة النار تحت أقدام حشمت وجلال.

رفع حشمت رأسه إلى جلال وهو يمد له كوب الشاي.

- عارف يا جلال بيه كلامك عشية خلاني أندم على حاجات كتير.

بصوت رصين.

- كل حاجة بأوان.

- بس الأوان لما بيفوت مابيعاودش تاني.

مال بظهره إلى الخلف والتفت إلى حشمت.

- احكيلي تقصد إيه؟

obeikan.com

- من بيجي خمسين سنة اتجوز أبوي بأمي وأمي كانت من عيلة كبيرة عندهم طين وخير كتير وأبوي كان راجل فقير.

أمي كان ليها تلات إخوات رجالة لما مات جدي ورثوا كل شيء ومعطوش أمي نصيبها وأمي كانت خايفة عليا من خالي الكبير أصله قاسي وكل الناس عشان خوفهم من أخوالي كانوا يقولولي متزعلش خوالك منك الناس بتفوت اللي ليها.

ومرت الأيام أخوالي ورثوا الأرض والخير وأنا ورثت الفقر عن أبوي وجيت مصر أدور على شغل وسبت حقي اللي كان ممكن يكفيني أنا وأولادي.

فرد جلال كفيه يصطلي جذوة النار أمامهم وقال في هدوء.

- الحق عشان ييجي لازم حد يطلبه وانت ينفع ترجع تطلب حقك.

هز حشمت رأسه يائسًا.

- مينفعش يا بيه أخوالي قواي علي وعلى ولادي وأمي اللي كانوا ممكن يعملولها حساب ماتت.

- ما انت جربت مع سعاد الخوف منها منفعكش بحاجة طالما بتطالب بحقك خليك قوي ومتخافش.

اعتدل جلال في جلسته ورفع يده في حركه استعراضية.

- أنا هكلمك بلغتك اللي بتتكلم بيها.

- قالوا زمان.

اللي يداديك داديه واجعل عيالك عبيده.

واللي يعاديك عاديه روحك ماهياش في إيده.

فغر حشمت فاه ونظر بإعجاب إلى جلال.

- واه يا بيه ده أنت كانك عشت في الصعيد ويانا.

- أنا كنت أتمنى أعيش في الصعيد عشان أشوف ناس طيبة زيك.

- والله حضرتك اللي طيب.

- المهم إنك تسعى ورا حقك وماتسيبوش.

لمعت عينا حشمت وتهللت أساريره.

- والله يا بيه انت فتّحت عيني وقويت قلبي.

ابتسم جلال في تواضع.

- انت تجهز نفسك للسفر وأنا هقولك إيه الإجراءات اللي تعملها عشان تجيب ميراث والدتك.

- ياريت يا بيه ده هيبقى جميل عمري ما هنساهولك.

- ولا جميل ولا حاجة.

التفت جلال ناحية الراديو فقد كان الخال يختم حلقته من السيرة.

- يا خسارة الكلام خدنا مسمعناش السيرة.

سكت لحظة ثم قال بحماس.

- تعرف تنشد زي عم جابر؟

ضحك حشمت وهز رأسه تحسرًا على الأيام الجميلة.

- هترجعنا البلد تاني يا بيه شكلك بتحب المواويل.

- حياتنا كلها مواويل يا حشمت.

نهض حشمت فأغلق الراديو وسحب كرسيًا خشبيًا بجوار الكوخ وجلس في مواجهة جلال جاعلاً جذوة النار بينهما.

ثم بدأ يتمايل منشدًا وهو يصفق بهدوء ورتابة.

- صلاة النبي بتزيدني شوق

وتمنع البلا والمراضي

قال له الإله اندفن فوق

قال أمِّتي في الأراضي

صلاة النبي تغني عن القوت

وتمنع البلا والمراضي

يستاهل علقته بالسوط

اللي معاه كفو الزيارة ما راضي

تمايل معه جلال وقد انعكست على وجوههم تلك الأشعة الدافئة التي تنبعث من راكية النار بعد أن هدأت جذوتها فأضفت عليهم جوًا أسطوريًا وهم يرددون مربعات الواو الجميلة من ديوان ابن عروس.

كانت زينب قد التصقت بآخر شجرة تفصلها عن البوابة فأطلت برأسها من خلف جذعها لترى ذلك المشهد الساحر الذي أصابها بالذهول والخوف فلم تستطع أن تدرك ماذا يفعلون أو بماذا يتمتمون ولماذا يتمايلون هكذا كالسكارى، كانوا يشيرون بأيديهم إلى النار فخيل إليها أن النار تتبع إشاراتهم فتعلوا ألسنتها، جحظت عيناها وانكمشت خلف جذع الشجرة حتى استجمعت قوتها ثم قفزت مهرولة فزعة لا تلوي على شيء.

●●●

كان ياسين قد أوشك على مغادرة مطعمه الذي يعمل به بعد انتهاء نوبة عمله الصباحية التي تبدأ في العاشرة صباحًا وتنتهي في السادسة مساءً.

قبل أن يرّن جرس هاتفه.

- ألوو أيوا يا كيش.

- بصّ يا صاحبي الشقة دي بتاعة واد اسمه مازن بتاع كمبيوترات وموبايلات أصلاً من أبو قتاته ورا الجامعة.

- يعني نظامه إيه؟؟؟

- هو مش سكته النسوان بس هو شغال في البضاعة الشمال المسروقة يعني بياخدها وبيصرفها هو على إنها جديدة والشقة دي تقريبًا فيها مخزن أنا مش متأكد بالظبط والواد بيضرب مخدرات.

- ومين اللي قاعد في الشقة؟

- واد صبي اسمه بورده أما مازن ده فبيبقى موجود بالليل بس المكان مشموم يا صاحبي.

بدا على ملامح ياسين الضيق.

- تسلملي يا صاحبي.

obeikan.com

- لو عايز نظبطلك الواد ده قولي.

- ألف شكر يا حبيبي كده تمام أوي.

شرد ياسين في كلام الكيش فشعر بالخوف على سبيل.

انتبه ياسين إلى سيدة تدخل من باب المطعم تدور بعينيها في المطعم.

تقدمت ناحية ياسين وهي تلوك علكة في فمها في طريقة مستفزة.

- قولي والنبي الأستاذ راجي بيقعد هنا؟؟؟

باقتضاب.

- قصدك راجي جلال؟

في ابتسامة واسعة.

- أيوا الله ينور عليك الأستاذ راجي ابن الأستاذ جلال.

- هو مالوش مواعيد بس لو قالك جاي يبقى اتفضلي استريحي استنيه.

أشار لها ياسين إلى الترابيزة التي يجلس عليها راجي عادة.

رجع ياسين إلى البار وجلس يتفحص تلك السيدة التي تنتظر راجي.

- مين دي كمان واحدة جديدة من حريمه ولا إيه؟ ويا ترى سبيل جاية ولا لأ؟

مرت أكثر من نصف ساعة كانت سعاد قد طلبت عصير مانجو وآيس كريم وشاي وكانت تبقي الأكواب أمامها لم تترك ياسين يأخذها، ترشف من كل كوب بعضًا مما يحتويه ثم ملعقة من الآيس كريم وهكذا.

اقترب منها ياسين.

- حضرتك تؤمري بحاجة تاني؟

- متحرمش منك يا أخويا.

لمح ياسين راجي وهو يركن سيارته خارج المطعم، بحث عن سبيل لعلها تكون معه لكن أمله خاب عندما دخل راجي وحيدًا.

أشار بيده ناحية باب المطعم.

- أهو الأستاذ راجي وصل.

- شكرًا ربنا يخليك.

اقترب راجي منهم وسلم على سعاد وأشار لها بالجلوس ونظر إلى ياسين الذي سأله.

- تشرب حاجة يا راجي بيه؟

نظر راجي إلى أكواب العصير والشاي وبولة الآيس كريم في اشمئزاز.

- لأ شكرًا شوية كده.

- تشربي حاجة تاني حضرتك؟

وضعت سبابتها على مقدمة فمها ثم قالت في شراهة.

- ممكن أخد زبادي خلاط؟

كتب ياسين الأوردر وانصرف، نظر راجي إلى سعاد.

- إيه الأخبار بابا وماما عاملين إيه؟

- كله تمام كل اللي حضرتك طلبته بيتنفذ.

مفيش خروج من الدار مفيش أي مكالمات بتتحولهم.

كل طلباتهم مجابة شايلاهم في عينيا.

- قولتيلي عايزة فلوس؟

- آه الدار عندنا مفيهاش بطاطين كفاية والجو زي ما انت شايف فيه موجة برد والأستاذ جلال طلب بطانيتين وكمان طلب دفاية في أوضتهم.

obeikan.com

غمغم في ضيق.

- أنا مش فاهم أمال أنا حجزتلهم في المميز ليه لما كل الحاجات دي ناقصة؟

أخذت ملعقة من الآيس كريم ووضعتها في فمها بتلذذ ثم قالت في هدوء.

- دي إمكانيات الدار وبعدين جلال بيه هو اللي طلب الحاجات دي.

رمقها في ازدراء.

- مش مهم الدفاية وكفاية بطانية واحدة.

- اللي أنت شايفه.

مطّ راجي شفتيه في عصبية واشمئزاز.

- وبعدين أنا مش هدفع أي مصاريف تاني زيادة خليكي فاهمة ده وخليهم يتأقلموا على كده

بدا عليها الارتباك من نبرته الحادة.

- اعتبرهم اتأقلموا يا أستاذ راجي.

- عايزة كام؟

- حضرتك اديني ألف جنيه أجيب منهم البطانية وأهو يفضل معايا مبلغ احتياطي لو جدت حاجة عشان مشغلكش كل شوية.

رمقها راجي بنظرة احتقار وعدم اقتناع وفتح شنطة صغيرة كانت في يده وأخرج منها المبلغ وألقاه أمامها فالتقطته بسرعة ثم غمغم في عصبية.

- حاجه تاني؟؟

- هشرب زبادي الخلاط وهتكل على الله.

أطلت من عينيه نظرة غاضبة.

- معلش بس عشان جايلي ناس ابقي اشربيه في أي حتة تانية.

دست النقود في حقيبتها وأزاحت أخر رشفة من العصير في فمها وتمتمت.

- حاضر إنت تؤمر.

نهضت متجهة إلى الباب في لحظة دخول سبيل التي ارتدت بالطو أسود ولمّت شعرها وبدت شاحبة إلا أنها لازالت تحتفظ بجاذبيتها وجمالها.

تفحصتها سعاد من رأسها إلى قدميها تجاوزتها سبيل دون أن تنظر إليها.

ارتمت سبيل على الكنبة وأخذت جلستها المفضلة ونظرت إلى راجي في اهتمام.

- كانت عايزه إيه؟

- فلوس زي ما قولتلك.

باستنكار.

- عايزة فلوس لإيه؟

- طلبات زيادة لبابا بطاطين ودفاية ومبلغ لزوم الخدمات التانية اللي بتعملهالنا.

في جدية.

- حبيبي عايزين نمسك نفسنا شوية ورانا مصاريف كتير؟

- أنا هبيع العربية مفيش حل تاني.

- مش مهم يا حبيبي إنت كده كده عربية الشغل بتوديك وتجيبك وكلها سنة ولا حاجة وهتجيب أحسن منها من المشروع بتاعنا.

في ابتسامة.

- أنا متفائل بيكي يا روح قلبي.

obeikan.com

ظهر ياسين أمامهم حاملاً زبادي الخلاط فارتبكت سبيل قليلاً ولم تنظر إليه وأشاحت بوجهها بعيدًا تبحث عن علبة السجائر في حقيبتها محاولة إخفاء توترها.

نظر لها راجي في سخرية وهو يشير إلى ياسين.

- جربي زبادي الخلاط ده هايل؟

- زبادي إيه وخلاط إيه؟

كان ياسين واقفًا ينظر إليها وعيونه تلتهب شوقًا لا يكاد يشعر بالدنيا من حوله.

وقف راجي ناظرًا إلى سبيل.

- خلاص متزعليش هشربه أنا بس اختاريلنا حاجة ناكلها على ذوقك على ما أدخل الحمام.

أمسكت سبيل المنيو ورفعته أمام وجهها.

انتظر ياسين حتى اختفى راجي ثم نظر إليها.

- أخبارك إيه؟

استمرت تنظر في المنيو كأنها لم تسمع شيئًا.

- انتي مش بتردي عليا ليه؟

obeikan.com

أشاحت بوجهها بعيدًا ولم تجب كانت تريد أن تمنع أي حوار آخر بينهما.

في صوت متهدج.

- بلاش تردي بس أنا كنت عايز أقولك على حاجة لمصلحتك؟

بلاش تروحي عند مازن تاني.

انتفضت في غضب وجحظت عينيها وقطبت جبينها.

- إنت كنت بتراقبني؟

- أبدًا والله الموضوع إني خايف عليكي.

في لهجة استفزاز.

- بصفتك إيه؟

- ما أنا قولتلك واحد بيخاف عليكي.

ازداد توترها وبدا عليها الضيق.

- اسمعني كويس أنا مبحبش الأسلوب ده خايف عليكي ومتروحيش مش عارف فين والكلام السخيف ده؟

نظر خلفه يتأكد من عدم حضور راجي وبصوت خافت.

obeikan.com

- مازن ده حرامي وبيتاجر في الحاجات المسروقة والشقة اللي قاعد فيها عاملها مخزن للحاجات دي والمكان ريحته فاحت وممكن تكون وصلت للمباحث.

وقعت عليها الكلمات كالصاعقة ودارت الأرض من حولها، زاغت عيناها وقفزت إلى ذهنها أشياء كثيرة كانت تقف عندها، الأشخاص الغريبة التي كانت تراهم عند مازن، الأجهزة الكثيرة الموجودة في الشقة ومن مختلف الأنواع.

قطع ياسين شرودها.

- أنا متأكد إنك متعرفيش حاجة عن الموضوع ده.

التفت وراءه ناحية ممر الحمامات مرة أخرى مترقبًا حضور راجي.

- أنا مش عايزك تخافي أنا جنبك وخلينا نكمل كلامنا في التليفون بس ابقي ردي عليا.

تركها وانصرف.

أحسّت سبيل بالخوف وعدم الأمان.

حضر راجي واتخذ مكانه فتظاهرت سبيل أنها كانت تقلب في المنيو.

- طلبتيلنا إيه؟؟

obeikan.com

في شرود.

- مليش نفس لحاجة معينة شوف إنت.

أمسك راجي المنيو وأخذ يتصفحه.

كان الفضول والخوف يقتلها تريد أن تطير إلى شقة مازن لتواجهه لكنها سريعًا ما تراجعت عن فكرة المواجهة.

-لازم أفكر كويس الأيام اللي جاية-

قالت سبيل ذلك لنفسها وهي تجلس شاردة تنظر إلى الظلام خارج المطعم.

●●●

التصق ظهرها إلى السور وقد أحاط بها الظلام، شعرت ببقايا عظام تحت أقدامها، أخذت الكلاب تقترب وقد بدت أنيابها وسالت الدماء من أشداقها وفجأة قفز أحدهم عليها.

صرخت زهيرة صرخة شقت سكون الليل ففزع جلال بجوارها وانتفض من تحت الغطاء فوجد زهيرة تنتفض وتتصبب عرقًا رغم برودة الجو وقد جلست على السرير لاهثة الأنفاس زائغة البصر.

احتضنها جلال في إشفاق محاولاً تهدئتها.

obeikan.com

أخـذ جـلال يتلـو آيـة الكرسـي والمعوذتـين وهـو يمسـح علـى رأسـها.

أخـذت أنفاسـها تهـدأ رويـدًا رويـدًا وتـدرك أنهـا كانـت تحلـم بذلـك الكابـوس الـذي يـزداد رعبًـا كل يـوم عـن الآخـر.

- نفس الكابوس؟

سألها جلال في حزن.

- الكابوس بيزيد كنت بمووت.

أدرك جـلال أنـه لا مجـال للمكـوث في الـدار أكثـر مـن ذلـك فزهيـرة تسـوء حالتهـا يومًـا بعـد يـوم، لمحـت زهيـرة نظـرة الانكسـار واضحـة في عيـون جـلال لأول مـرة منـذ قدومهـم إلـى الـدار فقـد كان جـلال دائمًـا ينجـح في إخفـاء مـا يـدور في عقلـه وإن بـدا شـيء فيكـون مقـدارًا ضئيـلاً ممـا يعانيـه في داخلـه لكـن الحمـل نـاء بـه هـذه المـرة.

كانـت زهيـرة هـي الأخـرى تخفـي لوعـة وانكسـارًا داخلهـا فقـد كانـت سـببًا مباشـرًا فيمـا آلـت إليـه الأمـور، كانـت تحـب جـلال فهـو لهـا الأب والأم والـزوج والحبيـب تـرى الدنيـا بعينيـه لا تعـرف شـيئًا في هـذا العالـم إلا مـن خلالـه، ظلـت العلاقـة بينهمـا هكـذا حتـى وضعـت راجـي، تحـول كل اهتمامهـا إليـه فقـد جـاء بعـد عنـاء عشـر سـنوات.

obeikan.com

كان راجي إثبات الكمال لها، كان من أعاد لها ثقتها في نفسها، من انتشلها من نظرات الإشفاق التي كانت تراها في كل العيون، كان هو من منحها قبلة الحياة بعد أن كانت متقوقعة على نفسها لا تريد أن تظهر في أي مناسبة حتى لا ترى تلك النظرة القاتلة التي كانت تراها في عيون بنات عماتها وجيرانها وهم يبعدون أطفالهم عنها خوفًا عليهم من أن تحسدهم، كانت تشعر بطعنة مسمومة تدمي قلبها، إحساس بالعزلة والخوف لا يضاهيه إحساس في الدنيا.

كانت تتحاشى أن تداعب أي طفل مع أمه خوفًا من تلك النظرة، حتى لو كانت تفرح من قلبها لمجرد رؤية طفل صغير يبتسم، كانت تتمنى من قلبها أن يحفظ اللّٰه هذه النعمة الجميلة البريئة ويرزقها هي الأخرى... لكنها آثرت الابتعاد.

سمعت ذات مرة من إحدى قريباتها بعد أن سلمت عليها وتحاشت أن تنظر إلى مولودها الجديد على كتفها خوفًا من أن تداريه عنها أو أن تسمع تلك الدعوة بأن يرزقها اللّٰه مثله مصحوبة بنظرة الإشفاق القاتلة، سمعتها تقول بعد أن أعطتها زهيرة ظهرها.

- شوف الحقد اللي في قلبها دي حتى ولا بصت للواد ولا قالتلي مبروك ولا أي حاجة.

obeikan.com

سمعت زهيرة هذا الكلام فانهمرت دموعها وانزوت في أحد الأركان حتى غادرا هي وجلال الذي دائمًا ما كان يخفف عنها.

كان المجتمع قاسيًا كعادته لا يرحم مُبتلى، فإما أن يقتله برميه بصفات الحسد والغل وإما أن يتركه يموت هاربًا منعزلاً عنه كأنه أجرب.

ثم جاء راجي فإذا كل ذلك والعدم سواء، كانت تراه الملاك الذي منح الحياة إلى قلبها فأنساها كل شيء حتى جلال الذي انزوى في ركن صغير من قلبها مفسحًا المجال لهذا الزائر الغالي.

تربع راجي على قلبيهما فدارت الدنيا كلها في فلكه، كل أخطاء التربية ارتكبتها زهيرة كانت لا تسمع لملاحظات جلال، يَئِسَ جلال من إصلاح الأمر فألقى بنفسه في عمله واستعاد هوايته القديمة القراءة.

وها هي ترى نتيجة ذلك فلا تملك إلا أن تكتم الحسرة واللوعة في قلبها، تشفق على جلال الذي لم ترَ منه إلا كل احتواء مهما كانت الظروف.

كان حبيبًا رقيقًا يحيطها بحبه ودفء قلبه ثم مساندًا لها في رحلة البحث عن أول طفل ثم زوجًا يقوم بواجباته ولا ينتظر شيئًا ثم مواسيًا بعد أن ألقاها هنا من حرمت نفسها من كل شيء لأجله.

●●●

obeikan.com

تعالى ضجيج السيارات في الصباح خارج الدار بسبب تلك الشبورة الكثيفة التي جسمت على المباني فأخفتها، أبطأت حركة السيارات خشية التصادم ولمعت أنوار مصابيح الانتظار.

كان حشمت يقف خلف الباب الحديدي يراقب ذلك الزحام لا يكاد يرى أبعد من مكانه بمترين، التفت حشمت وراءه فلمح تلك العيون الدقيقة الزائغة عيون زينب تقف من بعيد لا يظهر منها غير وجهها الأسمر النحيف وهي تراقبه في فضول وريبة، تجاهلها متظاهرًا ببعض أموره فوجدها تحوم حوله جيئة وذهابًا وعلى وجهها نفس نظرة الفضول والريبة.

اقترب منها حشمت فتراجعت إلى الخلف مذعورة وواصلت النظر إليه.

صاح بها حشمت في غضب.

- مالك عاملة زي البومة اللي راقمة فار عمالة تحومي بوشك العكر؟

لم ترد عليه زينب وواصلت نفس النظرة فتركها حشمت وتمتم.

- والله لو أطول رقبتك لأقصفها كيف الحطبة الناشفة.

لم يكد يكمل جملته حتى دفعت سعاد الباب الحديدي بقدمها متجهة ناحية حشمت.

- صباح الخير.

- صباح النور.

لمحت سعاد جسد زينب يقفز وتشير لها من بعيد فتركت حشمت وذهبت إليها.

تابعها حشمت في دهشة وضرب كفًا بكف مغمغمًا في حنق.

- والله ما عارف مالها المخلولة دي جاكي ماوى يسحبك من رقبتك.

اقتربت سعاد من زينب.

- مالك يا بت؟

في خوف وفزع وعينيها تدور حولها.

- متقفيش عنده ولا تكلميه.

- ليه إيه اللي حصل؟؟؟

- دي كانت ليلة سواد يا ست سعاد.

obeikan.com

أمسكتها سعاد من ذراعها وسحبتها معها.

- تعالي احكيلي في المكتب.

●●●

لم يستطع جلال النوم مرة أخرى بعد فزع زهيرة من الكابوس فقد نامت ثانية بصعوبة، جلس مهمومًا تملأ رأسه الأفكار وقد احتقنت عيناه وتناثر شعره الأشيب وعلت وجهه كآبة غيرت ملامحه.

ظل هكذا حتى أخذت تتعالى أصوات السيارات والمارة خارج الدار، وقف واقترب من نافذته المطلة على بوابة الدار فظهر دخان الشبورة من خلف زجاج النافذة كثيفًا يحجب كل شيء.

أخذ ينظر إلى البوابة الحديدية التي تفصله عن العالم الحي.

لقد عاش بين الأموات مبكرًا....

●●●

جلست سعاد على مكتبها وجلست أمامها زينب.

- احكيلي بالراحة وبالتفصيل؟

تقمصت زينب دور ممثل المسرح.

- أنا قعدت مراقبة بوابة المبنى المميز إن حد يطلع مفيش.

ببص ناحية البوابة ألاقي جلال واقف وواقف قدامه حشمت خرج إزاي ووصل هناك إزاي مش عارفة.

- أكيد كنتي نايمة وانتي واقفة؟

- أبدًا والله.

اقتربت زينب أكثر إلى وجه سعاد المتلهف لسماع ما حدث.

- ولعوا نار وقعدوا يشاوروا للنار بإيديهم فا النار تعلى وتوهوج.

كانت سعاد تستمع في فضول وإصغاء وأضافت تعابير وجه زينب وهي تقص مصداقية على كلامها، تابعت زينب في حماس.

- لحد ما النار هديت فقعدوا يهمهموا بكلام مش مفهوم ويميلوا كأنهم سحرة وكان جلال يقول وحشمت يرد عليه.

فقربت منهم أكتر وأنا هموت من الرعب يمكن أسمع أي كلام برضه مفهمتش حاجة ولقيت عينيهم حمرا زي الجمر ووشوشهم سودا.

انتابت سعاد قشعريرة في جسدها وجحظت عيناها واسترجعت صورة جلال وهو ينظر إليها بعينيه الباردتين وابتسامته الخبيثة.

- إوعـي يـا بـت يكـون بيتهيألـك أنـا مـش ناقصـة بلـوة زي دي تبقـى عنـدي في الـدار؟

- إنشاللّه أعدمك يا ست سعاد ده اللي شفته.

أنـا مـش مستريحة للراجل اللـي اسـمه جـلال ده مـن سـاعة مـا جـه.

بعصبية أشارت لها سعاد بيدها لتكمل.

- وبعدين إيه اللي حصل؟

- هـو أنـا لسـه هسـتنى بعديـن أنـا فلسـعت طبعًـا قبـل مـا يسـخطوني.

- يسخطوا فيكي إيه تاني يا بعيدة ما انتي مسخوطة خلقة.

تابعت زينب في صوت خافت.

- عارفـة يـا سـت سـعاد شـكله كـده وعينيـه اللـي بطـق شـرار وشـعره المنكـوش؟

بتـرت كلامهـا فجـأة فقـد رأت سـعاد قـد تجمـدت ملامحهـا وجحظـت عينيهـا وهـي تنظـر إلـى شـيء أمامهـا.

التفتـت زينـب لتـرى مـا الـذي تنظـر إليـه سـعاد فـإذا بـه جـلال يقـف بثبـات وقـد بـدت عينـاه كمـا كانـت تصـف زينـب حمـراء محتقنـة

ووجهه ذابل من قلة نوم ليلة أمس وشعره في هيئته التي استيقظ عليها.

فزعت زينب وسقطت من على الكرسي الذي كانت تجلس عليه وزحفت على ركبتيها ناحية سعاد محتمية بها.

بصوت هادئ نطق جلال.

- ممكن أقعد معاكي شوية يا مدام سعاد؟

تلعثمت سعاد في خوف.

- أكيد طبعًا اتفضل.

نظرت إلى زينب القابعة بجوارها على الأرض.

- قومي اطلعي بره شوية وراكي إيه؟

نهضت زينب في خوف مبتعدة عن جلال قدر الإمكان وقد ثبتت نظرها عليه حتى خرجت من الباب.

جلس جلال أمام سعاد وقد بدا عليها التوتر والخوف كانت هيئته غريبة ومخيفة.

- كنت عايز أخرج النهاردة أروح أجيب شوية حاجات من شقتي وهاجي على طول.

obeikan.com

فركت سعاد يدها وأطرقت قليلاً ولازال الخوف مسيطرًا عليها.

- أنا آسفة ممنوع.

- ممنوع ليه؟

- لازم الخروج بمصاحبة ولي الأمر خاصة إن ابن حضرتك منبه على عدم خروجك.

نفض جلال رأسه في دهشة وعدم تصديق.

- ابني منبه على عدم خروجي انتي متأكدة؟

أخرجت سعاد دوسيهًا من بين دوسيهات كثيرة في درج جانبي وفتحته وأخرجت منه ورقة مكتوبة بخط اليد ودفعتها إليه في ارتباك.

- ده خط الأستاذ راجي صح؟

بص حضرتك كاتب إيه؟

- معلش ممكن تقريلي عشان نسيت النضارة؟

قربت الورقة إلى وجهها وقرأت في صوت مرتعش.

- السادة دار الصفا للمسنين الرجاء عدم السماح للنزيل جلال حلمي بمغادرة الدار إلا بإذن كتابي مني شخصيًا.

obeikan.com

الرجاء عدم السماح له بتلقي أي مكالمات من خارج الدار.

شعر جلال بغثيان ودوار فأشار لها بالتوقف عن القراءة، حاول الوقوف فشعر أن قدميه لا تحملاه فارتمى على الكرسي مرة أخرى وبصوت واهن ضعيف.

- ممكن حد يساعدني أرجع أوضتي؟

نادت سعاد على ألفت فحضرت.

- مع الأستاذ جلال وصليه لأوضته.

نهض جلال مستندًا على ألفت بينما وقفت زينب في الخارج تراقب الموقف.

رأت سعاد لأول مرة في عيني جلال تلك النظرة التي تراها في عيون كل النزلاء.

نظرة الانكسار.

نظرة الغريب الذي ينتظر الرحيل.

●●●

استيقظ بورده كعادته في الثامنة صباحًا في شقة مازن، كان يبدأ عمله بتنظيف حجرة الليفينج من بقايا أعقاب السجائر وبقايا الأكل من الليلة السابقة ثم يدخل الحجرة الثانية التي بها مكتب مازن.

obeikan.com

كانـت الغرفـة مكونـة مـن مكتـب كبيـر بعـرض الحائـط يجلـس عليـه مـازن يسـتقبل زبائنـه وبجانـب المكتـب ترابيـزة دائريـة مـن الخشـب وضـع عليهـا قـرص دائـري مـن الزجـاج ومصبـاح مكتـب وبعـض أدوات إصـلاح الإلكترونيـات.

كانـت حصيلـة أمـس مـن الأجهـزة عـدد ثلاثـة لاب تـوب وعـدد اثنـان هاتـف محمـول وواحـد تابلـت، بـدأ بـورده يمسـك قطعـة قطعـة لتنظيفهـا عندمـا رن جـرس البـاب، نظـر بـورده إلـى السـاعة كانـت تشـير إلـى الحاديـة عشـر بـدا علـى وجهـه التعجـب فليـس هـذا توقيـت حضـور أي مـن زوار الشـقة.

تسـلل ناحيـة البـاب ووضـع عينـه علـى العـين السـحرية ليجـد سـبيل واقفـة في توتـر.

فتح الباب بسرعة.

- أهـلاً يا أبله سبيل.

دخلت سبيل دون أن تنطق بكلمة فأغلق بورده الباب وتبعها.

- الأستاذ مش هنا.

- ما أنا عارفه أنا عايزاك أنت.

بدا عليه الحيرة.

obeikan.com

- أؤمري يا أبله.

اقتربت منه ووضعت يدها على كتفه.

- انت عارف إني بعتبرك أخويا الصغير صح؟

- صح وأنا بعتبرك أختي.

- حلو أوي احكيلي بالظبط إيه اللي بيحصل هنا؟

- مش فاهم حاجة.

- الحاجات المسروقة والمخزن اللي هنا.

ابتلع بورده ريقه وفغر فاه وتعالت أنفاسه.

- أرجوكي يا أبله أنا مش عايز أقع في مشكلة مع الريس مش هيرحمني.

- أنا مش هجيبله سيرة إني عرفت حاجة بس انت لسه قايل إني أختك.

ترضى لأختك تتبهدل!!!

أطرق بورده إلى الأرض برهة.

- تعالي معايا.

obeikan.com

دخل بورده إلى حجرة الصيانة وأزاح الترابيزة الدائرية وأزاح ستارة سوداء خلف الترابيزة ليظهر باب سحري في الحائط، ضغط بورده عليه من جانبه فانفتح الباب ليكشف عن ممر طويل اصطفت على جوانبه أشكال وألوان من أجهزة الكمبيوتر وضعت بإحكام على أرفف معدنية وفي أخر الممر دولاب زجاجي كبير وضعت به مختلف أنواع أجهزة الموبايل.

نظر بورده إلى سبيل.

- ده المخزن وكل اللي هنا مسروق بييجي بالليل وأنا بخزنه الصبح ويطلع يتباع حسب الطلب.

شعرت سبيل بالتوتر وظهر على وجهها الغضب.

- من إمتى ده بيحصل؟

- أنا جيت على الشغل ده معرفش كان من إمتى حضرتك نسيتي إن أنا جيت وكنت بشوفك هنا يا أبله؟

شردت سبيل وازداد التوتر على ملامحها فشعر بورده بالخوف من رد فعلها.

- بس انتي هتعملي إيه؟

قالت مطمئنة له.

- بص اعتبر إني مجيتش النهاردة ولا انتي قولتلي حاجة.

خرجت سبيل من الغرفة واتجهت ناحية باب الشقة يتبعها بورده، التفتت إلى بورده.

- هو مازن فين دلوقتي؟

- دي بقى معرفهاش.

خرجت من الباب ودون أن تلتفت.

- سلام يا بورده.

في خوف وندم من كشف السر.

- سلام يا أبله.

خرجت سبيل إلى الشارع يكاد الغضب يمزق صدرها كيف كانت بهذه السذاجة حتى لا تنتبه إلى حقيقة مازن، كانت تعرف أنه يستغلها لكن إلى تلك الدرجة لم تتخيل.

- أنا مش مصدقة إني كنت بصرف بضاعة مسروقة.

انتي طول الوقت عارفة إن فيه حاجة غلط بس بتضحكي على نفسك.

هعرف منين إنها حاجات مسروقة!!!!

obeikan.com

انتي وقفتي عند دي بس عشان حسيتي إن الخطر قرب منك وإن البوليس ممكن يكون مراقب المكان وتتورطي معاه بس فكري شوية في كل اللي فات كان صح!

كان صح لما رسمتي على راجي واستغليتيه!

هو كمان بيمثل إنه بيحبني عشان يوصلّي زي ما بيعمل مع كل بنت بيشوفها ياخد اللي عايزه منها وبعدين يشوف غيرها حلال فيه أي حاجة.

وحلال إنك تخليه يرمي أبوه وأمه في دار المسنين؟

مش أنا اللي خليته هو كان عايز يخلص منهم وأنا شوفتله الحل.

يعني مشتركة معاه؟

الغلط دايرة مبتنتهيش ولازم تلف عليكي ويمكن ربنا بيحبك فبيبعتلك رسايل عشان متقعيش؟

ويمكن ده عشان أمك العيانة اللي بتجري على علاجها؟

شردت سبيل وتذكرت أمها وكيف سيكون مصيرها لو تورطت ووصل الأمر للسجن؟

أفاقت سبيل من شرودها على يد تلمس كتفها وصوت من خلفها.

obeikan.com

- اتأكدتي؟؟؟

فزعت واستدارت بسرعة فإذا ياسين يقف وقد علت وجهه ابتسامة هادئة مطت شفتيها.

- مش بقولك إنك بتراقبني؟

- أبدًا والله أنا خايف عليكي بس.

التفت حوله ونظر إليها.

- ممكن نكمل كلام في حتة نعرف ناخد وندي مع بعض؟

رفعت سبابتها أمامه.

- إوعى تقولي المطعم؟

- أنا مش قد قعدة المطعم أنا هعزمك في مكان تانى هيعجبك.

●●●

سار جلال بخطوات ثقيلة منكسرة يتكئ على يد ألفت لا يرى أمامه لا يسمع حوله ضاع الطريق من قدميه.

رفع رأسه إلى السماء وتمتم.

- يا الله يا أملي في الحياة، يا ملك الحياة أشكو حزني وبثي إليك، ينطق قلبي ولا ينطق لساني تضيئ بصيرتي ويظلم بصري.

obeikan.com

أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تُنزل بي غضبك أو يَحِلَّ عليَّ سخطُك لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك.

انقطع الأمل والرجاء إلا منك، فلا ولد يشتد به ظهري ولا مال تفيض به يدي ولا قوة تحملني.

توقف جلال فتوقفت بجواره ألفت التي كانت تنظر إليه في شفقة.

شخص جلال ببصره إلى السماء وتحركت شفتاه دون صوت.

- دبر لي أمري فإنى لا أحسن التدبير.

اكفهرت السماء وتكاثفت السحب الرمادية فوق بعض وومض البرق فشق السحب وأرعدت السماء وبدأت حبات المطر تتساقط.

جذبت ألفت يد جلال فأفاق من شروده.

- الدنيا هتشتي يا أستاذ فاضل كام خطوة شد حيلك.

بلغا باب المبنى المميز ودلفا إليه حتى تواريا وانهمر المطر على الأرض يغسل ذنوب البشر.

●●●

بلل المطر وجهي سبيل وياسين فأسرعا الخطى في آخر شارع فيصل حتى توقفا أمام أحد الكافيهات فدخلا بسرعة ينفضون الماء من على وجوههم.

تقدم منهم أحد الشباب مبتسمًا.

- أهلاً يا أفنديه.

ابتسم ياسين وحياه بإشارة من يده تشبه التحية العسكرية.

- هنقعد فين؟؟

- حظك حلو مكانك كان مشغول من دقيقتين بس.

ابتسم ياسين ونظر إلى سبيل.

- حظك حلو هتقعدي في أحلى ترابيزة في الكافيه.

دخل ياسين وسبيل تجاوزا برفان خشبي على اليمين حيث انتشرت ترابيزات صغيرة مربعة وضع على كل منها كرسيان خشبيان.

في آخر القاعة كانت إحدى تلك الترابيزات تلتصق بالزجاج المطل على الشارع.

أجلس ياسين سبيل على أحد الكراسي وجلس هو على الآخر، أزاحت سبيل خصلة مبللة من شعرها الأسود من على خديها الحمراوين وهمست إلى ياسين.

obeikan.com

- إيه المكان ده؟

مال بظهره إلى الوراء وجال ببصره في أنحاء الكافيه قبل أن يجيب.

- دي يا ستي قهوة الأفنديه كل اللي بيشتغلوا هنا يا إما طلبة يا إما كانوا طلبة واسمها الأفنديه عشان زمان كان الطلبة والموظفين ليهم احترامهم كانوا بيسموهم الأفنديه وكانت الدنيا جميلة وكل واحد في حاله مفيش تحرش ولا معاكسة ولا كلام جارح كانت البنات والستات بيلبسوا اللي عايزينه ويمشوا في الشوارع محدش يعاكسهم.

لمعت عينا سبيل وابتسمت.

- طيب والزباين؟

- هما غالبًا كلهم طلبة بس ممكن أي حد يدخل يقعد طالما هيراعي روح المكان.

أشارت بيدها تجاه الترابيزات.

- وليه الكراسي اتنين اتنين؟

- عشان ده قسم الكابلز.

openkan.com

الناحية التانية تلاقي ترابيزات أكبر وكراسي أكتر للجروبات والصحاب.

- عاجبني المكان أوي.

- هنا كل واحد في حاله كلنا بنحترم بعض.

كل واحد من حقه يقعد في المكان اللي بيحبه طالما فاضي مفيش هنا حاجة اسمها محجوز.

نظرت إلى قطرات المطر المتساقطة خارج المقهى.

- ده المكان اللي بتحبه؟

نظر هو الآخر للخارج متابعًا بنظره أحد الأطفال الذي أمسك بيد أمه وهي تهرول مختبئة من المطر.

- بحب أقعد جنب الشباك أتفرج على وشوش الناس في الشارع.

- إنت عارف إني أنا كمان كده.

- أنا متأكد إن فيه حاجات كتير بينا شبه بعض.

هربت بعينيها منه ناحية الشارع الذي بللته الأمطار فبدا لامعًا كعينيه وهو ينظر إليها.

obeikan.com

أراد ياسين أن يقطع الصمت.

- إيه مالك سكتي كده؟

- الحمد لله إن ربنا بعتك ليا في الوقت المناسب.

- ربنا أكيد ليه حكمة إننا نتقابل وأكيد بعتني ليكي عشان انتي من جواكي طيبة.

فركت ظهر يدها بباطن الأخرى وهمست في تأثر.

- أنا حاسة إن فيه حاجات كتير عايزة أعيد نظر فيها.

بعينين ثابتتين.

- لازم تقعدي مع نفسك وتعيدي حساباتك في هدوء.

أغمضت عينيها كأنما تتخيل شيئًا.

- ما تتخيلش أمي كان ممكن يحصلها إيه لو رجلي جات في الموضوع ده؟

- أكيد دي دعوة مامتك ليكي.

- هي فعلاً دايمًا بتدعيلى إن ربنا يبعد عني ولاد الحرام بس واضح إن الدعوة عطلت عند مازن ومبعدش.

obeikan.com

سكتت قليلاً ثم أردفت.

- مش عارفة ها أعمل إيه معاه؟

- مازن أمره سهل سيبي موضوعه عليا بس أنا مش هقدر أساعدك من غير ما تحكيلي.

أطرقت إلى الأرض في تردد فأشار لها بيده ألا تتحدث وقال في ود.

- أنا مش عايز أعرف حاجة زيادة أنا عايز أعرف شوية معلومات عن مازن ولو فيه حاجة تربطك بيه عشان لو عملت أي تصرف ميضركيش معاه؟

- الحمد لله مفيش حاجة تربطني بيه.

- تمام سيبي موضوعه عليا.

نظرت إليه في طمأنينة.

- على فكرة أنا مش خايفة أحكيلك بس مش عايزة أحكي دلوقتي.

لم يكن ياسين يحمل أي فضول ناحية علاقة مازن بسبيل لكن الفضول كان يقتله ناحية حقيقة قصتها مع راجي فسألها بعد أن عجز عن السكوت.

obeikan.com

- وراجي؟

- موضوع راجي أنا هعرف أتعامل معاه بطريقتي.

لم تشبع إجابتها فضوله.

- براحتك بس لو احتاجتي حاجة أنا موجود؟

وضعت يمناها تحت ذقنها وأشاحت بوجهها مرة أخرى ناحية الشارع.

فشعر ياسين بالضيق والارتباك الذي تشعر به.

- خلاص كفاية كلام في الموضوع ده.

- تشربي إيه؟

بدا عليها الارتياح.

- شربني حاجة على ذوقك؟

فيه ميكس جنزبيل مع قرفة يولعونا في عز البرد ده.

ضحكت فأضاء وجهها وفركت يديها من البرد وهتفت.

- أرجوك بسرعة.

●●●

كالعادة رن جرس الهاتف الأرضي في مكتب سعاد، التقطت السماعة.

obeikan.com

- ألوو أيوا يا باشا.

- فيه عربية هتعدي عليكي من عند الحج حسين اركبي معاهم وخديهم على مخزن الدار نزلوا الحاجة.

وبعد ما تنزليهم خدي جهازين كمبيوتر من العشرة وديهم على الدار صوريهم وهما قاعدين على الكمبيوتر وبيستخدموا النت.

- ضروري يعني؟

- الحج حسين عايز يشوف الأجهزة والنزلاء بيستخدموها؟

- طيب والـ ٨ أجهزة الباقيين.

- مش قولتي تعرفي حد ياخدهم؟

- أعرف طبعًا.

- طيب إخلصي منهم بس المهم يكون أمان؟

أما البطاطين والسخانات زي المرة اللي فاتت.

- أوك يا باشا.

- سلام.

كان مدكور يخشى برامج التسجيل التي يسمع عنها على الموبايلات فكان يحرص دائمًا على الحديث على الهاتف الأرضي وكان نادرًا ما يتحدث مع سعاد على الموبايل.

توقفت سيارة ملاكي فضية اللون أمام الدار ثم توقفت سيارة نقل كبيرة خلفها كتب عليها معارض المهتدي، هرولت سعاد وخرجت من البوابة وركبت السيارة الملاكي التي كان يجلس فيها عصام ذلك الموظف الذي رافقهم في معرض الحاج حسين.

وقف حشمت بجوار الباب مراقبًا ما يجري حتى تحركت السيارتان بعد شارعين، أشارت سعاد للموظف بالدخول يمينًا حيث مجموعة من عمارات إسكان الشباب.

أمام إحدى هذه العمارات أشارت له بالتوقف.

نزلت سعاد ودخلت باب العمارة وأخرجت من حقيبتها مفتاحًا صغيرًا وتوقفت أمام شقة في الدور الأرضي ألصق على بابها ورقة بيضاء كتب عليها «دار صفا لرعاية المسنين».

أشارت للموظف بإنزال الأجهزة ووقفت هي في الخارج.

نزل الموظف وتقدم منها محاولاً بدء أي حديث معها بينما يقوم العمال بإفراغ الأجهزة.

بابتسامة وهو يتفحص صدرها المنتصب.

- بقالك كتير شغالة في الدار؟

لم ترقها نظراته الوقحة فأجابت باقتضاب.

- سنين طويلة مش فاكرة قد إيه؟

- بس انتي شكلك صغيرة إنك تمسكي مشرفة الدار؟

ازدادت علامات الضيق على وجه سعاد من سؤاله الذي ذكرها بما كانت عليه فقد كانت عاملة مثل باقي العاملات قبل أن تموت مدام شكرية مشرفة الدار، كانت سعاد تحوم حول مدكور بيه كلما حضر إلى الدار حتى استطاعت أن توقعه في شباكها أو يوقعها هو في شباكه قل ما شئت فالأشباه تجذب بعضها بعضًا ويتصور كل واحد أنه سيطر على الآخر بينما يكون كل واحد منهما يكمل للآخر ما ينقص عنده.

هي تريد رجلاً تحتمي به في مركز جيد معه من المال ما يمكِّنه من توفير متطلباتها.

وهو يريد جسدًا يداعبه بضع دقائق كل شهر أو أكثر وتنفذ كل ما يأمرها به ولا بأس بجعلها مشرفة على الدار.

نظرت إلى الموظف في امتعاض.

- يعني أنفع يعني ولا قصدك إيه؟

- طبعًا تنفعي.

Obeikan.com

أصل أنا بروح دور مسنين كتير أودي أجهزة كلهم بيبقوا عواجيز ومهكعين لكن حضرتك ما شاء الله قمر.

قالها وهو يخترقها بنظراته.

- ضحكت ضحكة مصطنعة فقد كانت لا تريد أن تتحدث كثيرًا حتى لا يتمادى في الأسئلة.

أنهى العمال إنزال الأجهزة فأخرج الموظف ورقة من دوسيه يمسكه في يده ومدها إليها.

- ده بيان بكل الأجهزة حضرتك امضيلي بالاستلام.

تناولت سعاد منه البيان وراجعته ووقعت عليه ومدت يدها به إليه فأشار على الورقة مكان الختم.

- عايز ختم الدار كمان؟

أخرجت سعاد الختم من حقيبتها فقد كانت معتادة أن تحمله في حقيبتها في مثل هذه الظروف وختمت له الورقة وناولتها له.

بابتسامة ملأت وجهه.

- تؤمري بحاجة تانية يا ست الكل؟

بادلته ابتسامة لكنها كانت باهتة.

- متشكرة أوي.

opeilkan.com

غادروا جميعًا وانتظرت سعاد حتى تواروا ثم دخلت الشقة وأغلقت الباب وهي تنظر إلى الأجهزة في سعادة بالغة.

أخرجت هاتفها المحمول وطلبت رقم.

- ألوو مساء الخير.

- مساء النور.

أنا سعاد من طرف فاتن صاحبة محل الموبايلات اللي في السنتر.

- أؤمري حضرتك.

- أنا معايا ٨ أجهزة كمبيوتر جداد بكراتينهم عايزة أبيعهم.

- تحت أمرك مفيش مشكلة.

- هتاخد الواحد بكام؟

- مش هقدر أقول بشكل محدد حسب إمكانيات الجهاز خليني أشوفهم الأول؟

- ممكن تعدي عليا إمتى؟

- بعد الساعة ٨.

- كتير ممكن تخليها ٦ عشان الدنيا بتليل بدري ومش عايزة أتأخر؟

obeikan.com

- خلاص أوك إدّيني العنوان؟

أعطته سعاد العنوان وخرجت من الشقة، أوقفت أحد التاكسيات وجعلت السائق ينزل جهازين من أجهزة الكمبيوتر ويضعهم في التاكسي ركبت سعاد بجوار السائق وأشارت له بالتحرك.

●●●

افترش جلال الأرض وقد فتح جميع الحقائب التي أحضروها معهم في تلك الليلة لعله يجد أحد أرقام أصدقائه القدامى فقد كان معزولاً عن العالم منذ دخوله إلى الدار.

ظل يبحث في صفحات بعض الكتب التي أحضرها، في جيوب قمصانه وبناطيله، في ذاكرته التي لم تسعفه في تذكر أي رقم.

فكر أن يبعث خطابًا إلى جاره الأستاذ مظهر لكنه تراجع عن الفكرة فمظهر يمكن أن يخبر راجي.

غمغم في يأس.

- وبعدين مين اللي هياخد الجواب مني ويبعته؟

حشمت؟؟؟؟

بس هيوافق؟؟ ولو هيوافق هيقول لسعاد ولا هيكتم السر؟

لسه مش واثق فيه مية في المية.

طيب مين؟؟

كانت رأسه مزدحمة وعيناه زائغتين، أصاب عقله شلل مؤقت فتوقف عن التفكير.

أخرج جلال ورقة بيضاء وقلمًا ونفض رأسه محاولاً عمل ريستارت بلغة الكمبيوتر، أخذ يسترجع ما قرأه عن التفكير المنظم.

وبدأ يتبع القواعد العلمية في التفكير، كتب بيد مرتعشة.

- أولاً تحديد المشكلة وهي إن أنا وزهيرة محبوسين في الدار.

بتر كلامه بغتة ونظر إليها ممددة على السرير، أصبحت تنام أوقاتًا طويلة كأنها تهرب إلى النوم.

تلك أولى مظاهر اليأس والاستسلام وإذا استسلم الجسد دب فيه الضعف ووهن واستأسدت الأمراض وهاجمت بخسة ونذالة هذا الجسد الضعيف.

عاد إلى ورقته فكتب.

- إيه هي طرق الحل؟؟؟

الخروج من الدار.

لفين؟

openkan.com

لمكان راجي ميقدرش يوصله وممكن نعيش فيه.

فين المكان ده؟؟

صمت لحظات وردد.

- فين المكان؟

كتب مرة أخرى.

- مين اللي هنتواصل معاه؟

استعرض داخل ذاكرته كل زملاء العمل والجيران كلهم في نفس ظروفه الصحية فضلاً عن أنهم يعرفون راجي ابنه.

انتبه إلى صوت في رأسه يطن طنين نحلة حُبسَت خلف زجاج شفاف.

- وأنت فاكر اللي انت فيه ده حاجة حلوة ينفع تتحكي؟؟؟؟

هيقولوا على ابنك إنه مش متربي وبالتبعية هتبقى انت اللي مربتش.

إنت يا جلال اللى مربتش.

غمغم بصوت منكسر.

- أنا فعلاً مربتش.

obeikan.com

فجأة برقت عينا جلال ولمعت وأمسك بالورقة وكتب.

- محمد بن عاشور الساعي.

ذلك الشاب الذي قام بمساعدة والده في تعيينه بالدبلوم قبل خروجه إلى المعاش بشهور.

- بس هوصله إزاي؟؟؟؟

هي دي المشكلة.

شعر بالتعب من التفكير فكل مشكلة تنقله إلى مشكلة أخرى كأنها متاهة ليس لها أخر فألقى الورقة والقلم من يده ودس رأسه بين قدميه في يأس.

●●●

وقف التاكسي أمام باب الدار، هبطت سعاد وصاحت على حشمت فهرول إليها.

- خد الكارتونتين دول نزلهم عندك وخلي بالك عليهم جواهم كمبيوترات.

رفع حشمت غطاء شنطة التاكسي التي كانت مفتوحة وأنزل جهازي الكمبيوتر، أنزلهم برفق داخل البوابة.

انصرف التاكسي ودخلت سعاد.

obeikan.com

- خليهم هنا هبعتلك البنات يدخلوهم.

لحظات وخرجت زينب تهرول إلى البوابة تتبعها ألفت حملت كل واحدة كرتونة فوق رأسها وتمايلوا متجهين إلى المبنى الكبير.

أمام البوابة كانت تقف سعاد طلبت من زينب وألفت وضع جهاز داخل مكتبها وآخر في قاعة الترفيه، دخلت كلاً من ألفت وزينب في استعراض كما لو كانتا تنقلان شوارهما، وضعا الأجهزة كلاً في مكانه.

نظرت سعاد في ساعتها كانت تقترب من الخامسة والنصف، أغلقت مكتبها وغادرت الدار على عجل.

كانت الشمس قد توارت مبكرًا في ذلك النهار الشتوي القصير وقد ملأت السماء سحب رمادية كثيفة تضرجت بحمرة خلفتها الشمس عندما توارت في الغروب.

على ناصية شارع محمد عبده بالحي الثامن بمدينة السادس من أكتوبر وقف شاب طويل القامة يرتدي فوق رأسه آيس كاب، يرتدي بالطو أسود طويل يلتفت حوله بين الحين والآخر وهو ينفث دخان سيجارته الذي اختلط ببخار كثيف يخرج من فمه.

اقتربت سعاد من خلفه في خطوات مترددة وبصوت مرتعش.

- الأستاذ مازن؟؟؟

التفت إليها في حركة سريعة.

- مدام سعاد؟؟

- أيوا اتفضل معايا.

مشت أمامه إلى مدخل العمارة التي بها مخزن الدار.

كان مازن يتأملها من فوقها إلى تحتها، دارت عيناه في المكان فرسم في ذهنه كروكي للموقع، صعدت أمامه سعاد بضع سلالم في مدخل العمارة فألقى بسيجارته على الأرض وصعد وراءها.

في حركة سريعة أزالت الورقة الملصقة على باب الشقة قبل أن يقرأها مازن، لمحها مازن فابتسم، تأخر خطوة حتى لا يشعرها بأنه رآها.

فتحت الباب وأضاءت نور الصالة حيث تمددت الأجهزة.

- دول الأجهزة.

انحنى مازن يفحص أحدهم.

قرأ البطاقة المدونة على الكرتونة التي توضح مواصفات الجهاز، أدرك بنظرة خبير أنها أجهزة جديدة كلها بنفس المواصفات مما يدل على أنها تخص جهة ما وليست ملكًا لأشخاص أظهرت

obeikan.com

له حركه إزالة الملصق من على الباب أن المكان يخص تلك الجهة وأنها موظفة بها.

كانت سعاد تتأمله في ارتياب وخوف وهو يفحص الأجهزة.

- إيه رأيك؟؟

وقف نافضًا يديه من بعض التراب الذي التصق بهما وقال بعينين ثابتتين.

- أجهزة جديدة.

- لسه بشوكها متفتحتش.

- واضح.

اقتربت فوقفت بجوار أحد الأجهزة.

- هتدفع كام في الجهاز؟

دون تردد.

- ٥٠٠ جنيه.

أصابها الرقم بصدمة فعقدت حاجبيها ورفعت جانب شفتيها في استنكار.

- ليه دول لو مسروقين ميتباعوش كده!

obeikan.com

ابتسم في مكر فقد كان من الخبراء في إدارة هذا التفاوض الذي يدور عادة بينه وبين سارق الشيء أو وسيطه، نظر مرة أخرى إلى الأجهزة فشعرت بالانتصار ظنت أنها استطاعت أن تجعله يعيد تقدير قيمتهم وأن تثبت له أنها ذات خبرة في الفصال.

نظر إليها بعينين جامدتين وباغتها.

- معاكي فواتير الأجهزة طبعًا؟؟

ارتبكت وفي تسرع ظاهر.

- إنت هتعمل إيه بالفواتير؟

- عشان لما أجي أبيعها ملاقيش حد يقولي دي مسروقة.

بدا عليها الارتباك ودون تفكير قالت.

- الفواتير ضاعت.

كان مازن يقف في هدوء وثبات جعلاها تزداد توترًا، حاولت محاولة أخيرة لكسب أي جولة في الحديث.

- وبعدين ده مش هيبقى آخر تعامل بينا فيه حاجات جاية كتير.

أجاب بتلقائية.

obeikan.com

- عشان كده أنا مديلك السعر ده.

- لازم ترفع السعر شوية.

- ممكن تسألي على الأجهزة بره؟

كان مازن يدير حوارًا مارسه وحفظ جمله وكلماته مئات المرات، يحفظ كل الردود وكل رد له عنده ألف إجابة.

بعد دقائق معدودة سألته في اقتناع وخوف معًا.

- هتشيل الأجهزة إمتى؟

أشعل سيجارة وأخذ نفسًا عميقًا ونفثه في الهواء فقد حسم الجولة لصالحه، رمقها بعينيه العميقتين.

- في الحالات اللي زي دي لازم المواضيع تخلص بسرعة؟

أخرج من جيبه رزمة كبيرة عد منها ألف جنيه سحبها وأعطاها الباقي.

- دول ٤ آلاف جنيه.

أخذتهم وبدأت تعدهم بينما أخرج هاتفه وطلب رقمًا ونطق باقتضاب.

- قرب قدام الباب.

obeikan.com

سمعت سعاد صوت سيارة تقترب من مدخل العمارة، انتهت من عد الفلوس فسألها.

- مظبوط؟؟

حاولت أن تثبت أن هزيمتها بمحض إرادتها حتى تكون شفيعًا لها في أي تعامل آخر في المستقبل.

- تمام بس إنت غلبتني وأنا عديتها المرة دي.

قال في ضعف مصطنع كأنه هو الذي تورط.

- ادعيلي أعرف أبيعهم.

خرج مازن إلى مدخل العمارة وأشار إلى شاب دخل سريعًا، دقائق وكان مازن داخل السيارة ومعه الأجهزة يشعل سيجارة وينظر إلى سعاد مشيرًا بيده مودعًا.

●●●

افترش الوزير أرض السجن وقد وضعت في يده الأغلال وأخذ يفكر كيف وصل إلى هذا الذل بعد العز، كيف خانه لسانه ونطق بهذه الكلمات أمام الملك ألم يكن الأجدر به السكوت، أخذ يصيح ويصيح وينادي على مولاه الملك أن يعفو عنه نقل الحراس صوته إلى الملك فزاره في السجن، فقال له الوزير. العفو يا

مولاي، رد الملك هل تعلمت من خطئك؟ أجاب الوزير. نعم، قال الملك. سأعفو عنك ولكن بشرط، رد الوزير. أقبله قبل أن تقوله، فقال الملك. إن في هذا السجن موضعًا في أحد الجدران يمكنك أن تخرج منه إذا وجدته حتى الصباح سأعفو عنك، خرج الملك من السجن وترك الوزير يبحث في كل أنملة من الجدران دون جدوى حتى أشرقت الشمس فدخل الملك فوجد الوزير ملقى على الأرض من عناء البحث طوال الليل، سأله الملك. هل وجدت باب الخروج؟ فرد الوزير. لا يوجد أي موضع للخروج يا مولاي. فأشار الملك إلى باب السجن وقال لقد تركت الباب مفتوحًا من ليلة أمس لكنك لم تره فأحيانًا يكون الحل أمامنا ومن شدة بساطته لا نراه.

كانت تلك القصة تداعب رأس جلال، تذكرها مما قرأ في كتب الأساطير لماذا لا يكون الحل أن أذهب إلى حشمت وأطلب منه أن يتركنا نخرج من هذا السجن عبر بابه هكذا بكل بساطة!!!

ترى هل تفلح الأساطير والحكايات أم أن من كتبوها أرادوا لنا التسلية فقط؟

غمغم بصوت يقطر يأسًا.

- أنا تعبت الحمل تقيل أوي.

عايز أفتح عيني ألاقيني بره المكان ده.

صرخ الصوت في رأسه.

- كده بكل بساطة تهرب؟

إزاي اليأس سيطر عليك بالشكل ده؟

أنت جلال ولا واحد زيه زي كل النزلاء يائس مستسلم؟!

مفيش فايدة في تغييرهم أنا مش في إيدي حاجة؟

أنت محاولتش أنت استسلمت بكل سهولة فكرت إنك تهرب وبس.

أنا بعترف إني يائس.

قاوم فالمقاومة أول طريق الفرج.

فين حكمتك اللي ربنا أدهالك!!!

ربنا عايز يسمع صوت دعاك وأنت اتعودت تدي الأول وتصبر.

فاكر لما قفلت ملف التحاليل ونقلت الموضوع لإيد ربنا؟

افتكر السر اللي بينك وبين ربنا؟

بعد أن أغلق جلال ملف التحاليل في ذلك اليوم وكتب عليه آية «رب لا تذرني فردًا وأنت خير الوارثين» أسر أمرًا بينه وبين الله، كان يتصل هاتفيًا بالمدارس الحكومية المحيطة به ويطلب من مدير المدرسة أسماء من لم يستطيعوا دفع المصاريف الدراسية

obeikan.com

ويدفعها لهم، لقد امتنع عن عمل التحاليل وشراء الأدوية وأخذ هذا المال المتوفر وأنفقه بهذه الطريقة، كان يرى مفارقات غريبة، هكذا دائمًا حين تقترب ترى ما لا تراه عن بعد، أعطى له يومًا مدير مدرسة سعد زغلول كشفًا يضم ستة توائم اثنان في كل مرحلة لم يستطع أباهم أن يدفع لهم كل المصاريف فقرر أن يخرج من كل مرحلة طالب بالرغم من تفوقهم جميعًا، أخبر أباهم مدير المدرسة أنه أجرى قرعة بين كل اثنين حتى لا يظلم أحدًا دفع لهم جلال مصاريف المدرسة وصلى في ذلك اليوم ركعتي شكر للّه بالنيابة عن أبيهم على نعمة الإنجاب.

واستمر جلال في مساعدتهم حتى بعد أن من اللّه عليه وسمع صوت راجي يصرخ لأول مرة وهو معلق من قدميه بين يدي دكتور أبو الغار.

ما تبحث عنه يبحث عنك ولكن عليك أن تجد الطريق، أدِّ ما عليك، ابعث الأمل في القلوب المظلمة يضيء لك الطريق.

أشرقت عينا جلال مرة أخرى فقد عاد إلى نفسه.

يأبى اللّه أن يترك عبدًا أضاء الطريق لأحد من عباده، يزرع في طريقه علامات الهداية فلا يضل الطريق أبدًا.

●●●

على سطح العمارة التي يسكن فيها جلس ياسين على كرسي متهالك ناظرًا إلى النجوم التي ملأت السماء، كانت ليلة باردة سماءها صافية، جلس شاردًا يرى وجهها أمامه يملأ السماء ملء حبها قلبه فضاق به يريد أن يخرج ذلك الشوق المكتوم.

تمتم في لوعة.

- نفسي تعرف اللي جوايا لو حست بس اللي أنا حاسه؟

أمسك هاتفه ينظر إلى اسمها على شاشته يتأمل حروفه.

- هكلمها أقولها اللي في قلبي.

متستعجلش.

أنا بتعذب مش قادر.

رفع الهاتف ومد سبابته يريد أن يضغط على اسمها لكنه تراجع، أنزل الهاتف وعاد إلى تأمل النجوم وقف ثم دار حول نفسه لم يستطع أن يصرف وجهها من أمامه لاحت له عيناها في الظلام فاتقد الشوق في قلبه.

أخرج هاتفه مرة أخرى وضغط على اسمها وأغمض عينيه كمن ينتظر دوي قنبلة بجواره.

- ألوو.

جاء صوتها هادئًا كأنغام الموسيقى.

- إزيك يا ياسين.

ازدرد لعابه.

- ممكن أتكلم معاكي شوية؟

- طبعًا.

صمت لحظات يستجمع شجاعته وتهدج صوته وهمس.

- أنا بحبك من أول مرة شوفتك فيها.

خفت صوته وتغيرت نبراته.

- بحبك.

اندفع الدم إلى وجنتيها وتعالت دقات قلبها ولم تستطع أن تجيب.

- متسمعيش كلامي يا سبيل حسيه بقلبك؟

ابتلع ريقه وأخذ نفسًا عميقًا وتابع.

- أنا حسيت إني لقيتك بعد ما كنت بدور عليكي في وشوش كتير.

obeikan.com

كلامي مش منطقي وبره حسابات العقل قلبي هو اللي بيتكلم.

للحظة شك ياسين أنها أغلقت الهاتف حين لم يسمع أي جواب لولا أن سمع أنفاسها تتلاحق وخيل إليه أنه يسمع دقات قلبها فتابع في حماس.

- الحب الحقيقي مش بنلاقيه غير مرة واحدة بس في حياتنا والحب ده يستحق إنك تديه فرصة.

أكمل في تأثر.

- بحبك.

وهفضل أحبك يا سبيل وهعمل المستحيل إنك تبقي ليا وهتلاقيني جنبك وحواليكي وهحميكي من أي حاجة حتى من نفسك.

معنديش كلام تاني أقوله.

تصبحي على خير.

أغلق ياسين الهاتف وقد بدا عليه الارتياح بعد أن أفرغ قلبه من مشاعره الملتهبة، رفع رأسه إلى السماء ينظر إلى النجوم اللامعة.

obeikan.com

جاء ذلك الصوت المتقطع الذي يعلن انتهاء المكالمة إلى أذن سبيل ولكنها تسمرت ولم ترمش عينها وظلت تمسك الهاتف على أذنها، كانت كأنها أول مرة تستمع إلى كلام يحمل هذا الصدق.

«بحبك» ألم تسمعها مرارًا وتكرارًا من راجي!!!

ألم تقرأها في رسائل المعاكسة على هاتفها! ألم تخبرها أمها بتلك الكلمة نقلاً عن شباب المنطقة فلان بيحبك فلان عايز يتجوزك؟

بعد وقت لم تدرِ كم هو انتبهت أنها لا تزال تضع الموبايل على أذنها.

نظرت إلى شاشته تتأكد من إغلاق الخط ثم شردت إلى السماء الصافية تشاركه النظر إلى نفس النجوم.

كانت تلك الليلة تختلف عن باقي الليالي التي مرت على سبيل، تجلس على نفس الكرسي في نفس الشرفة في نفس البيت هو هو الشارع هي هي الأصوات لكنه الحب الذي بدأ ينبت في القلب هو من غير كل شيء.

تقول الأسطورة أن الحب روح تدخل جسد الإنسان تسري فيه، تذهب أول ما تذهب إلى عينيه فتسدل عليهما غطاءً ورديًا شفافًا فيرى كل شيء جميلاً بلون وردي ثم تسري إلى يديه

obeikan.com

تلبسهما قفازين من الحرير ثم إلى اللسان فتضع تحته قطعة من السكر، وتذهب أخيرًا لتنام في قلبه.

بدأت سبيل تشعر بتلك الروح تتسلل إلى جسدها.

حين ذهبت مع ياسين إلى مقهى الأفنديه شعرت أنها ذهبت إلى عالم آخر غير الذي تعيشه، عالم طالما بحثت عنه لكنها في كل مرة كانت تجد عوالم أخرى من الكذب والخداع، عوالم لابد أن تكون فيها قويًا حتى لا تداس تحت الأقدام.

عالم لا يرى المرأة أمًا أو أختًا أو ابنة لا يراها إلا جسدًا يوطأ مهما كانت ثقافتها أو ملابسها، يظل الذكر يتفحصها كل ثانية لعله يلتقط إيماءة أو إشارة تؤكد أنها تريده، إذا أدبرت فهي بالنسبة له تتمنع لكنها ترغبه وإذا أقبلت إقبال فطرة سليمة فهي لا تستطيع أن تقاومه، وهو في كل الأحوال سيهاجم لا محالة، أعمى عينيه فأصبح كخفافيش الكهوف يحوم ثم يحوم، يرسل الكلمات والنظرات وينتظر موجات القبول فإذا لم يستقبل شيئًا أخذ يرسل كلمات طائشة تنهش في الأعراض والأخلاق.

أن يكون في هذا العالم من يؤمن بحرية الآخر، لا يتدخل في شئونه ويحترم خصوصيته فتلك بارقة الأمل التي يمكن أن نحيا لأجلها.

obeikan.com

يكفي ياسين أن يكون هذا تفكيره وتلك بيئته والكفاح والعرق دأبه وديدنه، أليست هذه صفات الفرسان وما أجملها من صفات.

صفات أهم من لون العينين وشكل العضلات وقصة الشعر.

صرخت فجأة فشقت السكون.

- أنا مبسوطة.

تنبهت أنها لا تزال على الأرض ولم تحلق إلى السماء، أكد لها ذلك صوت هاتفها المميز إنه راجي.

- ألوو روح قلبي فينك؟

بدت الكلمة غريبة على أذنيها لكنها أجابت.

- موجودة.

- مال صوتك؟

- تعبانة شوية.

- عايز أشوفك وحشتيني.

- أوك ربنا يسهل.

شعر راجي بتغير صوتها.

- انتي مش عجباني خالص.

بصي أنا عازمك بكره على أكلة سمك في شقة القصر العيني عشان هاخد رأيك في الديكورات اللي هعملها في الشقة.

في تململ.

- ما تخلينا في مكانا؟

- عايزك تشوفي معايا على الواقع؟

فكرت قليلاً ثم تذكرت ياسين لا تريد أن يراها مرة أخرى مع راجي قالت في نفسها.

- ممكن تكون دي فرصة عشان أنهي الموضوع-

في صوت حاسم.

- أوك اتفقنا.

- هستناكي الساعة ٦ هناك.

- أوك.

●●●

أشرقت الأرض بنور ربها، يوم جديد أطل على الكون أصبح الملك والملكوت بيد الله.

كان جلال قد استيقظ على صوت أذان الفجر فصلى ثم جلس يذكر الله.

obeikan.com

شعر جلال بتسلل النور من النافذة فقام ففتح الشيش على أخره فتسللت أشعة الشمس الرقيقة الدافئة إلى داخل الغرفة أيقظ زهيرة وساعدها حتى توضأت وصلت الصبح.

- تعالي نفطر في المطعم؟

- لا أنا مبحبش أنزل.

- روح انت وأنا هقعد أقرا في المصحف شويه.

- أنا هستنى نفطر مع بعض وأديكي الدوا وبعدين أنزل.

بعد أن اطمأن جلال على زهيرة هبط من المبنى المميز واتخذ طريقه إلى المبنى الكبير.

بدأ النزلاء ينتشرون في الدار يلتمسون دفء الشمس، منهم من جلس على البرجولة أمام الدار ومنهم من بقي في حجرة الترفيه.

مر جلال على البرجولة فوجد نفس السيدتين اللاتي رآهن مع زهيرة ونفس الرجل القعيد وبجواره زينب تجلس على الأرض تعبث في العشب الذابل بجوارها، اقترب جلال منها.

- صباح الخير.

obeikan.com

رمقته في خوف.

- صباح النور.

التفت الرجل القعيد ناحيتهم بصعوبة محاولاً فهم ما يدور.

افترش جلال الأرض أمامها بدون مقدمات فجفلت إلى الوراء واستندت على ركبتيها.

نظر جلال إليها في ابتسامة حانية.

- انتي خايفة مني؟

- وأخاف منك ليه!

- مش عارف قوليلي انتي؟

أطرقت إلى الأرض بعيون زائغة تبحث عن إجابة فأردف جلال.

- انتي عندك كام سنة؟

- ١٦

- انتي عارفة إني كان نفسي يبقى عندي بنت جميلة زيك.

داعبت الكلمة أذنها فابتسمت في خجل فلم تسمع من قبل من وصفها بالجمال.

obeikan.com

- أنا بشوفك على طول قاعدة جنب الراجل الطيب ده.

في تحفظ.

- الست سعاد قايلالي أخلي بالي منه.

نظر جلال إلى الرجل ووضع يده على ركبته مربتًا عليها.

- صباح الخير.

في براءة طفل يتحدث.

- مش هيسمعك.

- هو اسمه إيه؟

- عم زكريا.

- إيه حكايته؟

سألها جلال.

للحظات نسيت زينب تعليمات سعاد وقالت في حماس.

- بعيد عنك خبطته عربية وهو بيعدي الشارع.

- خبطته إزاي؟

جلست القرفصاء وعادت لها شخصية الممثل المسرحي.

- أنا هحكيلك.

obeikan.com

أصله كان عايش مع ابنه ومرات ابنه وكان بيضايقهم عشان سمعه تقيل وكان بيعلي صوت التلفزيون على الآخر وكانت مرات ابنه بتضربه وتفضل تزعقله، فبنته اللي في السعودية جابتله سماعة يحطها في ودنه عشان يسمع.

نظر جلال إلى عم زكريا فلاحظ وجود سماعة صغيرة في أذنه يتحسسها بأطراف أصابعه بين الحين والآخر فعاد إلى زينب وسألها.

- ما السماعة موجودة ليه مش بيسمع؟

وضعت سبابتها على خدها ومصمصت شفتيها.

- أصل انت مش عارف السماعة دي بتشتغل بحجر صغير جواها والحجر خلص.

- والعربية خبطته إزاي؟؟؟

- لما الحجر خلص مرات ابنه مرضيتش تجيبله حجر فنزل من وراها عشان يشتري حجر من صيدلية جنبهم وهو بيعدي الشارع مكنش سامع صوت العربيات فجات عربية بسرعة وخبطته فاتشل راح ابنه جابه هنا.

كان عم زكريا يحاول الضغط على السماعة في أذنه محاولاً سماع ما يدور.

obeikan.com

تابعت زينب في لوم.

- هو اللي عمل كده في نفسه فيه إيه التلفزيون عشان يعمل كل ده عشانه؟!

نظر جلال إلى زكريا في إشفاق ثم التفت إلى زينب.

- خلي بالك منه عشان ربنا يقف جنبك.

- ما أنا قاعدة جنبه أهو أعمل إيه تاني؟

- هي الست سعاد فين؟

انتفضت زينب من ذكر سعاد فتلفتت حولها وهمست لجلال.

- إوعى تقولها إني اتكلمت معاك؟

- متخافيش.

- هي موجودة في مكتبها.

نهض جلال وربت على كتف زكريا ثم اتجه إلى مكتب سعاد فتبعته زينب في قلق.

في مكتبها وقفت سعاد أمام أحد جهازي الكمبيوتر وقد أضاءت شاشته بلون أزرق وكتابة بيضاء باللغة الإنجليزية، بجوارها وقفت ألفت أخذا ينظران بعضهما لبعض لا يعرفون ماذا يفعلون بعد ذلك؟!

وقف جلال على باب المكتب ومن خلفه زينب.

- أي مساعدة أقدر أقوم بيها؟

قال جلال في هدوء.

باغتهم الصوت فالتفتوا بسرعة ناحية الباب، أشارت سعاد له بالدخول.

- لو بتعرف في الكمبيوتر اتفضل؟

دلف إلى المكتب وقال في تواضع.

- أعرف شويه مش أوي يعني.

تقدم جلال ناحية الجهاز وقرأ ما تشير له الكتابة ثم نظر في الكرتونة وأخرج أسطوانة التعريف والويندوز وأدخلها داخل الكيسة الخاصة بالجهاز بينما تابعته سعاد وألفت في إعجاب ودهشة أما زينب فاقتربت من الباب تتابع هي الأخرى.

أنهى جلال الخطوات فأضاءت الشاشة باللوحة التي تجمع بين الخضرة والسماء فضحكت زينب ضحكة طفل بريء لا تدري ما دلالة ذلك لكنه في كل الأحوال أجمل من الشاشة الزرقاء.

- شكرًا يا أستاذ جلال.

قالـت سـعاد وهـي تمسـك كرسـيًا وتجلـس أمـام الشاشـة ثـم سـألت.

- ممكن نخش على الفيس؟

- ممكن بس لازم نت؟

أشارت إلى الهاتف الأرضي.

- النت واصل من التليفون.

التقـط جـلال كابـلاً أبيـض مـن الأرض بجـوار المكتـب موصـول بالهاتـف وأوصـل طرفـه إلـى الكمبيوتـر.

- ممكن كده أدخل على الفيس؟

- فاضل كام خطوة ممكن تسمحيلي؟

نهضت سعاد من على الكرسي.

أكمل جلال بعض الخطوات فظهر الفيسبوك.

- كده تقدري تدخلي.

لمعت عينـا سـعاد في سـعادة وطلبـت منـه أن يشـغل الجهـاز الآخـر في قاعـة الترفيـه.

obeikan.com

نهض جلال ثم دلف إلى قاعة الترفيه تبعته ألفت وزينب بإشارة من سعاد التي أغلقت باب مكتبها وجلست أمام الكمبيوتر.

ألقى جلال السلام على من في القاعة ورغم العدد الكبير إلا أنه لم يسمع سوا صوتين أو ثلاثة ردوا السلام.

طلب جلال من زينب وألفت أن يحضرا ترابيزة وكرسي وأن يضعوهم في أحد الأركان، بسرعة أحضرا ما طلب منهما ثم بدأ يعمل.

اطمأنت ألفت وزينب بالتبعية إلى أن الأمور تسير على ما يرام فتركا جلال وخرجا.

انهمك جلال أمام الكمبيوتر ولم ينتبه إلى تلك السيدة التي تجاوزت السبعين من عمرها التي وقفت بجواره في صمت تتابعه اقتربت بوجهها تنظر إلى شاشة الكمبيوتر التي أضاءت.

فانتبه جلال إليها فحياها في ود.

- صباح الخير.

- صباح النور.

في صوت خافت لا يخلو من لكنة أرستقراطية.

- ممكن أعرف الكمبيوتر ده هيوصله نت ولا لأ؟

بدا السؤال غريبًا بعض الشيء لكن جلال أجابها.

- أنا هحاول أوصله نت بس حضرتك محتاجة النت ليه؟

- محتاجة أعرف الدنيا بره عامله إيه؟

- مفيش جديد الحال في مصر بقى سيئ.

- أنا مقصدش مصر.

لأول مرة يتنبه جلال لتلك السيدة، كانت ملامحها دقيقة لازالت تحتفظ بمسحة من جمال أرستقراطي، ملأت التجاعيد وجهها انحنى ظهرها فزادها قربًا إلى الأرض أكثر مما هي عليه، تلمع عيناها الفيروزيتان اللتان لازالتا تحتفظان بجاذبيتهما رغم خطوط الزمن التي أحاطتهما.

لم يكن ذلك كله غريبًا بل كانت طريقة حديثها الواثقة وسؤالها عن الأحوال خارج مصر هو ما لفت انتباه جلال.

نظر لها جلال في ابتسامة.

- أنا خلاص قربت أخلص ممكن نقعد نحكي شوية؟

في ملامح جامدة وصوت هادئ.

- بس مش كتير عشان عندي شغل.

obeikan.com

عقد جلال حاجبيه من الدهشة ولوهلة تخيل أنه يحدّث أحدًا خارج الدار.

- شغل!!!

هو حضرتك مش نزيلة هنا؟

- أنا نزيلة هنا بقالي ٧ سنين.

- وازاي بتشتغلي؟

- ده موضوع طويل وأنا تعبت من الوقفة.

انتفض جلال معتذرًا.

- أنا آسف مخدتش بالي وسبتك واقفة.

وقف جلال ومشى وراء السيدة التي جلست في هدوء في جانب القاعة.

جلس جلال بجوارها وسألها.

- احكيلي بقى بالراحة إيه حكاية الشغل دي؟

●●●

obeikan.com

كان أحمد صبرا أحد الأعيان البارزين في مصر يتجول في تلك المدينة التاريخية العريقة مدينة رودس في اليونان عندما وقع بصره على عائشة تلك الفتاة الشقراء اليونانية من أصل تركي، تعلق قلبه بها من أول نظرة فتزوجها وقدمت معه إلى القاهرة فعاشت معه حتى أنجبا طفلة صغيرة أسموها ثريا.

شبت ثريا جميلة كأمها وتوفي أحمد صبرا ونشب خلاف على الميراث نتج عنه عدم توريث الأم أو ابنتها أي شيء غير الشقة التي كانا يقيمان بها، سرعان ما تزوجت ثريا من أحد جيرانهم وأنجبت منه ولدًا وبنتًا إلا أن زوجها توفي هو الآخر ولم يكمل الثلاثين من عمره، ضاق الحال على ثريا وأمها والطفلين فنصحت الأم ابنتها بالسفر عند أخوالها في اليونان وبالفعل سافرت ثريا إلى أخوالها في جزيرة رودس وتركت طفليها مع جدتهم في مصر، أخذها أحد أخوالها لتعمل نادلة في مطعم مصري هناك إلى أن أتقنت اللغة اليونانية فقررت استئجار أحد المطاعم، اختارت مطعمًا قديمًا كان يطل على البحر أسمته إيجبتو بالاس، ذاع صيته في الجزيرة لما يقدمه من أكلات مصرية يعشقها اليونانيون، كان طموح ثريا وذكائها وحسن إدارتها وخفة دمها التي تشربت بها في مصر هما سبب النجاح داخل الجزيرة لكن طموحها فاق ذلك أرادت أن تعرفها اليونان كلها فقامت بعمل إعلان عن المطعم كان يذاع في التليفزيون اليوناني كانت فكرته غاية في الذكاء فقد

استغلت عشق اليونانيين لمصر والإسكندرية فكان الإعلان يقول.

«نفسك تزور مصر».. ثم لقطات للأهرامات والنيل والإسكندرية.

«نفسك تاكل أكلة مصرية حلوة على النيل أو البحر».

«بينك وبين مصر Pénte lepta» أي خمس دقائق.

فانتشرت سمعة المطعم في كل أنحاء اليونان لدرجة أن الرئيس اليوناني وقتها بابا دوبلوس زارها زيارة غير رسمية وأعجب بطعم الأكل فأنعم عليها بالجنسية اليونانية بجانب المصرية.

كانت ثريا ترسل شهريًا مبلغًا كبيرًا من المال لأمها وأولادها، علمتهم في أفضل المدارس كانوا يقضون معها أجازة الصيف تدور بهم حول العالم فرنسا بريطانيا النمسا، يلبسون أفخر أنواع الملابس من الماركات العالمية، أصبحت ثريا من سيدات المجتمع في اليونان كانوا يعرفون أنها مسلمة وكانوا يحترمون ذلك ويقدرونه.

تذكر ثريا أنه وقت صلاة الجمعة كان يخرج شرطي أمام منزلها يمنع السيارات من إصدار أي صوت حتى تنتهي من الصلاة.

وكان الشرطي يصيح باليونانية «I ka prose fehés achoun tara» يعني السيدة عندها صلاة الآن.

مرت السنين وكبر الأولاد وتزوجت ابنتها في مصر وكذلك ابنها وأنجبوا فصارت ثريا جدة كانت تغدق على أحفادها وكذلك أبنائها رغم أنهم في وظائف مرموقة.

إلى أن حدثت الأزمة الاقتصادية في اليونان مطلع عام ٢٠٠٨، تفاقمت سريعًا فزادت الأسعار وانتشر الفساد في القطاع الحكومي والخاص ولم تعد الدولة قادرة على دفع الرواتب وأوشكت على الإفلاس.

طال كل ذلك ثريا فقلت الإيرادات لدرجة أنها لم تستطع دفع الإيجار، كانت قد اقتربت من السبعين من عمرها فلم تستطع المقاومة فقررت أن تعود إلى مصر تقضي ما تبقى من العمر وسط أحفادها وأولادها.

بصوت مكتوم وعينين اغرورقت بالدموع قالت ثريا وهي تنظر إلى جلال.

- مستحملونيش شهرين على بعض.

جابوني هنا الدار كل شهر كان حد فيهم ييجي يدفعلي الإقامة بعد سنة محدش بقى ييجي يدفع فلوس الدار.

اتصلت بيهم مدام شكرية الله يرحمها مردوش عليها فكان الحل إني أسيب الدار لولا الست شكرية إديتني ٣٠٠ جنيه سلف جبت بيهم شوية كريمات على زيت شعر من مصنع هنا في منطقة

المصانع وببيعهم قدام مدرسة البنات اللي في أول الشارع واللي بكسبه بدفعه حق إقامتي في الدار.

لم يستطع جلال أن يمنع دموعه أكثر من ذلك فنظرت له بإشفاق وربتت على يده محاولة التخفيف عنه فقد شعرت أنها أضافت عليه حملاً على حمله.

- أنا مش زعلانة أنا مبسوطة.

كل الموضوع إنهم وحشوني ووحشني أحفادي هنا وآسر نفسي أشوفهم قبل ما أموت.

نهضت بتثاقل وعيون تذرف دمًا.

- عن إذنك يا ابني أنا اتأخرت زمان الطلبة خارجين من المدرسة.

بخطوات هادئة وظهر محني وقلب مكلوم غادرت ثريا القاعة تمسك في يدها كيسًا من البلاستيك لا تكاد تحمله.

أي صبر هذا الذي تصبره هذه الأم، وحده الله من يستطيع أن يربط على قلبها وأن يمنحها تلك القدرة على الحياة ووحده الله من يستطيع أن يجزيها.

obeikan.com

جال جلال ببصره في الوجوه الجالسة حوله في القاعة وتمتم.

- يا ترى كام قصة وكام وجع ورا الوشوش دي!!!!

دخلت سعاد إلى القاعة فوجدت جلال جالسًا على أحد المقاعد في جانب القاعة.

- إيه أخبار الجهاز التاني؟

وقف جلال بصعوبة وحاول الابتسام.

- كله تمام.

شغلته ناقص النت لو هتوصليه؟

- آه هوصله.

اقتربت منه وجلست بجانبه وبود غير معهود منها.

- إنت بتعرف تصور كويس؟

ابتسم ابتسامة من أتته فرصة كان يتمناها.

- أنا بصور حلو أوي.

- طيب تمام عايزاك توصل نت للجهاز ونتصور كلنا وإحنا بنستخدم النت عشان تبقى ذكرى حلوة لينا.

Obeikan.com

استدعى جلال إلى ذاكرته نظرة زينب البلهاء عندما رأت الجهاز يضيء ورسمها بإتقان على وجهه.

- فكرة عبقرية.

بدت على وجهها نظرة واثقة وتحول صوتها فجأة إلى صوت سيدة تأمر خادمها.

- قوم عشان توصل النت مساكين عايزة أفرجهم على العالم.

واصل جلال استدعاء المشاهد المعبرة للسخرية من سعاد فلم يجد هذه المرة أفضل من مشهد العبقري عبد المنعم إبراهيم في فيلم الزوجة الثانية وفي أداء تمثيلي مقلداً نفس الصوت.

- يا سلام على حنيتك يا حضرة المشرفة.

لم تفطن سعاد لمقصد جلال فتظاهرت بالتواضع.

- والله يا أستاذ جلال أنا بعامل ربنا ومبيهمنيش رأي الناس.

نهض جلال وتبعها إلى مكتبها، مدّ جلال كابلاً للنت من حجرة سعاد إلى حجرة الترفيه وقام بتوصيلها بالجهاز، جلست سعاد مرة أخرى أمام الفيسبوك بمكتبها بينما استغل جلال انفراده بالجهاز الآخر ودخل على صفحته في الفيسبوك، كان لا يزال يذكر كلمة المرور وكيف ينساها إنها زهيرة.

كانت صورة البروفايل خاصته صورته هو وزهيرة على كبري قصر النيل في عيد زواجهم الثامن.

في خانة البحث أدخل جلال اسم محمد عاشور ظهرت نتائج كثيرة من مختلف الأعمار والفئات، أخذ جلال يدقق في الصور لعله يرى وجه محمد الذي يعرفه كانت نظراته حائرة بين الباب وبين الجهاز خوفًا من سعاد برقت عينا جلال فجأة وثبت النظارة على أنفه واقترب من الشاشة حتى كاد أنفه أن يلامسها.

قفز قلب جلال فرحًا، لم يجد صورة محمد بل وجد صورة عاشور الساعي، تأمل جلال الصورة فقطب جبينه وبدا على قسماته الحزن فقد لمح شريطًا أسود على جانب الصورة.

كانت علامة الحداد، لقد مات عاشور لكن الاسم الذي على الحساب محمد عاشور لابد أنه يضع صورة والده حبًا وعرفانًا.

فتح الرسائل وكتب في خانة النص.

«السلام عليكم ازيك يا محمد أنا عمك جلال ياريت تكون فاكرني.

محتاج منك مساعدة أنا في دار صفا لرعاية المسنين في ٦ أكتوبر في شارع اسمه المفوضية.

أنا ممنوع عني الزيارة أو إني أستقبل تليفونات.

ابعتلي رقمك وأنا هحاول أكلمك.

البقاء لله في والدك كان راجل طيب ربنا يرحمه».

وختم رسالته بـ.

«جلال حلمي البقال».

أغلق الرسائل بسرعة وأغلق حسابه قبل أن تدخل سعاد إلى القاعة.

تنفس جلال الصعداء ونظر إلى سعاد في ابتسامة أخفى بها توتره.

- أنا جاهز.

وقفت سعاد في غرور تشير بيدها شارحة لجلال ما سيقوم به.

- هنقعد كل واحد دقيقة قدام الجهاز وتصوره بكاميرة الموبايل وهو فاتح أي حاجة على النت.

- تحت أمرك.

obeikan.com

أمسك جلال هاتف سعاد وفتح الكاميرا ونادت سعاد على سيدة كانت تجلس في ركن من أركان القاعة.

- تعالي يا أم نبيل.

نهضت أم نبيل بطريقه آلية وعينين حائرتين وتقدمت ناحية سعاد فأجلستها أمام جهاز الكمبيوتر والتقط لها جلال أكثر من صورة.

وهكذا ظل جلال يلتقط صورًا لمن تختاره سعاد.

- كفاية دول شكرًا يا أستاذ جلال.

- العفو تحت أمرك.

خرجت سعاد من القاعة بينما اقتربت أم نبيل من جلال في نبرة مترددة متقطعة.

- إنتوا بتصورونا ليه؟

لم يجد جلال إجابة لكنه سألها.

- انتي بقالك كام سنة هنا؟

في انكسار بدا على صوتها.

- عشر سنين.

obeikan.com

- وأخبار نبيل ابنك إيه؟

لمعت عيناها وتلفتت حولها ثم همست.

- تعالى معايا أوريك جابلي إيه؟

تحرك جلال معها إلى المكان الذي كانت تجلس فيه، جلست ونظرت يمينًا ويسارًا مرة أخرى ثم فتحت حقيبة جلدية ترتديها بشكل متقاطع على كتفها وأخرجت منها ورقة كبيرة مهترئة طويت على شكل مربع قامت بفردها بحرص وأعطتها لجلال.

- دي ابني رسمها وبعتهالي شوف حلوة إزاي؟

نظر جلال إلى الورقة.

كُتِبَ أعلى الورقة بخط يدوي ملتوٍ «إليكِ أمي» ثم رُسِمَ قلب في منتصف الورقة ووضِعَت داخله صورة صغيرة قديمة لأم نبيل كانت من تلك الصور التي توضع على المستندات الرسمية، على يمين القلب كُتِبَت كلمة «أنا بحبك يا ماما» وعلى يسار القلب في الجهة المقابلة كُتِبَ «أنا هاجي أخدك في حضني»، في أسفل الورقة تحت القلب بنفس الخط كُتِبَ «ابنك نبيل».

لمعت عينا جلال وابتسم من رقة هذه الورقة لكنه لفت نظره أن الورقة قديمة أوشكت أن تبلى فسألها بود.

obeikan.com

- الرسمة دي بعتهالك من زمان؟

أخذتها من يده بحرص كأنها تسترد طفلها.

- من ييجي شهر بس الجوابات مش بتوصل هنا.

كانت ثريا قد عادت بعد أن باعت زجاجة من زيت الشعر لإحدى الطالبات وعلبة من كريم الجلسرين وقلم من زبدة الكاكاو لإحدى المدرسات في المدرسة.

لاحظت ثريا جلال وهو يجلس مع أم نبيل فاقتربت منه وأشارت إليه أن يقترب منها وقف جلال واقترب منها وانحنى معطيًا أذنه لها.

- الورقة اللي وريتهالك دي هي اللي راسماها وابنها من ساعة ما جابها هنا ما جاش زارها

وبيبعت لها فلوس الإقامة في البوسطة.

انتصب جلال ونظر ناحية أم نبيل التي كانت تمرر أصابعها في حنان على الورقة، في خطى هادئة اقتربت ثريا من أم نبيل وجلست بجانبها وربتت في حنان على ظهرها وأخرجت من ذلك الكيس البلاستك الذي تمسكه بيدها زجاجة من زيت الشعر وأعطتها لأم نبيل وهمست لها.

obeikan.com

- نبيل باعتلك دي كان معدي من قدام الدار وقالي أديهالك.

أمسكت أم نبيل الزجاجة وأخذت تقبلها واحتضنتها وانسابت دموعها وهي تضحك ونظرت إلى ثريا نظرة عجيبة لا يستطيع أحد أن يفهم معناها، كانت مزيجًا من الحسرة والخوف والسعادة في آن واحد.

شخص بصر جلال يتأملهم ثم استدار خارجًا من القاعة ناحية باب المبنى يتعجب من رحمتهم ببعضهم البعض وهم أشدّ الناس حاجة لتلك الرحمة، تمتم في صوت مكتوم.

- مين قال إن فاقد الشيء لا يعطيه؟

«إن فاقد الشيء أكثر شخص يعطيه».

عند الباب لفت نظره لوحة رخامية كُتب عليها بخط أسود محفور.

«في عهد الرئيس حسني مبارك وبحضور الأستاذة الدكتورة آمال عثمان وزيرة الشئون والتأمينات الاجتماعية والدكتور عبد الرحيم شحاتة محافظ الجيزة تم إعطاء إشارة العمل في إنشاء دار صفا لرعاية المسنين.

يوم الأربعاء ١٣ محرم سنة ١٤١٥ هجرية.

الموافق ٢٢ يونيو سنة ١٩٩٤ ميلادية».

obeikan.com

تساءل جلال بداخله في حسرة.

أي فخر في بناء تلك السجون أليست رمزًا للعقوق وإقرارًا به؟

يا رب أنزل رحمتك على هؤلاء الأمهات.

خرج جلال مطأطئ الرأس حزينًا يعتصر الألم قلبه وروحه.

●●●

أدار راجي المفتاح في باب البيت الذي تربى فيه، كانت رائحة التراب في كل مكان، استوطن الخوف والحزن في كل جانب، عشش العنكبوت في أركانه، انسحب الدفء وتمدد الوهن والضعف إلى الجدران فصارت أوهن من بيت العنكبوت وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت.

أحس راجي بذلك لكنه إحساس لم يتجاوز جلده فقد شعر بالبرد لكنه لم يشعر بانسحاب الدفء، رأى التراب والعنكبوت على الجدران وغاب عنه ما تشعر به تلك الجدران من وحشة وألم.

فتح إحدى النوافذ حتى يدخل الضوء والهواء فأبت الشمس إلا أن تتوارى مخلفة ذلك الشفق الحزين وركد الهواء ركود الماء في المستنقعات، أزاح راجي بعض الملايات التي كان قد وضعها على ذلك الصالون الذي شهد حواره مع أبيه وأمه، دلف إلى المطبخ فأحضر زجاجة معطر وأفرغها في الصالون.

obeikan.com

أضـاء جميـع الأنـوار ودخـل إلـى كل مـكان في الشـقة إلا تلـك الحجـرة في نهاية الشقة حجـرة نـوم أبيـه وأمـه، اسـتدار مـن أمامها ودلـف إلـى حجـرة الصالـون أخـرج هاتفـه واختـار اسـم سـبيل مـن القائمـة وقبـل أن يضغـط زر المكالمـة رن جـرس البـاب فأغلـق الهاتـف ونهض إلـى البـاب مبتسـمًا فتـح البـاب فـإذا بـه الأسـتاذ مظهـر جارهـم المقيـم في الشـقة المقابلـة يقـف منكمشًـا مـن البـرد داخـل روب مـن الصـوف وطاقيـة غطـت رأسـه.

- إزيك يا راجي يا ابني.

في امتعاض.

- أهلاً يا عمو مظهر.

رفع يده مرتعشًا من البرد وقال في ضعف.

- أصلـي لقيـت النـور منـور افتكـرت جـلال هنـا ألا هـو فـين وفـين ماما؟؟

- قاعدين عندي في شقة أكتوبر.

- كويس يا ابني إنهم قاعدين معاك هما ملهمش غيرك.

أحس راجي بوقع الكلام على قلبه كأنه خناجر.

- أكيد طبعًا يا عم مظهر.

- ممكن تديني رقم تليفونك عشان أبقى أكلمهم لما تبقى معاهم؟

ازداد تبرّم راجي وقال في حنق.

- إتفضل انت يا عم مظهر عشان البرد وأنا هعدي عليك وأنا نازل أديك التليفون.

أمسك راجي طرف الباب يريد أن يغلقه فتراجع مظهر إلى الوراء.

- طيب يا ابني لو عزت حاجة خبط عليا.

- شكرًا يا عمو.

أغلق الباب وتمتم في غيظ.

- أنا مش عارف ده لسه عايش بيعمل إيه راجل حشري.

كانت سبيل تقطع شارع القصر العيني في تثاقل لم تعتده، كانت تجتر الذكريات التي مرت عليها مع راجي استعدادًا لأن تمحوها بعد تلك الزيارة.

لحظات وكانت تطرق الباب فتح راجي الباب فدخلت تفرك يديها من البرد.

obeikan.com

أغلق راجي الباب.

- اتأخرتي ليه؟

في فتور.

- المهم إني جيت.

- عندِك حق المهم إنك هنا معايا.

شعرت سبيل بوحشة المكان، لمست بطرف سبابتها التراب المتراكم على ترابيزة السفرة.

- المكان عايز يتنضف؟

اقترب منها ناظرًا في عينيها.

- المكان هيتفور وهيتوضب من جديد وطبعًا على ذوقِك انتي يا حبي.

كانت سبيل تهرب من كلامه ونظراته لا تريده أن ينظر إليها أو يكلمها، دخلت إلى الصالون وجلست على أحد الكراسي وجلس هو أمامها على آخر فنظرت له فى تردد.

- أنا عايزة أتكلم معاك في موضوعين؟

obeikan.com

أشار لها بيده أن تتمهل وأمسك هاتفه المحمول.

- احنا هنتكلم في كل حاجة بس الأول نطلب السمك.

- أنا مش قادرة آكل معدتي تعبانة ومش طايقة سيرة الأكل.

أردفت في توتر.

- نتكلم الأول يمكن أجوع ونبقى نطلب؟

وضع هاتفه من يده وأنصت فقالت في إصرار من عزم على أمر.

- أولاً موضوع مازن فكك منه لإني مش حاسة إنه جد وكذا مرة أسأله على التوكيل يتهرب فا أنت لازم تفكر في مشروع بديل.

نظر إليها في استنكار.

- أنتَ؟ أول مرة تقولي أنتَ مش إحنا؟!

تابعت.

- ده الموضوع التاني.

ترددت قليلاً لكنها واصلت.

- إحنا لازم نبعد شويه عشان أنا حاسة بلخبطة في حياتي.

obeikan.com

قطّب جبينه.

- نبعد؟؟!!!!!!!!

- ياريت تفهمني يا راجي؟

اقترب منها راجي وجلس على ركبتيه أمامها.

- أنا اللي عايزك تفهميني أنا ميهمنيش مشروع التوكيل ولا مازن ولا أي حد في الدنيا.

اقترب منها ووضع يده على شعرها فتململت منه فأمسك يدها واقترب إلى شفتيها يريد تقبيلها فانتفضت واقفة.

- راجي متخلينيش أسيبك وانزل.

وقف واقترب منها وقد تعالت أنفاسه واندفع الدم إلى رأسه.

- تنزلي إزاي أنا ما صدقت إنك بقيتي معايا لوحدينا.

تراجعت في ذعر أمام نظراته التي تلتهمها فانقض عليها يقبلها وقد طوقها بذراعيه فلم تستطع الحركة، أخذت تتراجع إلى الوراء وهو يلتهم شفتيها ووجهها حتى اصطدمت بباب الصالون الزجاجي فسقط محدثًا دويًا كبيرًا وسقطت هي على قطع الزجاج فارتمى عليها غير عابئ بما حدث فانغرست قطعة من الزجاج في معصمها فصرخت وأخذت تدفعه بعيدًا عنها إلى

obeikan.com

أن وقعت يدها على قطعة كبيرة من الزجاج فأمسكتها وأشهرتها في وجهه فتراجع قليلاً ثم أخذ يتقدم ناحيتها في بطءٍ وهو لا يزال على الأرض.

- انتي بتاعتي ومش ممكن أسيبك.

زحفت إلى الخلف ممسكة قطعة الزجاج وقالت في تهديد.

- خلاص كل الحكاية انتهت.

ازدادت ملامح الغضب على وجهه وأطلت من عينيه نظرة تملؤها الرغبة.

- أنا اللي أقول الحكاية تخلص إمتى؟

اصطدم ظهرها بأحد كراسي ترابيزة السفرة التي في الصالة فاستندت إليه واقفة فوقف راجي هو الآخر وصرخ فى غضب.

- انتي لو فكرتي تسيبيني أنا هقتلك.

صرخت هي الأخرى بدورها في خوف.

- إنت مجنووووون.

باغتها منقضًا عليها محاولاً نزع قطعة الزجاج من يدها فلوحت بها في وجهه فأصابته بجرح عميق بجانب خده الأيمن فاستشاط غضبًا واندفع ناحيتها وهي تصرخ ولطمها على وجهها فسقطت تتلوى من الألم فصرخ فيها.

obeikan.com

- عملالي فيها شريفة؟

شعر بدفء قطرات الدم تنساب من خده على رقبته فأمسك بإحدى الملايات يمسحها بينما سبيل ملقاة على الأرض تستعيد وعيها بعد تلك الصفعة القوية.

خلع راجي الجاكت الذي كان يرتديه وهمّ بالاقتراب منها قبل أن يسمع جرس الباب فنظر ناحيته في ارتباك ووقف حائرًا.

أفاقت سبيل على صوت الجرس وأمسكت مرة أخرى بقطعة الزجاج فجز على أسنانه مهددًا بصوت خفيض.

- ارمي اللي في إيدك ده بلاش فضايح واهدي ومش هاجي جنبك خلاص.

تواصل رنين جرس الباب في إلحاح.

استندت على أحد كراسي السفرة مترنحة وهي تمسك بقطعة الزجاج كخنجر وجهته إليه في تهديد.

- افتح الباب.

- ارمي اللي في إيدك مينفعش حد يشوفنا كده.

صرخت في هستيريا.

- بقولك افتح الباب وإلا هصرخ وألمّ علينا العمارة.

كان صوتها بدأ يرتفع وجرس الباب لا ينقطع فلم يعد أمامه غير أن يتراجع من أمامها ويذهب ليفتح الباب.

تبعته إلى الباب في حذر ممسكة بقطعة الزجاج، فتح راجي الباب فإذا بالأستاذ مظهر يقف مرتعشًا وبدا عليه الخوف.

- أنا سمعت صوت صريخ وتكسير جاي من هنا فقلقت عليك؟

لم يكد مظهر يكمل جملته حتى قفزت سبيل دافعة راجي جانبًا وفتحت الباب واندفعت إلى الخارج فاصطدمت بمظهر فسقط أمام الشقة واندفعت هي إلى السلم هابطة بسرعة في خوف وفزع.

وقف راجي وقد تسمّر مكانه وأخذ ينادي بصوت مرتفع.

- سبيل سبيل.

وقف مظهر في صعوبة.

- هو فيه إيه يا ابني ومين دي؟

أمسك راجي الباب وأغلقه بعنف في وجه مظهر.

- إنت مالك سيبني في حالي؟

أمسك راجي بدورق زجاج كان أمامه على ترابيزة السفرة وقذفه في الأرض من الغيظ فأحدث صوتًا مدويًا.

obeikan.com

هبطت سبيل إلى الشارع فأوقفت تاكسي ورمت نفسها بداخله وهي تبكي بصوت مكتوم وتشعر بألم في كل أنحاء جسدها.

●●●

توقف التاكسي أمام مدخل مدينة الشيخ زايد فهبطت سعاد منه وقد ارتدت بالطو طويل أغلقته إلى آخره وربطت على رقبتها إسكارف أخفت به فاتحة البالطو وقد وضعت كل ما طالته يدها من أنواع المكياج، عبرت الشارع إلى الجهة المقابلة واقتربت من أحد التاكسيات الواقفة، انحنت قليلاً أمام نافذة السائق.

- الياسمين يا أسطى.

- اتفضلي حضرتك.

كانت تلك تعليمات اللقاء تغيير التاكسي عند مدخل المدينة وركوب آخر، التأكد من أنه لا يوجد أحد يتبعها، عدم التحدث أثناء الطريق سواء على الهاتف أو مع السائق.

دقائق واستوقف التاكسي أحد أفراد أمن كمباوند الياسمين.

أنزلت سعاد زجاج نافذة التاكسي.

- فيلا ٥٠٤.

- فتح فرد الأمن البوابة ودخل التاكسي أشارت له سعاد كيف يسير لحظات وعند انحناءة أحد الشوارع ناحية اليمين استوقفت سعاد التاكسي أمام الفيلا التي كُتب عليها بشكل واضح ٥٠٤.

نزلت سعاد من التاكسي الذي أكمل طريقه مع انحناءة الشارع واختفى من أمام سعاد، انتظرت سعاد دقيقة ثم عادت في ذلك الشارع إلى الوراء حتى توقفت أمام فيلا ٥٠٠ .

أزاحت الباب الحديدي في الخارج ودخلت، طرقت الباب فتح لها مدكور، كان يرتدي روبًا من الحرير ويمسك في يده سيجارًا كوبيًا، فتح لها ذراعيه واحتضنها.

شعرت سعاد بسخونة الجو داخل الفيلا فنزعت الإسكارف وخلعت البالطو فظهر بيبي دول أحمر قصير فوق ركبتيها، اقترب منها يسبقه كرشه المتدلي أمامه وصاح في حماس.

- وحشتيني يا سعودتي.

رمقته في امتعاض.

- إنت بتحسسني وأنا جايالك إنى جاية أقابل رأفت الهجان.

وضع السيجار على تلك الطفاية الزجاجية الضخمة وانقض عليها، دفن رأسه بين ثدييها المنتصبين فأبعدته بيديها.

- بقولك إيه بالراحة اهدى شوية بلاش السرعة في الأداء دي؟

- متخافيش دي قوة في الأداء.

obeikan.com

أمسكت بياقة الروب الذي يرتديه وسحبته إلى أحد الفوتيهات القريبة من الدفاية وأجلسته.

أمسكت حقيبتها وأخرجت ظرفًا أبيض مغلق وناولته له.

- دي كل الفلوس من آخر عملية.

- كام دول؟

- ٢٠ ألف جنيه.

هزّ الظرف في يده باستهزاء.

- قليلين.

- الواد اللي بعتله الكمبيوترات طلب فواتير فقلت أخلص منهم فاديتهمله بـ ٤ تلاف جنيه.

بجدية.

- إوعي يكون عرف أي معلومة؟

- متخافش البركة فيك خليتنى بقيت ولا بتوع المخابرات.

وضع يده على خدها في رقة.

- اللي أنا بعمله ده أمان ليا وليكي.

- أنا صورتلك بتوع الدار عشان الحج حسين.

obeikan.com

أخرجت هاتفها المحمول من الحقيبة وبدأت تستعرض له الصور.

وهو يتابع الصور ودون أن ينظر إليها سألها.

- فيه جديد في الدار؟

بثقة.

- كله تحت السيطرة.

اقترب منها يداعب شعرها.

- عارفة يا بت يا سعاد فيه جمعية أجنبية بتكافح أمراض الشيخوخة عارضة إنها تدينا تمويل سنوي لنزلاء الدار التمويل ده ممكن ينقلنا حتة تانية.

دفعته دفعة رقيقة على كتفه.

- إيدي على كتفك يا أخويا.

- عايز منك تجهزيلي كل الورق والروشتات بتاعة المعاتيه اللي عندنا اللي بياخدوا علاج مزمن عشان نجهز ملف محترم أسافر بيه.

أشارت بسبابتها على عينيها.

- عينيا بس عايزة أخلي الراجل اللي اسمه جلال يساعدني؟

obeikan.com

رمقها في اعتراض.

- إشمعنى جلال مش بتقولي إنك مش مستريحاله؟

- لأ ما خلاص بقى زي القطة بس هو شاطر ولسة دماغه صاحية مش زى الباقيين.

أشارت إلى الصور على هاتفها وأردفت.

ده هو على فكرة اللي مصور الصور اللي بفرجهالك دي.

بتحذير.

- مفيش مانع بس خلي بالك.

في ثقة.

- عيييب عليك ده أنا تربيتك.

وقف مذكور وخلع الروب الذي يرتديه فوقفت مبتعدة عنه يهتز جسدها كبالونات الماء.

- تعالي بقى مفعول الحباية قرب يروح وترجعي تقوليلي سرعة في الأداء ومش عارف إيه؟

أمسكها من خصرها وغاصت أصابعه في منحنياتها فتعالت أنفاسها، دفعها مذكور على الفوتيه الوثير وارتمى عليها.

obeikan.com

استسلمت سعاد لجسده الذي ارتطم بها ثم سرعان ما انتفض انتفاضة من يسلّم الروح ثم راح في ثبات عميق.

●●●

في المساء جلس ياسين وحيدًا على تلك الترابيزة التي جمعته مع سبيل، حاول الاتصال بها

كثيرًا لكن هاتفها ظل مغلقًا.

أمضى ساعات طويلة في المقهى، جلس مع أصدقائه، جلس وحيدًا متأملاً، استرجع حديثه معها آخر مرة حين حادثها على الهاتف.

خرج إلى شارع فيصل الذي بدأ يهدأ من معركته اليومية فقد جاوزت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، كانت هناك رياح باردة تضرب الشارع ورغم ذلك كان ياسين يشعر بلهيب الشوق والفضول والخوف.

- ليه مش بترد عليا؟!

قولتلك متستعجلش.

يعني هي مش بترد عشان زعلت مني عشان قولتلها بحبك!!!

لأ عشان خافت.. خافت منك تكون زي كل الناس اللي دخلتها الدخلة دي عشان تطولها.

بس أنا بحبها بجد.

هي تعرف منين؟! هي كانت ابتدت تطمنلك وتحس إنك فعلاً عايز تساعدها وبتخاف عليها روحت خوفتها باستعجالك.

طيب ترد عليا تقولي أي حاجة.. تقولي إنها خايفة أو حتى تقولي إنها مش بتحبني.

مش هترد دي واحدة خلاص فقدت الثقة في كل الناس هي مش قدامها غير طريق واحد تختفي وتبعد عن الناس وعشان كده قفلت تلفونها.

ياريتني ما كنت قولتلها.

كان ياسين يمشي بلا هدف، أحسّ أنه أضاع حلمًا بدا قريبًا، أضاعه بسبب استعجاله فبات سرابًا يطارده في خياله، انسابت حبات المطر على وجهه فأفاق من شروده، لملم نفسه وارتمى في تاكسي مرّ بجانبه.

دع حبيبك يحبك بإرادته هو وليس إرادتك أنت فليس هناك معنى لكلمة حب طلبت أن تسمعها ولكن هناك ألف معنى لكلمة حب قيلت لك.

●●●

في إحدى العيادات الخاصة جلس راجي يضع منديلاً ورقيًا على خده وقد بدت آثار الدماء على المنديل، جلس منتظرًا دوره للدخول للطبيب لم يتنبه إلى عمق الجرح في وجهه إلا بعد أن هدأ، أشارت له الممرضة بالدخول، استقبله طبيب شاب أجلسه أمامه ونظر في ورقة أمامه أدخلتها له الممرضة قبل قليل.

- خير يا أستاذ راجي.

- تعويرة بسيطة في خدي.

أزال راجي المنديل الورقي الذي كان يضعه على الجرح.

فأشار له الطبيب بالجلوس على سرير الفحص اقترب الطبيب وفحص الجرح وقال في جدية.

- ده جرح مش بسيط محتاج خمس غرز غير إنه عميق أوي.

نظر إلى عيني راجي في تساؤل.

- إيه اللي عملك كده؟

- اتكعبلت في السجادة فخبطت في باب الصالون الإزاز.

بدا على الطبيب عدم الاقتناع.

- على العموم هنحتاج نخيط الجرح كويس إنك متأخرتش.

- من فضلك يا دكتور أنا مش عايز الجرح يسيب أثر.

قال راجي في قلق.

- أنا هستخدم خيط تجميل.

بدأ الطبيب تجهيز بعض الأدوات ثم اقترب من راجي.

- هتستحمل من غير بنج؟

- أنا أصلاً مش حاسس بالجرح.

حاسس بتنميل في خدي كله.

بدأ الطبيب في تنظيف الجرح أولاً ثم شرع في خياطته.

●●●

خلال ثلاثة أيام كان جلال في الصباح مع سعاد وبالليل يسهر مع حشمت يتبادلا أحاديث الذكريات، ساعد جلال سعاد في جمع البيانات الخاصة بالمسنين وتاريخهم المرضي ووضع ذلك كله في ملفات وورد جاهزة للطباعة.

كان جلال يقتنص كل فرصة ويستمع إلى حكاية كل منهم، مَن هو وماذا كان يعمل ومن الذي أودعه الدار وهل يزوره أم لا، وضع جلال تلك البيانات في ملف آخر على جهاز الكمبيوتر الموضوع في حجرة الترفيه، استطاع أيضًا أن ينقل صورهم من هاتف سعاد وأضافهم إلى ذلك الملف.

obeikan.com

دخل غرفة كل واحد منهم، أصبح صديقهم يسمع منهم شكواهم وطلباتهم فيتوسل إلى سعاد أن توافق على طلباتهم البسيطة.

كان كل يوم يدخل إلى صفحته على الفيسبوك ليرى هل جاءه رد من محمد إلى أن فتحها في يوم فوجد أن أيقونة الرسائل أشارت بوجود رسالة، لمعت عينا جلال وازدادت ضربات قلبه فتح الرسالة.

«ازيك يا أستاذ جلال حضرتك واحشني جداً.

أنا مفهمتش رسالتك أوي بس أنا تحت أمرك في أي حاجة.

إنت صاحب فضل عليا وأبويا وصاني أسأل عليك وأودك.

محمد عاشور».

كتب محمد عاشور رقم هاتفه المحمول ورقم هاتف المنزل.

كتب جلال رقمي الهاتفين بسرعة وأغلق الصفحة.

ثم فتح موقع جوجل وكتب عبارة «إجراءات إعلام الوراثة في مصر».

قرأ الموضوع بعناية ثم أغلق الجهاز وغادر المبنى.

●●●

استل جلال نفسه من جانب زهيرة بعد أن نامت وفتح باب الغرفة وخرج في هدوء، كانت ليلة شتوية باردة، أوقد حشمت راكية النار منتظرًا نديمه الذي بدا من بعيد يقترب.

وقف حشمت مستقبلاً جلال.

- اتأخرت النهاردة يا بيه.

- استنيت لما زهيرة نامت البرد مخلي عضمها بينقح عليها.

زمّ حشمت الشال الصوف الذي يضعه على رقبته وجزءًا من رأسه.

- الشتوية دي باردة أوي.

اصطكت أسنان جلال ببعضها وتمتم بصوت مرتعش.

- باردة وكئيبة.

رفع حشمت كفيه بمحاذاة كتفيه وقال في صوت عميق.

- هتُفرَج إن شاء اللّه.

جلس جلال على الدكة أمام النار بينما جلس حشمت القرفصاء بجوار الدكة يجهز الشاي.

نظر إليه جلال.

- استنى سيبك من الشاي واسمعني كويس.

obeikan.com

وقف حشمت وجلس بجواره على الدكة.

تابع جلال في اهتمام.

- أنا عرفتلك إجراءات إعلام الوراثة وتعمل إيه بالظبط.

لمح جلال ابتسامة لاحت على عيني حشمت وتحرك فمه من تحت الشال الذي أخفى باقي وجهه.

- كتّر خيرك يا بيه.

- الموضوع باختصار لازم تسافر البلد ويبقى معاك شهادة وفاة جدك لأمك وتروح المحكمة تملأ طلب إعلام وراثة.

- أنا معايا كل الأوراق دي بس أنا معرفش أعمل ده في المحكمة!

- شوف أي محامي الموضوع بسيط.

- يعني هيبقى منه فايدة؟

- ده هيخليك تعرف نصيبك إيه من ميراث جدك وتطالب بيه.

- على خيرة الله يا بيه.

وضع جلال يده على كتف حشمت وضمّ قبضته على كتفه ونظر في عينيه.

- أنا عايز منك خدمة يا حشمت؟

- رقبتي ليك يا بيه.

- أنا عايزك تساعدني أسيب الدار.

أطرق حشمت إلى الأرض ولم يرد.

تابع جلال في تأثر واضح.

- أنا عارف إنه طلب صعب بس أنا مش هخلي الموضوع يبقى له علاقة بيك.

- كيف يا بيه! هيعرفوا إني أنا اللي هربتك.

- اسمع كلامي وهتفهم.

أصغى حشمت بكل جوارحه إلى جلال فهو يريد حقًا أن يساعده لكنه يخاف على مصدر رزقه الذي عانى لأجله الكثير.

●●●

في حي روض الفرج على أحد المقاهي جلس مجموعة من الشباب ملتفين حول شابين يلعبان الدومينو، كان الشباب ينقسمون فريقين، فريق يشجع ميدو ذلك الشاب الأسمر النحيف وآخر يشجع كومبو الشاب الممتلئ صاحب الشعر الكنيش.

كعادتهم كل يوم يجلسون يشرب كل شاب مشروبه المفضل ويتحمل الحساب الخاسر من الاثنين.

obeikan.com

قبل انتهاء الدور رنّ هاتف ميدو فأخرجه من جيبه لكنه لم يتبين الصوت وسط ضجيج المقهى.

- ألوو.

- ازيك يا محمد أنا عمك جلال.

انتفض ميدو واقفًا فصاح جميع الشباب في نفس واحد يحثونه على إكمال الدور، أشار لهم ميدو أنه انسحب وأنه يقبل دفع الحساب.

ابتعد ميدو بالهاتف أمام المقهى وفي فرح وحماس.

- ازيك يا أستاذ جلال حضرتك عامل إيه؟

- اسمعني كويس أنا عايز منك تشوفلي مكان أقعد فيه أنا والحاجة زهيرة مراتي.

- موجود يا عمي متشيلش همّ بس فهمني.

- هفهمك كل حاجة لما أشوفك.

أنا عايزك تجيبلي تليفون صغير وحط فيه خط عشان أعرف أكلمك عليه؟

- طيب أجيلك فين؟

obeikan.com

- بكره زي دلوقتي في العنوان اللي بعتهولك على الفيس.

هتيجي عند البوابة وتقف الناحية التانية وفيه واحد اسمه حشمت اللي بكلمك من تليفونه هيجيلك ياخد منك الحاجة.

- بكره قبل دلوقتي هتلاقيني عندك.

محتاج أي حاجة تاني؟؟

- مش عايز أتقل عليك بس لو عندك فلاشة فاضية ياريت تجيبهالي وأنا يا ابني هحاسبك على الحاجات دي.

- عيب يا عم جلال إنت خيرك عليا وعلى والدي الله يرحمه.

- الله يرحمه ربنا يديك العمر يا ابني.

مع السلامة.

- الله يسلمك.

أغلق ميدو الهاتف متذكرًا طيبة وكرم جلال وحب والده له، تنهد في حزن.

- الله يرحمك يابا.

نظر جلال إلى حشمت وأعطاه الهاتف.

- بكره تعمل اللي اتفقنا عليه ومتقلقش.

obeikan.com

في ثقة وحماس.

- ولا يهمك يا بيه ياما دقت على الراس طبول.

●●●

يسقط الزجاج مدويًا، تميد الأرض، صوت ارتطام عنيف، أسمع طقطقة عظامي، فم ذئب يلتهم وجهي، يسيل لعاب مقزز من فمه تحرقني أنفاسه الكريهة، أزحف إلى ما لا نهاية، يقف الوقت، أرى وجوه الأطفال من حولي عيونهم تنظر إليّ في خوف، يصيح أحدهم لا تصدقوها لا تدعوها تقترب لم تعد مثلنا، أمسك بأي شيء لا أجد شيئًا، أرى وجه جلال مطرقًا أراه يبكي، يأكل الذئب لحم وجهي يغرس مخالبه في يدي يسيل دمي يصفعني على وجهي فأرى أمي نائمة تتوجع تحاول أن ترفعني فيلتصق جلدي بالأرض، أرى أقدامًا كثيرة تحيط بي لا أستطيع أن أرى، لازال وجه جلال مطرقًا إلى الأرض، أصابعي تتقطع تنزف ثم تنزف، صوت يصرخ من بعيد، أنتفض تختفي السيقان الغليظة من أمامي، أركض بكل قوتي كل الذئاب تركض ورائي كل الذئاب.

طوال يومين لم تغادر سبيل حجرتها، كان ذلك المشهد يطاردها لا تدري أتراه نائمة أم مستيقظة استعادت كل لحظة مرت بها في حياتها، شعرت أن ما حدث إنما حدث ليطهرها

ليوقظها لينتشلها، لا تدري كيف استطاعت أن تخرج من شقة راجي وتركب التاكسي وتدخل إلى الصيدلية تضمد جراحها ثم تعود إلى البيت، لقد رأت الموت يقترب منها نظرت إلى يدها المغلفة بالشاش بدأ الألم يختفي، لازالت تحيط عينها اليمنى زرقة خفيفة، آثار بعض السحجات على وجهها وعنقها بدأت تتلاشى، كانت روحها تتعافى وتنبت من جديد.

●●●

دخل راجي باب الشركة وهو يضع يده على موضع الجرح، كان يتحسس بيده الغطاء الطبي الموضوع على خده كل ثانية بطريقة لا إرادية.

ما إن رآه زملائه حتى التفوا حوله مستفسرين عما حدث له، كان يبدو عليه الارتباك كما لو كان باديًا من الجرح أنه من سبيل وهو يعتدي عليها، جلس مكانه على شباك رقم واحد في قسم خدمة العملاء تحسس الجرح بيمينه مرة أخرى تمنى في تلك اللحظة لو لم تأتِ سبيل في ذلك اليوم وتتحدث معه أو أنها ذهبت إلى زميل آخر على أي شباك أو أنه كان ساعدها وفقط أو أنه لم يطلب رقم هاتفها كان الندم حاضرًا في تلك اللحظة كما يحضر دائمًا بعد كل شيء سيئ يحدث لك حتى تتمنى أنك لو لم تستيقظ في ذلك اليوم، تحسس خده والحسرة تملأ وجهه.

لم تمضِ بضع دقائق حتى استدعاه الأستاذ إبراهيم رئيس القسم فقام على مضض.

جلس راجي أمامه منكس الرأس ينظر إلى الأرض، تفحصه الأستاذ إبراهيم وقال في برود.

- ألف سلامة عليك قالولى إنك متعور خير احكيلي إيه اللي حصل؟

بتوتر بدا على ملامحه وصوت خافت.

- اتشنكلت في السجادة فوقعت على باب الصالون الإزاز.

بنفس الملامح الجامدة والبرود ودون أن ينظر إليه.

- طيب خد أسبوع أجازة مش هينفع تقابل العملا ووشك عامل كده.

كان راجي يعرف القواعد جيدًا، أحسّ بالغيظ فقد هرب من البيت إلى الشغل لكي ينسى الموقف بأكمله.

- حاضر.

قال راجي بصوت مكتوم ثم وقف شاكرًا الأستاذ إبراهيم وخرج من مبنى الشركة دون أن يمرّ على زملائه.

●●●

obeikan.com

في الصباح انتظر حشمت حتى هدأت الدار وانتهى النزلاء من تناول الإفطار وانتشروا يلتمسون الدفء أو يجلسون في حجرة الترفيه واستقرت سعاد على مكتبها فدخل عليها وقد رسم على وجهه ابتسامة مزجها ببعض الانكسار.

- صباح الخير يا ست سعاد.

رفعت رأسها من خلف شاشة الكمبيوتر وفي ترقب.

- صباح الخير.

خير فيه حاجة؟

في ارتباك.

- كنت عايز أخد أجازة أسبوع عشان هعمل إعلام وراثة عشان ميراثي من أمي.

رفعت يدها فوق حاجبها وقالت في سخرية.

- اشمعنى دلوقتي افتكرت تعمل إعلام الوراثة ما انت بقالك سنين تقول أنا عندي ميراث بس فايته وعامل فيها أبو عرام.

في انكسار مفتعل.

- أهو النصيب.

obeikan.com

الواحد كبر وعايز أسيب حاجة للولاد.

نهضت واقفة وتقدمت حتى واجهته.

- أنا موافقة أديك أجازة بس بشرط؟!

- حضرتك تؤمري.

- أسألك سؤال وتجاوب بصراحة واوعى تكذب؟

أشار بإصبعه إلى أعلى وهز رأسه.

- بيني وبينك ربنا.

- كنت تقصد إيه لما كنت بقولك همشيك وقولتلي متزعليش من اللي هعمله؟

- والله ما كنت أقصد حاجة.

أشارت له بسبابتها محذرة.

- متلفش وتدور عليا كنت هتعمل إيييه؟؟؟

أطرق إلى الأرض وفي ضعف.

- كنت هروح لمدكور بيه اشتكيله من حضرتك.

يعني اللي زيي حيلته إيه غير الشكوى؟

obeikan.com

أطلقت من فمها ضحكة ساخرة وقالت ڤي استهزاء.

- مدكور!!!

وانت فاكر إن مدكور بيه يقدر يعملي حاجة؟!

- وزة شيطان يا ست سعاد وانتي الخير والبركة.

عادت إلى مقعدها فقد استراحت من هاجس أن حشمت أو جلال يعلمون عنها شيئًا نظرت له ڤي هدوء.

- عايز الأجازة من إمتى؟

- يوم السبت بعد غياب الشمس عشان أصبح ڤي البلد أروح المحكمة الحد.

- طيب ابقى فكرني أكلم الغفير اللي عند مدكور بيه ڤي المزرعة ييجي يقعد بدالك الأسبوع ده.

انحنى أمامها رافعًا يديه على رأسه.

- كتر خيرك يا ست الكل إن شاء الله أحلى شوية فطير وجبنة يجولك من البلد.

رمقته بطرف عينها.

- لما نشوف.

obeikan.com

تنفس الصعداء وهو خارج من الباب وهو يتمتم.

- سكت الهَوى والناموس طار.

والسبع طأطأ بعينه.

خليه ده النومِ أستار.

لما الكلب ياخد يومينه.

●●●

ما أجمل مطلعك في أفق السماء أي أتون الحي، مبدأ الحياة.. فإذا ما أشرقت في الأفق الشرقي.. ملأت الأرض كلها بجمالك.. إنك جميل، عظيم برَّاق، عال فوق كل الرءوس أشعتك تحيط بالأرض، بل بكل ما صنعت... وإنك لتربطها جميعًا برباط حبك.. ومهما بعدت فإن أشعتك تغمر الأرض.. ومهما علوت، فإن آثار قدميك هي النهار..

فتح جلال نافذة غرفته فطالعته الشمس بوجه مشرق، انسابت أشعتها الذهبية على وجهه، أغمض عينيه ورفع رأسه يتنشق نسيم الصباح، فرد ذراعيه كمن يتأهب للطيران ناحية الشمس كان نهارًا مشرقًا، السماء زرقاء صافية، العصافير تزقزق فرحة تقترب من النافذة في حركات غير متوقعة ثم تبتعد إلى أفرع الأشجار.

obeikan.com

لمح جلال ثريا بجسدها النحيل وانحناءة ظهرها وخطواتها الدقيقة تمسك في يدها بذلك الكيس بقوة تستقبل بوابة الدار ذاهبة تطلب رزقها وقد غلفتها الشمس بهالة بيضاء رقيقة في مشهد يبعث الأمل في النفوس.

استدار جلال ناحية زهيرة كانت لا تزال تنفض بقايا النوم عن أجفانها، جثا على ركبتيه بجانبها بوجه مبتسم وأخذ يداعب وجهها بأنامله حتى أضاءت عيناها.

- صباح الورد والفل والعسل الأبيض.

ابتسمت إبتسامة خفيفة.

- صباح الخير.

- يلا قومي نفطر وبعدين تاخدي دش.

في نظرة عتاب.

- إيه مش هتنزل تروح لصحابك في المبنى التاني؟

قبلها في جبينها وابتسم في حنان.

- حبيبي غيران؟!

- مش أنت بقالك كام يوم بتسيبني لوحدي وتقضي طول اليوم هناك؟

- أنا بسيبك عشان أبقى معاكي.

أخرج نفسًا عميقًا ثم تابع.

- خلاص هانت كلها كام يوم وهنبقى بره الدار.

تهلل وجهها وانتصبت على السرير.

- بجد؟؟ إزاي إحكيلي؟!

- مش مهم إزاي المهم قومي بلاش كسل النهاردة الشمس دافية فرصة تاخدي دش وأسرحلك شعرك زي زمان.

نظرت إلى عينيه في دفء كدفء الشمس وابتسمت فقد تذكرت تلك الأيام في شقتها وهو يضفر لها شعرها.

أسرع فأغلق زجاج النافذة خوفًا من أي نسمة هواء شاردة تضرب عظامها الضعيفة، أدخل ذلك الكرسي الخشبي إلى الحمام ثم أدخلها.

بسرعة ضبط المياه على درجة مناسبة، انساب الماء دافئًا على رأسها.

خرج من الحمام فأحضر بشكيرًا كبيرًا جفف شعرها به ثم لفه على جسدها النحيل، كان قد جهز ملابسها على السرير فألبسها برفق ثم خرجت مستندة على يده أجلسها على الكرسي

obeikan.com

الخشبي الآخر في مواجهة الشمس ووقف هو خلفها واضعًا يده على كتفيها رفعت وجهها إليه.

- إنت لسه بتحبني زي الأول؟؟

- وأكتر من الأول.

بدأ جلال يفرد شعرها الرمادي المبلل، ووضع عليه بعض قطرات الزيت وأخذ يفركه برفق،

نظرت أمامها في شرود كانت أشعة الشمس الدافئة تخترق الزجاج مداعبة وجهها بينما بدأ جلال يمشط شعرها إلى أسفل.

سألته فجأة.

- فاكر الأغنية اللي كنت بتغنيهالي لما كنت بتقف في الشباك بتعاكسني؟

ضحك جلال.

- أنا مكنتش بعاكسك أنا كنت بحبك.

رفعت يدها النحيلة ومررتها في حسرة على تلك الشقوق والتجاعيد التي ملأت وجهها.

- إنت كنت دايمًا شايفني عيلة صغيرة.

obeikan.com

أحسّ جلال بما يدور في داخلها فانحنى حتى حازى أذنها وهمس.

- أنا كنت بشوفك بريئة زي الأطفال ولحد دلوقتي لسه بشوفك طفلة صغيرة.

ابتسمت واستدعت روح طفولتها.

- يا سلام هو عشان بسيبك تضفرلي شعري دلوقتي يبقى لسه في نظرك عيلة صغيرة؟!

- لأ طبعًا أنا طول عمري بحب ضفاير شعرك بس روحك وقلبك وعنيكي تفضل زي ما هيه طول عمرك.

مالت على يده برأسها وقالت في حنان.

- طيب غنيلي الأغنية؟؟

تنحنح جلال ثم بدأ يغني.

- أقول لطفلتي إذا الليل برد

وصمت الربى ربا لا تحد

نصلي فأنت صغيرة

وإن الصغار صلاتهم لا ترد

بدأت رأسها تتمايل واستدعت صوت فيروز فانساب في أذنيها.

ثم رددت معه.

- أقول لجارتي ألا جئتي نسهر؟!

فعندي تين ولوز وسكر

نغني فأنت وحيدة وإن

الغناء يخلي انتظاركِ أقصر

ضحكت ثم رفعت رأسها إليه.

- كنت عايز تضحك عليه وتقولي عندك تين ولوز وسكر.

ضحك جلال كما لم يضحك منذ أن دخل الدار.

بدا جلال وزهيرة في ذلك اليوم كما لو كانا في بيتهم لم يغادراه.

●●●

كان حشمت يجلس تحت ظل إحدى أشجار الكازورينا بجوار الباب عندما اقتربت فتاة محجبة ووقفت أمام باب الدار، ظلت تنظر داخل الدار من خلف الباب الحديدي كما لو كانت تبحث عن أحد.

obeikan.com

اقترب حشمت منها وسألها.

- حضرتك عايزة مين؟

بدا عليها التردد والتفتت يمينًا ويسارًا وهمّت بالذهاب إلا أنها وقفت وقالت بصوت خافت.

- حضرتك تعرف الأستاذ جلال؟

نظر لها في ارتياب.

- انتي مين وعايزة إيه؟

- أنا مش عايزة حاجة أنا عايزاك توصله أمانة.

فتح حشمت الباب الحديدي ثم خرج ووقف أمامها.

- أمانة إيه؟

- عايزاك تديله الظرف ده.

مدّت يدها إلى حشمت بظرف أبيض مغلق يبدو منتفخًا قليلاً.

أمسك حشمت الظرف.

- إيه ده؟

- وصله للأستاذ جلال وبس.

Obeikan.com

- أيوا حضرتك مين وإيه ده؟!!!!

لم تمهله الفتاة فقد كانت تبتعد إلى الناحية الثانية من الشارع وركبت تاكسيًا كان ينتظرها، ظل حشمت يتابعها في التاكسي حتى اختفت ثم نظر إلى الظرف ومطّ شفتيه في تعجب ودخل وأغلق الباب.

●●●

كان ياسين يضع فنجان قهوة أمام أحد الزبائن في مطعم وكافيه كويت كورنر عندما دخل راجي دافعًا الباب بطريقة عصبية وهو يضع يده على خده، جلس على الترابيزة التي اعتاد الجلوس عليها، وضع ياسين كوب الماء بجوار الفنجان وتوجه مباشرة إلى راجي يلتمس أي خبر عن سبيل فقد أضاء قلبه ببصيص أمل بمجرد رؤية راجي.

- مساء الخير راجي بيه.

بعصبية وتوتر وهو يضع يده على خده.

- مساء النور هاتلي قهوة مظبوطة.

توقف ياسين لحظة يريده أن يقول أي شيء عن سبيل أي معلومة لكنه تراجع.

obeikan.com

همّ ياسين بالإنصراف فاستوقفه راجي.

- بقولك هي الآنسة اللي كانت بتيجي معايا مجتش هنا؟؟

- أصاب ياسين السؤال بالتوتر خاصة بعد أن رأى الغطاء الطبي الملتصق بخده.

- لأ مجتش هنا من آخر مرة كانت مع حضرتك.

نهض راجي في غضب وأشاح له بيده وهو يتجه إلى الباب.

- خلاص بلاش القهوة.

خفق قلب ياسين من القلق وأخرج هاتفه وطلب رقمها للمرة الألف.

سمع ذلك الصوت الذي ألفه طوال الأيام الماضية.

«الهاتف الذي طلبته ربما يكون مغلقًا أو خارج نطاق الخدمة».

ازداد قلقه واندفع الدم إلى رأسه.

- لازم فيه حاجة حصلت كلنا كنا مصدر خوف ليها حتى أنا ياريتني ما كنت كلمتها.

أكيد حصلها حاجة أصل الواد ده مش هييجي يسأل عليها هنا يعني؟!

والتعويرة اللي في وشه دي أكيد من سبيل؟!

Obeikan.com

ولو هي عورته كده يبقى هو عمل فيها إيه!!!!!!

ألقى ياسين الصينية من يده في فزع وخرج مسرعًا وراء راجي إلا أنه كان قد اختفى.

●●●

طوال الطريق من المطعم إلى مقهى الأفنديه في شارع فيصل لم ييأس ياسين من الاتصال برقم سبيل ولازال الصوت يأتيه الهاتف مغلق.

ألقت به الظنون إلى كل الاحتمالات، كان يشعر بالعجز ماذا يفعل أين يجدها؟؟

هبط أمام المقهى دخل شاردًا دون أن يكلم أحدًا، دلف إلى الركن الذي يجلس فيه فوجد فتاة تجلس مكانه، استدار فوجد عادل صديقه الذي أشار له ناحية الفتاة.

- الآنسة دي مستنياك من بدري.

في دهشة.

- مستنياني أنا!!

التفت ناحيتها كانت توليه ظهرها، تقدم إليها.

- مساء الخير.

وقفت الفتاة والتفتت إليه دون أن تتكلم.

توقف لحظة من هول المفاجأة قبل أن يصيح.

- سبيل!!

- ازيك يا ياسين؟

أمسك يديها بقوة فشعرت بألم في يدها الملفوفة بالشاش الأبيض وقالت في ألم.

- بالراحة إيدي.

مرر أطراف أنامله على حجابها الذي غير من ملامحها.

- أنا معرفتكيش إيه الحجاب ده؟

- إيه وحش؟

- زي القمر.

تطلعت إلى أعلى بعينين لامعتين وقالت بصوت متهدج.

- حسيت إني عايزة أغيّر حياتي كلها حتى شكلي.

أشار لها بالجلوس، التقت عيونهم كانت تفيض بالشوق، في حماس هتف ياسين.

- كنت هتجنن عليكي من كتر القلق.

obeikan.com

في ابتسامة مُزِجَت بالألم.

- متقلقش عليا عمر الشقي بقي.

- أنا آسف بجد.

- آسف ليه!

- إني خليتك تخافي مني.

بدت على ملامحها الدهشة.

- أنا مش خايفة منك بالعكس.

نظر إلى يدها التي يلفها الشاش.

- راجي اللي عمل فيكي كده؟؟

فغرت فاها من الدهشة.

- عرفت منين؟!

- من اللي عملتيه في وشه!!

- أنا مش فاهمة حاجة؟!

- راجي جه النهاردة المطعم وكان بيسأل عليكي وكان متعور في وشه.

obeikan.com

احكيلي إيه اللي حصل؟

قصّت عليه كل ما حدث فبدا عليه التأثر وقال في حزن.

- أنا آسف.

- إنت ليه قاعد تتأسف من ساعة ما قعدت؟!

- عشان مكنتش جنبك في اللي حصلك ده.

ابتسمت في خجل.

- بالعكس أنا كنت حاسه إنك جنبي وبتطمني.

ابتسم ابتسامة عكست راحة بداخله.

- يعني انتي مختفيتيش عشان قولتلك بحبك؟!!

ضحكت ضحكة طفولية وبدت الدهشة على عينيها.

- أختفى عشان قولتلي بتحبني! إزاي؟

- أنا طول الفترة اللي فاتت كنت هموت من الخوف والقلق لا أكون ضيعتك من إيدي.

نظرت إلى عينيه في ثبات.

- متخفش إنت مش ضيعتني إنت رجعتني.

obeikan.com

قطع كلامهم صوت فتاة في مثل سنها تقريبًا وقفت خلف ياسين.

- ازيك يا سبيل؟

نظرت إليها سبيل في دهشة.

- انتي تعرفيني؟

تدّخل ياسين.

- أحبّ أعرفك سندس خطيبة عادل أعز أصدقائي.

أكملت سندس.

- وشريكة في الكافيه.

ابتسمت سبيل بإعجاب.

- إيه ده إنت شريك في الكافيه؟

نظر إلى سندس وعاد فنظر إليها في ابتسامة.

- الكافيه ده حلمنا أنا وعادل من زمان.

- الحمد لله الضلع اللي كان ناقص كمل.

قالت سندس وهي تبتسم ثم نادت على عادل شاب متوسط الطول هادئ الملامح.

obeikan.com

- تعالى أعرفك على سبيل.

ترك عادل المنيو التي كانت في يده واقترب منهم، وضع يده على كتف ياسين ووضع الأخرى على كتف سندس وقال مبتسمًا.

- انتي سبيل؟!

مش قولتولي سبيل مش محجبة أنا معرفتهاش لما جات قعدت.

ضحكت سبيل وثبتت مقدمة حجابها بيدها.

- أنا نفسي معرفتنيش لما اتحجبت.

ضحك عادل وهو ينظر إلى ياسين.

- يارب المربع يفضل كامل.

- إن شاء الله ربنا مش هيفرقنا أبدًا.

قالت سندس وهم يضحكون.

●●●

كانت ليلة توسط فيها القمر السماء، بدا مكتملاً مطلاً بوجهه تمر من أمامه بين الحين والآخر سحابة صغيرة سرعان ما تختفي حياءً من وجهه المنير.

obeikan.com

اتكأ حشمت على الدكة الصعيدي وقد قنطر قدمه اليمنى وفرد اليسرى ملامسة الأرض وأمسك الهاتف.

- ألوو.

- أيوا يا بوي كيفك عامل إيه؟

- ازيك يا ولدي صاحيين ولا نمتوا؟

أنا صاحي وأمي صحيت على صوتي وأنا بكلمك.

- اديني أمك.

أخذت خديجة الهاتف وانزوت به في ركن الدار وفي صوت مضطرب.

- ألو.

- ازيك يا أم محمود؟

- ازيك أنت يا أبو محمود؟

في لهفه ودون مقدمات قال في فرح.

- عِدّي يومين والتالت تلاقيني قدامك.

في نبرة عتاب ولوم.

- يا مكتر ما عِدّيت أيامك النبي حساك كداب.

obeikan.com

ضحك واعتدل في جلسته على الدكة وقد أحس بالخجل من كلماتها.

- خلاص كبرت أنا على الكدب.

وضعت يدها الخالية على فمها تخفي ابتسامة كست وجهها.

- واللّه كانه الكدب بيكبر وياك.

تابعت في سخرية.

- كيفها الحتة القاسية اللي في قلبك كانها كبرت هي كمان.

تململ في جلسته وبدا على وجهه شيء من الكسوف.

- واللّه جاي وحياة لهفتك عليَّ جاي.

تابع في تأثر.

- من ميته وأنا حابب نومتي بعيد عنيكم واللّه دانا متغرب بالكدب كفاية نقوزة الخلق عليَّ.

أخذ نفسًا عميقًا ثم أردف.

- عارفة من يومين كلمني وصفي أخوكي من الأردن بقوله وحشتني البلد،

قالي كانك فاكر إنك متغرب تعالى عندينا وشوف الغربة اللي بحق.

obeikan.com

حسيتني زي اللي طلع على النخلة وجه في نصها وتعب لا منه قعد على الأرض ورضي بالبلح اللي واقع منها ولا منه طلع كل من اللي على الشواشي.

همست بصوت مختنق.

- أنا كل ما أفكر إني بيني وبينك نص نهار عقلي يشت من يوم ما دفنت أمك مجيتش غير مرة.

- جاي وهيبقى فيه خير ومين عارف يمكن نبطلوها الشغلانة دي!!

مسحت دمعة انحدرت على خدها بغتة.

- كلام يا حشمت كلام كام سنة بتصبرني لحد العمر ما راح.

أحس بصوتها المكتوم فعرف أنها تكتم دموعها فقال مداعبًا.

- انتي لساكي صبية واللّه.

لسه فاكر كلمة أمي عليكي قالتلي خديجة عفية بينك وبينها عشر سنين إنت تعجز وتفضل هي صبية.

ابتسمت ثم نظرت حولها خشية أن يلاحظ محمود تلك الأشياء النادرة على وجهها ابتسامتها وفي نفس الوقت دموعها.

obeikan.com

تابع حشمت في ود.

- قوليلي لو عايزة حاجة أجيبهالك؟

- عايزاك طيب.

فجأة انتبه حشمت أن جلال يقف أمامه.

ارتبك قليلاً ثم وقف وحك رأسه في خجل.

- طيب يا أم محمود زي ما قولتلك.

مع السلامة.

أغلق الهاتف ونظر إلى جلال.

- معلش يا بيه مختش بالي.

- لأ ولا يهمك بس أول مرة أخد بالي إن الصعايدة حنينين كده؟!

- والله يا بيه إحنا في قلوبنا طيبة وحنية بس صعوبة المعايش خلتنا قسينا على اللي منينا.

خبط حشمت جبينه بيده كأنما تذكر شيئًا.

- استنى يا بيه فيه حد جابلك أمانة.

obeikan.com

قطب جلال جبينه في دهشة.

- أمانة إيه؟!!

أخرج حشمت الظرف من جيبه وناوله إلى جلال الذي أمسكه بحذر وقلبه في يده قبل أن يفتحه.

أخرج جلال مبلغًا من المال من الظرف.

- دي فلوس!

نظر إلى حشمت وسأل مندهشًا.

- مين اللي جابها؟

- بنت محجبة شكلها تعرف حضرتك زين.

- مقالتش اسمها إيه؟

- ملحقتش أكلمها سابتهم ومشيت على طول.

قام جلال بعدّ الفلوس لعل قيمة المبلغ تذكره بشيء.

- دول مبلغ كبير خمس تلاف جنيه.

شرد جلال باحثًا عن أي شيء في ذاكرته يفسر الموقف ويعرف به من تكون تلك الفتاة.

Obeikan.com

من بعيد وقف شاب أسمر نحيف على الناحية الأخرى من الشارع ولوح بيده فرآه جلال فلوح له هو الآخر ثم نظر إلى حشمت وأشار بيده تجاه محمد.

- ده محمد اللي قولتلك عليه واقف الناحية التانية.

وقف حشمت وقد تلفت يمينًا ويسارًا قبل أن يفتح القفل ويخلصه من حلقات الجنزير الحديدي الذي يغلق به الباب، توجه ناحية الشاب الذي سلم عليه وأعطاه علبة كرتونية مربعة.

عاد حشمت وأغلق الباب وأعطى العلبة إلى جلال الذي فتحها فوجد هاتفًا محمول وفلاش ميموري ما كاد يمسك الهاتف حتى أنار معلنًا قدوم مكالمة.

- ألو.

- أيوا يا أستاذ جلال أنا محمد.

- ازيك يا حبيبي.

بص يا محمد يوم الحد اللي جاي الساعة ٤ الفجر هتستناني بره الدار.

اقترب جلال من الباب الحديدي حتى رأى محمد.

- إنت لو مشيت لقدام هتلاقي مبنى المفوضية إنت هتستناني بعده.

obeikan.com

- حاضر من عينيا.

- متتساش الحد فجر الاتنين.

- طيب مش عايز فلوس حضرتك؟؟

نظر جلال إلى الظرف الذي لا يزال يمسكه.

- شكرًا معايا الحمد للّه.

استدرك جلال.

- صحيح بقولك متكلمنيش إنت أنا هبقى أكلمك.

- حاضر أنا عشان كده عملت حسابي وشحنتلك الخط عشان يبقى معاك رصيد تكلمني.

تابع محمد في جدية.

- بص يا عمي بالرغم إني مش فاهم حاجة بس متشيلش همّ حاجة اللي أنت عايزه أنا هنفذه.

- كتّر خيرك يا ابني لما أخرج هحكيلك كل حاجة.

أغلق جلال الهاتف ثم وضعه في العلبة ونظر إلى حشمت في فرح.

- خلاص هانت يا أبو محمود.

- على البركة يا بيه.

obeikan.com

أخرج جلال ٥٠٠ جنيه من الظرف وناولهم إلى حشمت.

- إيه دول يا بيه.

- دول تجيب بيهم حاجة حلوة وانت مروح لأم محمود والولاد وتروح تقعد مع مراتك شوية هي الخير والبركة.

- حاضر يا بيه.

شرد جلال ناحية الباب ثم نظر إلى حشمت.

- إنت عارف أنا اكتشفت حاجة مهمة.

عندكوا في الصعيد بتقدسوا الأم والأب بس بتيجوا على الزوجة.

وفي القاهرة هنا بنيجي على الأب والأم وندلع الزوجة.

وفي الحالتين فيه حد بيتظلم.

في نبرة هادئة مليئة بالشجن نظر حشمت إلى جلال.

- محدش بياخدها كاملة يا بيه لازم يفضلك باقي.

●●●

انتصب راجي على سرير الفحص في العيادة بعد أن أنهى الطبيب التغيير على الجرح.

obeikan.com

وضع راجي يده على مكان الجرح وتحسس باقي خده.

- حضرتك مجاوبتنيش يا دكتور التنميل اللي حاسس بيه ده من إيه؟

أنا حاسس إن جنب وشي كله واقف وعيني اليمين مش عارف أقفلها وبقى شكلي مش طبيعي.

بدا على الطبيب التأثر وهو يكتب شيئًا في الدفتر أمامه، اقترب منه راجي حتى جلس أمامه.

- طمني يا دكتور؟

- تقريبًا التعويرة عملت قطع في العصب السابع هو اللي عاملك كده.

اصفر وجه راجي وتصبب العرق من جبينه رغم برودة الجو.

- إيه العصب السابع ده يا دكتور؟

- ده العصب اللي بيتحكم في عضلات الوش.

مال فمّ راجي ناحية اليمين في اعوجاج واضح.

- وده هيخف على طول ولا هيطوّل؟!

- إن شاء اللّه يخفّ.

opeikan.com

أنا كتبتلك على كريمات وقطرة لعينك وهيبقى معاه علاج طبيعي على وشك وتجيني كمان يومين نفك السلك ومتعرضش وشك لتيار هوا ساقع.

أمسك راجي الروشتة غير مصدق ما يحدث، دسها في جيب الجاكت الذي يرتديه في عدم اكتراث ثم غادر العيادة.

خارج العيادة أخرج راجي هاتفه وطلب رئيس القسم.

- ألوو مساء الخير أستاذ إبراهيم.

- مساء الخير يا راجي.

- أنا نفسيتي زي الزفت والعلاج هيطول ومحتاج أرجع الشغل؟

- مش هينفع غير لما تشيل اللزق اللي على وشك.

- أنا مش عارف حاسس الموضوع هيطول.

بصوت جاف.

- مش هقدر أعملك حاجة لما الجرح يخف وتشيل اللزق اللي على وشك ابقى تعالالي.

لم يستطع راجي الكلام أكثر من ذلك فقال في حنق.

obeikan.com

- شكرًا أستاذ إبراهيم.

- العفو مع السلامة.

بدا راجي مكتئبًا، طالت لحيته فهو لا يستطيع حلاقتها بسبب الجرح، يمضي يومه في البيت لا يغادره، لا يعلم شيئًا عن سبيل هاتفها مغلق دائمًا، كل شيء أصبح كئيبًا من حوله، أصبح عصبيًا.

وقف أمام أحد أكشاك بيع السجائر وقال في لا مبالاة.

- علبة سجاير لو سمحت.

- علبة نوعها إيه؟

- أي نوع.

ابتسم البائع وناوله علبة سجائر أخذها وانصرف دون أن يأخذ الباقي.

●●●

تأتي علينا أوقات في الحياة نشعر أنها مكررة، تتكرر الثواني والدقائق والساعات مكونة يومًا أو أيامًا تشبه بعضها البعض، يشعر معظمنا أنه يمشي بقوة دفع لا يتحكم فيها، لا يشعر باختلاف أي شيء فساعات الصباح كساعات المساء يستوي النوم

obeikan.com

واليقظة، يستوي الوقوف والجلوس، تستوي السعادة والحزن، كل شيء بدون طعم أو لون أو رائحة.

يمكن أن تأتي تلك اللحظات كل أسبوع أو كل شهر أو كل عام لكنها تأتي وكأن الحياة هي أيضًا تريد أن تستريح فتختار بعض اللحظات أو الأيام في حياة كل منا وتنسخها ثم تكررها وتكررها مختلسة بعض لحظات الراحة، وبعد التقاط الأنفاس واستعادة الحماس تقوم بعدها الحياة مندفعة تعوض ما فاتها في لحظات الركود فتتوالى الأحداث حتى أننا لا نكاد نحصي ما يحدث خلال اللحظة الواحدة.

كان اليوم يوم الجمعة بدا يومًا مكررًا من أيام الدار رتيبًا مملاً خيم السكون عليها كأنها المقابر، النزلاء في أماكنهم شاردون لا يتحركون.

غرق حشمت في ذكرياته ولحظة اللقاء التي طال انتظارها يتخيل أولاده وزوجته وهم في أحضانه.

يجلس جلال في غرفته ساكنًا تمر اللحظات عليه ثقيلة بطيئة، يحلم بتلك اللحظة التي يصبح فيها خارج الدار هو وزهيرة حتى العصافير وقفت ساكنة على تلك الأفرع الذابلة تحرك رأسها يمينًا ويسارًا تداعب ريشها في ملل منتظرة أن تنهض الحياة من غفوتها.

obeikan.com

غربت الشمس مثلما أشرقت، سكنت الدار في مسائها مثلما سكنت في صباحها.

مرّ ذلك اليوم والتقطت الحياة أنفاسها واستراحت.

●●●

استيقظ حشمت مبكرًا يلملم أشياؤه، حزم حقيبته الجلدية بنية اللون والتي حوت كل ما يملكه من متاع، لفَّها بحبل أبيض من حبال الغسيل القطنية فقد فقدت السوستة أسنانها منذ سنين.

أزاحت سعاد الباب الحديدي بقدمها في مشهد متكرر إلا أن شخصًا في العقد الخامس أشيب الرأس طويل القامة ضخم الجثة أسمر اللون يرتدي جلباب بحراوي ويمسك بيده حقيبة من القماش أشبه بمخلة عساكر الجيش دلف خلفها من الباب.

توقفت أمام حشمت الذي نهض إليها وحيته في روتين.

- صباح الخير.

- صباح الخير يا ست سعاد.

أشارت إلى ذلك الضخم الذي وقف خلفها كحارس شخصي.

- ده سيد غفير مزرعة مدكور بيه سلمه المفاتيح وفهمه النظام.

نظر إلى سيد مرحبًا.

- يا مرحب يا حاج سيد.

في ملامح ثابتة.

- مرحب بيك.

تحركت سعاد ناحية مكتبها.

- هسيبكم مع بعض.

رحب حشمت بالضيف وأجلسه على الدكة وسأل في فضول.

- أمال وين أبو أمير؟

- أبو أمير ساب المزرعة ودلوقتي مع مدكور بيه في الفيلا.

ضرب حشمت كفًا بكفّ في تعجب حاول إخفاءه وقال في تملق.

- كان راجل طيب ميتخيرش عنك.

في ثبات.

- اللّه يخليك.

نهض حشمت وأخرج كنكة الشاي والأكواب وشرع في إعداد الشاي.

- إيه نظام الدار هنا؟؟

سأل سيد.

- الدنيا هادية هنا بعد الساعة ٤ مفيش أي حد بيخرج ولا يدخل والست سعاد بتكون مشيت.

فيه واحدة بس اسمها مدام ثريا ست كبيرة بتخرج الساعة ١٠ الصبح وتعاود الساعة ٢ بتبيع حاجات قدام المدرسة اللي في أول الشارع وبعد الساعة ٩ الكل بيروح ينام مش هتسمع أي صوت.

- تمام فيه حاجة تاني؟

- الست سعاد بقى لو طلبت حاجة هتقولك عليها.

مدّ حشمت يده بكوب الشاي إلى سيد.

- أنا هسيبك قيمة ساعتين أقضي شوية حاجات للولاد وأجيلك.

- اتفضل خد راحتك.

خرج حشمت من الباب ووقف سيد فأغلق الباب وألتفت يتأمل الدار.

●●●

ابتعد حشمت حتى ذاب وسط زحام الشارع ثم أخرج هاتفه وطلب رقمًا.

- ألوو أستاذ جلال.

- صباح الخير يا أبو محمود.

قالها جلال وهو لا يزال نائمًا على السرير.

- بقولك يا بيه أبو أمير اللي كلمتك عنه اللي كان هييجي غفير بدالي مش هو اللي جه

واحد تاني اسمه سيد.

انتفض جلال من على السرير واقفًا.

- وبعدين يا حشمت.

- مش عارف والله يا بيه.

بدت على جلال الحيرة وسأل فى توتر

- واللي جه ده شكله عامل إزاي وظروفه إيه؟!

- والله هو شكله ميطمنش كلامه قليل وحاجة كده زي الجاموسة.

شرد جلال وساد الصمت لحظات قال حشمت في تأثر.

obeikan.com

- هتعمل إيه؟

في إصرار من لا يجد سبيلاً آخر.

- هنكمل زي ما اتفقنا.

- فكّر زين يا بيه.

- توكل على الله متنساش اللي قولتلك عليه.

- تحت أمرك.

عايز حاجة أجيبهالك؟ أنا رايح العتبة هجيب شوية هدوم للولاد.

- أنا عايزك تجيب معاك شنطة سفر صغيرة كده من اللي بتتعلق في الكتف دي وتحط فيها الحاجات اللي هقولك عليها.

أملاه جلال بعض الأشياء التي يريدها.

في تعجب!!

- هتعمل إيه بكل الحاجات دي؟

- بعدين هتعرف.

- حاجة تاني يا بيه؟

- شكرًا ولما تيجي قولي حساب الحاجة كام؟؟

obeikan.com

- خيرك سابق يا بيه.

- إنت هتيجي إمتى؟

- مش هتأخر قيمة ساعتين.

- هشوفك فين؟

- عند الست سعاد أنا لازم أوريلها الحاجات اللي أنت طلبتها مني وهتبعت تاديك تديهالك.

- اتفقنا بس خلي بالك.

- سيبها على الله يا بيه مع السلامة.

- مع السلامة.

●●●

على ناصية أحد شوارع أبو قتادة حيث يقع محل فكهاني وخضري الباشا وقفت سبيل ممسكة بوعاء بلاستيك تنتقي بعض الخضار والفاكهة عندما فاجأها صوت من خلفها.

- هو انتي فاكرة لما تتحجبي مش هعرفك؟!

التفتت مذعورة وسقط منها ما كانت تمسكه وتسمرت دون أن تنطق.

obeikan.com

كان مازن يقف أمامها متكئًا على أحد أقفاص الفاكهة وينظر إليها في ملامح جامدة، أردف في برود.

- وقافلة تليفونك كمان!!!

بعصبية وارتباك.

- إنت ماشي ورايا؟

إعتدل واقترب منها.

- مش محتاج أمشي وراكي أنا ممكن أجيبك من أي مكان.

تمتمت في ضيق وهي تنظر حولها.

- مش هينفع نتكلم هنا اسبقني عند المحل بتاعك.

تحرك مازن وهو يرمقها بطرف عينيه.

دفعت ثمن الأشياء التي اشترتها وغادرت المحل.

عند ناصية شارعها وقف مازن أمام محله القديم يؤرجح سلسة في يده.

توقفت سبيل أمامه.

- فيه إيه؟

obeikan.com

- أنـا اللـي فيـه إيـه قافلـة تليفونـك ومـش بتيجـي ومنفضـة للشـغل؟!

- قولتلك ماما تعبانة وقاعدة جنبها.

- وتليفونك المقفول دايمًا؟!

- الشريحة اتحرقت فجبت خط تاني.

حدجها بنظرة صارمة.

- مش مهم كل ده.

لازم تعرفي حاجة مهمة؟؟

أنا لما أعوز أجيبك هجيبك.

صاحت به في حنق.

- إنت بتكلمني كده ليه كأني سرقت منك حاجة وهربت.

رمقها بنظرته الباردة.

- مش مهم بكلمك إزاي المهم الشغل.

أنا عندي كام حتة موبايل عايزك تصرفيهم وعايزك تجيبيلي مفاتيح شقة الواد راجي عايز أنقل فيها بضاعة جاتني.

تمتمت في نفسها.

- البضاعة المسروقة يا ابن الحرامية- ثم قالت في انكسار وهي تنظر إلى يدها التي لا تزال ملفوفة بالشاش.

- أنا قطعت علاقتي مع راجي.

- بتقولي إيه؟ يعنى إيه قطعتي علاقتك هو لعب عيال ولا إيه؟

اغرورقت عيناها بالدموع وقالت في ألم.

- إنت مش عارف كان عايز يعمل إيه؟؟

ببرود.

- هيكون عايز إيه يعني؟

- كان عايز يغتصبني.

بابتسامة ساخرة.

- هو انتي مكنتيش ممشية أمورك معاه ولا إيه؟

صاحت في غيظ.

- إنت عارف إن أنا مش كده؟؟

أمسكها من ذراعها بقوة وجحظت عيناه وبصوت ملأه التهديد.

obeikan.com

- أنا ميهمنيش انتي إيه ولا بتعملوا إيه مع بعض أنا يهمني الشقة سامعة ولا لأ؟؟

أردف وبرزت نبرة التهديد في صوته.

- قدامك أسبوع تكوني جايبة المفتاح ويكون لمّ العفش اللي فيها؟؟

دمعت عيناها وهمّت بالإنصراف فاستوقفها وأطبق يده على معصمها .

- وإياكي تعملي الحركات دي تاني معايا؟؟

نفضت يدها من بين أصابعه وتركت الخضار الذي اشترته ملقى على الأرض وانصرفت باكية بين كفيها .

●●●

من نافذة غرفته أطل جلال ناحية البوابة محاولاً استكشاف الخازن الجديد فلم يرَ له أثرًا .

- لازم كامن جوه الكوخ مستني حد يحاول يخرج فينقض عليه.

يا ترى شكله إيه؟

رسم جلال صورة مما سمع من حشمت.

ebeikan.com

- لازم شخص قاسي الملامح أطول شوية من حشمت أو يمكن أتخن منه ولازم له شنب تقيل ومناخيره ضخمة.

نفض جلال رأسه.

- إيه اللي أنا بقوله ده هو أنا هخوف نفسي من قبل ما أشوفه!!!

فجأة خرجت رأس ضخمة من الكوخ، ثم انتصبت فبدا طول الجذع الذي تعلوه.

سمع جلال من حشمت عن سيد لكن ليس السمع كالعيان، تلفت سيد يمينًا ويسارًا كأنه أحس بجلال تمامًا كما يفعل البولدوج حين يشتم رائحة غريبة، دخل سيد مرة أخرى إلى الكوخ.

تمتم جلال بينه وبين نفسه.

- إيه الوحش ده اللي جايبينه يحرس شوية عواجيز؟؟

لكن مفيش مجال للتراجع قضي الأمر.

قال جلال في إصرار.

لحظات وبدا من بعيد حشمت يقترب من البوابة حاملاً حقيبتين كبيرتين.

ob eikan.com

وقـف سـيد عندمـا طـرق حشـمت علـى البوابـة فقـام وأزال الجنزيـر وفتـح البوابـة، أراح حشـمت الحقيبتـين علـى الأرض وأدخـل أكبرهمـا إلـى الكـوخ وحمـل الأخـرى متوجهًـا إلـى المبنـى الكبيـر.

عـرف جـلال أن تلـك حقيبتـه التـي طلبهـا مـن حشـمت، هبـط جـلال مـن غرفتـه يريـد إدراك حشـمت قبـل أن يدخـل إلـى سـعاد.

قبـل أن يتجـاوز حشـمت الحديقـة أمـام المبنـى الكبيـر همـس جـلال إلـى حشـمت فالتفـت وراءه وتوقـف حتـى أدركـه جـلال فقـال وهـو يلهـث وتتلاحـق أنفاسـه.

- استنى هدخل معاك.

- خلعتني يا بيه فكرت فيه حاجة؟؟

- متخافش مفيش حاجة إن شاء الله.

جبت الحاجة؟؟

رفع حشمت الحقيبة أمام جلال.

- كله تمام يا بيه.

أمسـك جـلال الحقيبـة وفتحهـا، راجـع كل شـيء طلبـه مـن حشـمت.

نظر له حشمت.

- الحاجه مظبوطة؟

- أكتر من مظبوطة تسلم إيدك.

بكام الحاجة؟

- يا بيه دي حاجة بسيطة يا بيه وكنت مبسوط وأنا بجيبها بس الحاجة اللي حزت في نفسي وكنت مقهور وأنا بجيبها العقد بتاع مخفية الأجل زينب.

- يا حشمت دي بت غلبانة.

- دي كل البلاوي من وراها كل حاجة بتنقلها لسعاد أنت بس اللي طيب يا بيه.

- متبقاش انت والزمن عليها.

أخرج جلال مائتي جنيه دسها في يد حشمت، أخذها حشمت والتفت يمينًا ويسارًا ثم دسّ شيئًا صغيرًا كان في جيبه في يد جلال الذي أخذه دون أن ينظر إليه ووضعه في جيبه.

دخل الاثنان إلى مكتب سعاد التي أخفت رأسها خلف الكمبيوتر، تنبهت لهم فرفعت رأسها ونظرت إليهم بدهشة.

- خير مالكم فيه حاجة يا أستاذ جلال؟

obeikan.com

نظر إلى حشمت الذي رفع الحقيبة التي في يده على جانب المكتب.

- الأستاذ جلال طلب مني أجيبله الحاجات دي من العتبة وأنا قولتله هجيبهالك بس لازم الست سعاد تشوفها قبل ما تدخلها الدار.

نظرت سعاد إلى الحقيبة ثم إلى جلال.

- إيه اللي في الشنطة؟

تقدم جلال وفتح سوستة الحقيبة ودسّ يده فيها فأخرج زجاجة برفان بيضاء برائحة الفل ومدّها إلى سعاد في ابتسامة.

- دي حاجة بسيطة علشانك يا ست الكل.

ابتسمت سعاد وأمسكت الزجاجة وفتحتها ثم قربتها إلى أنفها.

- اللّه حلوة أوي.

عرفت منين إني بحب الفل؟

بإطراء مبالغ فيه.

- الفل للفل يا ست الكل.

obeikan.com

ابتسمت في تلذذ فأردف جلال.

- الحمد لله إنها عجبتك.

أخرج جلال باقي محتويات الحقيبة، أمسك بكراسة رسم وألوان.

- دول لأم نبيل عشان ترسم.

ثم أخرج عقدًا من حبات العقيق الملون يبدو طفوليًا.

- وده لزينب البنت الغلبانة اللي بتشتغل معاكي هنا.

ازدادت ابتسامة سعاد ثم سألت.

- فيه حاجة تانية؟!

أشار جلال إلى الحقيبة نفسها.

- أما الشنطة دي فلمدام ثريا تحط فيها حاجتها.

نظرت سعاد نظرة جدية مصطنعة.

- مفيش مانع كلها حاجات مسموح بيها.

أخذ جلال يضع الأشياء في الحقيبة مرة أخرى.

- أستأذنك هروح أديلهم الحاجة.

obeikan.com

- اتفضل خد راحتك.

لملم جلال الأشياء في الحقيبة وأمسك بشيء صغير كان في الحقيبة أطبق عليه يده دون أن تلاحظ سعاد.

قبل أن يخرج جلال من الغرفة أخرج حشمت من جيبه ثلاثة مفاتيح صغيرة تربطهم دوبارة قديمة ثم قدمهم إلى سعاد.

- دول مفاتيح البوابة وفهمت عم سيد كل حاجة أنا همشي بعد المغرب عشان ألحق قطر الساعة ٨.

- ماشي يا حشمت تروح وتيجي بالسلامة.

ابقى سلم على الأولاد.

قالت سعاد في اقتضاب.

خرج حشمت وجلال خارج مكتب سعاد وقف الاثنان بعيدًا عن باب المكتب ونظر كلاً منهما إلى الآخر، فرد جلال ذراعيه ثم احتضن حشمت.

- أشوف وشك بخير يا أبو محمود.

تهدج صوت حشمت وبدا عليه التأثر.

- والله يا بيه هتوحشني وهيوحشني كلامك.

- إن شاء الله لو كان في العمر بقيه هنتقابل.

- ابقى طمني يا بيه.

- ربنا هيسترها بإذن الله.

- هيسترها معاك عشان أنت راجل طيب.

صافحه حشمت بحرارة ثم انصرف.

أمسك جلال الحقيبة ثم دلف إلى حجرة الترفيه، اقترب من أم نبيل التي جلست في مكانها كأنها لم تغادره.

أخرج لها كراسة الرسم وعلبة الألوان وقال في صوت دافئ.

- أنا جبتلك دول عشان ترسمي اللي انتي عايزاه وتبعتي لنبيل وهو يبعتلك.

أضاء وجهها بابتسامة صافية واحتضنت الكراسة والأقلام، كانت ثريا تراقب الموقف من مكانها وهي جالسة في طرف الغرفة الآخر فاقتربت منه وقالت في صوتها المبحوح.

- جزاك الله كل خير يا أستاذ جلال على حنيتك.

التفت لها في ود.

- انتي اللي علمتيني الحنية وياريت تقبلي مني الشنطة دي؟

obeikan.com

مدّ جلال يده بالحقيبة بعد أن أخذ منها عقد زينب.

أمسكت ثريا الحقيبة في فرح ثم جلست على الأرض وأفرغت الكيس البلاستيك الذي لا يفارق يدها على حجرها ثم أخذت ترص أكياس الشامبو وزجاجات الزيت في الحقيبة الجديدة.

انسحب جلال من جانبهم تاركهم في سعادتهم وهو يرى أجمل ابتسامة يمكن أن تراها على وجه أحد.

ابتسامة من وجد أحدًا يحبه وسط دنيا لفظته.

خرج جلال من باب الغرفة فالتقى ألفت، سألها عن زينب فاندهشت لسؤاله ولكنها أخبرته أنها تجلس خارج باب الدار قرب البرجولة.

رآها جلال تجلس على الأرض تمسك في يدها عصا رفيعة تخط بها في التراب كطفلة صغيرة، اقترب منها حتى جلس بجوارها، انتفضت مبتعدة عنه وهي تنظر إليه في ترّقب وقال لها معاتبًا في رقة.

- مش هتبطلي تخافي مني؟!!!

ظلت تنظر إليه ولم تنطق.

- مش قاعدة ليه جنب عم زكريا؟

- زهقت منه.

أخرج العقد الملون الذي أضفت عليه أشعة الشمس بريقًا وجمالاً ومده لها، لم تقاوم بريقه أو تسأله ما هذا أو بأي مناسبة، غلبت عليها براءتها والتقطته وقربته في تلقائية ناحية عنقها الأسمر النحيف، أمسكه جلال منها بيديه وفك أطرافه ثم ألبسها إياه.

لم تنطق سوى بثلاث كلمات لم يذق جلال أعذب ولا أصدق منهم.

- أنا بحبك أوي.

ابتسمت وأخذت تقلب العقد ثم قفزت في فرحة وأطلقت لساقيها العنان في الحديقة تمشي وتقفز وتدور حول نفسها.

نهض جلال واتجه ناحية البرجولة حيث يجلس زكريا وحيدًا يكتفي بالمراقبة.

اقترب منه وجسا عند قدميه، قرّب أنامله برفق إلى أذنه فأخرج السماعة وفتح غطاءً صغيرًا في أسفلها ثم دس في تلك الفتحة حجرًا معدنيًا صغيرًا ثم أغلق الغطاء وأعادها إلى أذنه.

وبصوت دافئ.

obeikan.com

- ازيك يا عم زكريا؟

تلفت زكريا حوله كمن أفاق من غيبوبة.

- إنت سامعني؟

دمعت عيناه وأومأ برأسه إيجابًا، كان كمن يحاول أن يبحث في ذاكرته عن كلمات ينطقها، وجد جملة طالما سمعها في الأعياد والمناسبات عندما يأتي أحد ليزور الدار.

- كل سنة وانت طيب.

ابتسم جلال وربت على كتفه.

- وانت طيب وبخير وصحة يا عم زكريا.

أمسك زكريا يد جلال التي تستند بجواره على يد الكرسي المتحرك وانحنى عليها يريد تقبيلها، سحبها جلال حياءً منه ومسح دمعة انحدرت على خده المتشقق وهمس.

- لما تيجي زينب قولها تاخدك عشان تتفرج على التلفزيون في القاعة.

ارتعدت شفتا زكريا في ابتسامة شكر وقف جلال يهم بالرحيل قبل أن يسمع زكريا يهمس في صوت أجش.

- كل سنة وانت طيب.

obeikan.com

ابتسم جلال وأطرق إلى الأرض وخطا خارجًا من البرجولة.

أخذ زكريا يتلفت حوله متتبعًا أصوات العصافير التي كانت تقف دائمًا على أطراف البرجولة.

●●●

تناثرت قطع الملابس في كل مكان، عبوات من البلاستيك والزجاج والكرتون والصفيح ملقاة فارغة في كل ركن، ما بقي من أماكن احتلته السجائر عبواتها وأعقابها ورمادها.

في غرفة صغيرة مطلة على الصالة تمدد راجي مستقبلاً السرير بذراعيه، يضع جانب وجهه الأيسر على الوسادة ثم يتقلب في ضجر وملل فينام على ظهره، حُرِّم ذلك على جانبه الأيمن.

كان يشعر برغبة شديدة في النوم على جانبه الأيمن كأن الراحة والنوم يقبعان في ذلك الفعل الصغير، هكذا يظل سائر الجسد يتداعى بالسهر والحمى حتى يبرأ شريكهم من جرحه، طالت لحيته وانتفخت عيناه، كان الوقت لا يمر، يتحسس جرحه مائة مرة في الثانية الواحدة كأن أنامله تتابع التئامه لحظة بلحظة، بعد أن أزال الخيوط الدقيقة من الجرح ورغم مهارة الطبيب إلا أن الجرح ترك أثرًا قبيحًا على خده الأيمن، كان ما يؤلم راجي أكثر من قبح الأثر ذلك الخدر الذي يشعر به في خده، امتد

ذلك الإحساس إلى شفته كانت تميل ناحية اليمين في شكل غير طبيعي، لم تجدِ جلسات العلاج الطبيعي نفعًا، كان لا يستطيع أن يغلق عينه اليمنى فأصابها الجفاف مما استلزم وضع قطرة مرطبة بشكل مستمر.

نهض راجي متثاقلاً ودخل الحمام وشرع في حلاقة ذقنه، بدت ملامحه غريبة عليه في المرآة.

أخذ يمرر الشفرة بحذر قرب الجرح يود لو أن الشفرة تستطيع أن تمحوه كما تمحو الشعر الذي تمر عليه، أنهى حلاقته وأحضر ما سيرتديه غدًا بجوار السرير.

استلقى راجي على ظهره شاردًا.

- لازم أوصلها مش هسيبها؟

إنت شاغل نفسك بيها ليه زيها زي أي واحدة عرفتها وخدت اللي عايزه منها.

تحسس جرحه.

- واللي عملته فيَّ!!!

إنت اللي استعجلت وكنت عايزها غصب عنها ودي زي القطة لو زعلتها تخربشك.

بس أنا بحبها.

متضحكش على نفسك أنت أصلاً متعرفش عنها حاجة ومكنتش عايز تعرف.

أنت كنت عايزها تحتك على السرير.

أنا مش قادر أنساها يمكن في الأول كنت عايز جسمها بس دلوقتي لأ.

إنت مش قدامك غير إنك تنساها مش هتعرف توصلها.

هقلب الدنيا عليها.

إنت حتى متعرفش اسمها بالكامل ولا ساكنة فين متضحكش على نفسك وحاول تنساها.

هوصل لها وبعدين هدوسها بالجزمة.

دفس راجي وجهه في الوسادة متوسلاً للنوم أن يرحمه.

●●●

حين تجلس إلى الذئاب وتأتي أفعالهم يألفوك وتكون واحداً منهم يصولون ويجولون في الغابة لا ينتبهون إلى وجودك، أما حين تنفر من رائحتهم وتشمئز من أفعالهم وتسلك طريقًا غير طريقهم يقطعون عليك كل طريق ويسلكون إليك كل مسلك، كيف لا تستمر

obeikan.com

معهم كيف لا تكون مثلهم يتراقصون أمامك تارة ويكشرون عن أنيابهم تارة أخرى، مع أن الذئاب من بني جنسهم كثير لكنها النفس ترغب دائمًا من يتمنّع عليها.

- نفسي أمسح اللي فات بأستيكة.

قالت سبيل وهي تجلس دامعة العينين في شرفتها، واستدركت.

- ما كان بيختفي بالشهور ميعرفش عني حاجة ولا شغله واقف عليا وممكن يجيب ١٠٠ شقة اشمعنى أنا؟!

ده عمره ما جه ورايا ولا راقبني كده ولا كلمني كده؟!!

صمتت لحظات فهمس صوت في رأسها.

- ده اختبار الثبات على الموقف ربنا بيمتحنك.

أنا خايفة ومش عارفة أعمل إيه؟!!

مش من الأول هتخافي ممكن يبقى فيه أكتر من كده بس لما بتعدّي الامتحان بترتاحي طول عمرك واللي بيحصل ده دليل إنك صح ومتخافيش ربنا هيبعتلك علامات عشان هو عايزك تنجحي مش عايز يسقطك!!

نظرت إلى السماء ورفعت كفيها تريد أن تدعو لكنها توقفت لم تدرِ ماذا تقول، أرادت أن تبدأ دعاءها قائلة.

- يارب أنا عمري ما عملت حاجة غلط.

راجعت نفسها وخجلت أن تكذب على الله فهي تعلم أنها ارتكبت أخطاء كثيرة، ماذا تقول، فكّرت قليلاً فلم تجد شيئًا يليق أن تذكره أمام الله.

افعل خيرًا واجعله بينك وبين الله لا تخبر به أحدًا ادخره للحظة تخلو بها معه تدعوه به.

قالت أخيرًا في صوت ضعيف منكسر.

- يارب ماليش غيرك.

أحست براحة في قلبها لم تشعر بها من قبل.

حين تقرّ بضعفك وقلة حيلتك وترفع يديك إلى الله تطمع في كرمه ينزل سكينته على قلبك بل إن الله من قبل أن تدعوه يطّلع على حال قلبك فإن رآه متعلقًا به منكسرًا ألهمك كلمات تدعوه بها يحبها ثم يقبلها منك، فكيف يلهمك الدعاء ولا يستجيب.

كانت سبيل تتصفح الفيسبوك عندما لمحت صورة سيدة حليقة الرأس، كُتِبَ تحت الصورة تعليق يقول.

«السرطان عامل زي الوحش عايش جواك بيمصّ في دمك مش بتحس بيه لكن مع أول إبرة بتدخل جسمك بالعلاج ويحس

obeikan.com

إنك كشفته وابتديت تتعالج الوحش ده بيصحى ويبدأ يهاجمك بجنون بيبقى عايز يدمرك بأسرع ما يمكن.

فكل ما ابتديت تتنبه للوحش ده من بدري بنقدر نهزمه».

مع تحيات الحملة القومية للكشف المبكر عن سرطان الثدي.

تمتمت سبيل بكلمة واحدة قبل أن تغلق هاتفها.

- العلامة!!

●●●

طالما شعر حشمت بتلك الانقباضة في قلبه كلما دخل محطة قطار الجيزة، تجاوز الباب الرئيسي ووضع حقائبه البسيطة على ماكينة كشف المعادن، لفّ رقبته بشاله الصوف فأخفى نصف وجهه.

وقف منتظرًا على الرصيف المتجه إلى الصعيد، مرّت دقائق الانتظار طويلة فقد وصل مبكرًا عن موعد القطار بساعة كاملة فـ «القطر مبيستناش حد» كما قال له الأسطى حنفي يوم أن ترك بيته لأول مرة، لا يذكر حشمت أن سمع ممن سافروا بالقطار أن قطارًا متجهًا إلى الصعيد أو قادمًا منه قد أتى في موعده أو رأى هو في المرات القليلة التي سافرها لكنه فجأة سمع صافرة القطار المميزة ووقع عجلاته الثقيلة تضرب على القضبان الحديدية في

إيقاع يدغدغ القلوب ويحيي الذكريات وأتى ذلك الصوت المميز من الميكروفون «قطار رقم ١٨٨ القاهرة أسوان على رصيف المحطة» نفس الصوت بنفس الأداء لم يتغير غير معقول لابد أن هناك كثيرًا من الأشخاص يتناوبون على النداء حتمًا إنها الميكروفونات هي من تفعل ذلك، لقد وصل القطار القشاش الشهير في موعده في سابقة لا بد أن تُذكر غدًا في عناوين الصحف.

رمى حشمت نفسه وسط المتزاحمين على أحد أبواب عربة توقفت أمامه فالقاعدة تقول لا يهم أي عربة تركب اصعد القطار أولاً ثم ابحث في العربات عن مقعد.

تأخر القطار أكثر من نصف ساعة حتى تحرك أخيرًا كأنما خشي أن يتعود الناس منه الانتظام.

من النافذة لمح حشمت مشهدًا آخر بات مألوفًا في المحطة، رجل يحمل حقيبة وسيدة تمسك طفلاً وسبتًا من الخوص على رأسها يحاولان اللحاق بالقطار المتحرك.

دائمًا هناك من يتأخر أكثر من المتأخر.

بدأ حشمت رحلة العودة إلى الجذور.

●●●

وصل راجي مبكرًا إلى الشركة جلس في مكتب رئيس القسم، كان كل من يحضر من زملائه ويراه من خلف الزجاج يذهب ويحمد الله إليه بالعودة إلى العمل.

لازال راجي يشعر بالتوتر ويداري وجهه، كان يبذل مجهودًا مضاعفًا حتى يبدو في حالة طبيعية، كان يراجع في نفسه ما سيقوله للأستاذ إبراهيم.

جلس بحيث يكون جانبه الأيمن ليس هو المواجه، أخذ يدلك أعلى ذقنه وشفته من الناحية اليمنى كما علمه دكتور العلاج الطبيعي حتى تبدو حركة وجهه طبيعية في الدقائق التي ستحدد مصير عودته.

دخل الأستاذ إبراهيم مكتبه بخطواته السريعة الثابتة، وضع حقيبة يحملها جانبًا.

حيا راجي ثم جلس على مكتبه.

- إيه الأخبار؟

سأل إبراهيم وهو ينظر إلى راجي.

- الحمد لله.

أشار له إبراهيم أن يميل بوجهه ناحيته حتى يرى الجرح.

obeikan.com

توتـر راجـي وتشـنجت عضـلات خـده وبـدأت شـفته تميـل إلـى اليمـين، لاحـظ إبراهيـم ذلـك فقـام بفتـح الـلاب تـوب الخـاص بـه أمامـه وقـال بنبـرة هادئـة تخلـو مـن أي مشـاعر.

- أنـا شـايف الجـرح سـايب أثـر بـس مـش كبيـر لكـن أنـا حاسـس إنـك لسـه عايـز تريـح أعصابـك شـوية.

بعصبية لم يتحكم بها.

- أنا اللي هيريح أعصابي إني أرجع شغلي.

ببرود مستمر.

- هو الدكتور قالك إيه بالظبط؟!

- قالـي إن فيـه كام جلسـة عـلاج طبيعـي علـى وشـي والتميلـة اللـي في وشـي هتـروح.

أزاح إبراهيم اللاب جانبًا ونظر إلى راجي.

- بـص يـا راجـي إنـت مـن النـاس الشـاطرة اللـي العمـلا بيشـكروا فيهـم وليـك سـمعتك عشـان كـده أنـا مـش عايـزك تسـتعجل في الرجوع إلا لمـا تبقـى في كامـل لياقتـك.

أنــا حاســس إن فيــه رعشــة في وشــك وشــفتك وده ميصحــش يشـوفه عميـل انـت بتحللـه مشـكلة أو بتقنعـه بخدمـة فمتسـتعجلش.

بدا الارتباك أكثر على وجه راجي وتحسس بتلقائية جانب وجهه الأيمن وشفته.

- طيب أرجع الشغل وانقلني الدعم الفني.

- الموضوع مش بإيدي ده في إيد رئيس القطاع.

صمت إبراهيم لحظات ثم استطرد.

- يا عم أديك في أجازة هو حد طايل.

استسلم راجي فقد بدأ يشعر بألم شديد في عينه، كان يريد أن يضع بعض قطرات من القطرة المرطبة لكنه تمالك نفسه حتى لا يفعل ذلك أمام إبراهيم فقرر الانسحاب قبل أن يسوء الوضع.

- ممكن أدخل أسلم على زمايلي وأقعد معاهم شويه؟

- طبعًا اتفضل.

خرج راجي ثم دلف إلى صالة الجمهور وسلم على الجميع ثم جلس إلى صفوت القائم بعمله على شباك رقم واحد.

مال عليه في حذر وهمس بصوت خفيض.

- عايزك تدورلي على بيانات عميل.

obeikan.com

أشار صفوت إلى عينيه في ابتسامة.

- من عينيا اسمه إيه؟

- أنا مش عارف الاسم بالكامل بس اعمل بحث بالمنطقة؟؟

منطقة أبو قتادة.

قالها راجي وقد زفر نفسًا ملتهبًا فتح صفوت قاعدة البيانات الخاصة بالعملاء الخاصة بمنطقة أبو قتادة.

ظهرت على شاشة الكمبيوتر جميع السنترالات ومحلات السايبر في أبو قتادة، وقف صفوت على خانة الاسم فظهرت الأسماء.

نظر راجي إلى صفوت مشيرًا إلى الجهاز.

- اسمه مازن.

مر صفوت بالماوس حتى وصل إلى ثلاثة أسماء يبدأ الاسم الأول بمازن.

نظر راجي بتركيز على نوع نشاط كلٍّ من الثلاثة.

تذكر الاسم جيدًا عندما نطقته سبيل حين كانت تجلس أمامه في نفس المكان قبل شهور.

obeikan.com

- مازن عبد التواب سرور.

نطقه راجي وابتسم إبتسامة ظافرة كأنما وجد كنزًا.

دوّن رقمًا أرضيًا للسنترال وكذلك العنوان بالتفصيل وشكر صفوت وحيا زملاءه ثم انصرف.

●●●

كان ضوء النهار يتسلل برفق مزيحًا عتمة الليل أمامه، تهادى القطار على محطة صدفا آخر مراكز محافظة أسيوط جنوبًا فوقف الركاب أمام أبواب العربات، وقف حشمت يخفق قلبه على وقع عجلات القطار التي أصدرت ذلك الصرير المميز نتيجة احتكاك فرامل القطار بالعجلات الحديدية، توقف القطار تمامًا، هبط الركاب سريعًا خوفًا من غدر القطار بالتحرك فجأة قبل نزول بقيتهم.

هبط حشمت ممسكًا بحقائبه تنفس هواء المدينة الذي يميزه، دلف من باب المحطة يسار الرصيف.

داعبت أنفه رائحة أقراص الطعمية الساخنة وأرغفة الخبز التي نزلت للتو من على سير الفرن، كانت الرائحة تنبعث من مطعم صغير أمام المحطة، بجوار المطعم التصقت غرزة لإعداد الشاي والجوزة، جلس بعض العمال وسائقي السيارات أمامها يتناولون إفطارهم.

علـى مقربـة وقـف بعـض السـائقين بجـوار عرباتهـم ينـادون بصـوت منتظـم.

- مخصوص أي بلد مخصوص أي بلد.

من بعيد ميز حشمت ملامح شاب أسمر يقف بجوار سيارة تويوتا بيضاء متهالكة.

توجه إليه حتى وقف أمامه.

ابتدره الشاب.

- على فين يا عمدة؟؟

سأله حشمت في ابتسامة.

- إنت ولد الأسطى حنفي؟

أنا عمك حشمت مش عارفني؟؟

أخذ الشاب يتفرس وجهه وقال في تردد.

- الشبه مش غريب عليا إنت ولدك محمود؟

ضحك حشمت وبنبرة ساخرة.

- بقينا بنتعرفوا بعيالنا.

ابتسم الشاب في خجل وسلم عليه بحرارة.

- معلش يا أبو محمود ولدك صاحبي والشبه بينكم كبير وبعدين إنت اللي غايب ومبتجيش كتير.

- عندك حق يا ولدي.

أخبار الأسطى حنفي إيه؟

بتأثر بدا على وجهه.

- واللّه تعبان صحته معادتش زي الأول.

أشار إلى حشمت بالركوب وانطلق بالسيارة التي تدهورت صحتها هي الأخرى كصاحبها.

في الطريق كان حشمت يتأمل البيوت التي انتصبت على جانبي الطريق فغيرت ملامحه تطل من بينها أعواد القمح الخضراء التي تكاثف عليها الندى.

كانت رائحة الصباح المميزة تخترق قلبه قبل رئتيه تلك الرائحة الممتزجة برائحة التراب والخضرة.

حكى الشاب طوال الطريق الممتد بين الزروع والمنازل البسيطة أحوال البلد من مات ومن سافر ومن تزوج إلى أن توقف أمام البيت.

obeikan.com

شكره حشمت بعد أن رفض أن يأخذ أجرته.

طرق حشمت الباب الخشبي الكبير طرقة واحدة وقبل أن يكررها كان صوت خديجة من خلف الباب يسأل.

- مين؟

- أنا حشمت.

انخلع الباب مصدرًا أزيزًا طويلاً وأطلت خديجة بوجه ملهوف وعيون مضطربة.

دلف حشمت للداخل بسرعة وضمها تحت ذراعه فاضطربت أنفاسها وانزلقت منه في رشاقة.

- العيال يصحوا.

- هما نايمين؟

- مبيصحوش غير على الضحى.

أمسكت خديجة الحقائب منه وتقدمته إلى حجرتهم، فتحت بابًا خشبيًا قامت بتركيبه من شهور.

دخل وراءها حشمت وأغلق الباب، ألقت بالحقائب واستدارت إليه وألقت بنفسها بين ذراعيه ودفنت رأسها في صدره.

obeikan.com

انهمـرت الدمـوع مـن عينيهـا في صـوت مكتـوم وأنفـاس تحـرق صـدره.

- هُنت عليك يا حشمت؟؟

تحشرج صوته وقال بضعف.

- واللّه ما هنتي يا أصيلة.

غصب عني المعايش بقت صعبة وشحيحة.

أخرجت وجهها من صدره ونظرت إلى وجهه وقالت في حزن.

- مـش مسـامحاك علـى كل يـوم بيتـه دمعتـي علـى خـدي وأنـا بتخيلـك بتفتـح بـاب الـدار وتاخدنـي في حضنـك.

أجلسـها حشـمت علـى السـرير وأمسـك وجههـا بـين يديـه وهـي تشـهق مـن البـكاء كالأطفـال، مسـح دموعهـا المنهمـرة بظهـر يـده وقـال في تأثـر.

- كفايـة يـا قمـرة ليلـي دموعـك بتلسـوع يـدي وحياتـك عنـدي مـا عـدت مفارقـك تانـي.

نظرت له نظرة شك وفي براءة.

- عينيك صادقة بس فعلك دايمًا كداب.

- صدقي عينيا اللي عمرها ما شافت غيرك قدامها.

ارتمت ثانية في حضنه غير مصدقة.

- وحياتي عندك يا حشمت ما تفوتني تاني في بعادك في اليوم بموت ألف مرة ببقى لا عارفة أنا راجل ولا ست؟؟

- متضيعيش الفرحة في العتاب اللي بيقطع قلبي وتعالي أفرجك جايبلك إيه ويّاي.

فتح حشمت أحد الحقائب وأخرج منها جلبابًا قطيفة زهري مطرز وفرده على صدرها.

في الخارج سمع حشمت صوت صفية تنادي على أمها.

- دي صفية صحيت.

نهض حشمت في لهفة وفتح الباب واحتضن صفية التي قاربته في الطول.

- بقيتي عروسة يا بت.

قالها حشمت وهو يمسك بوجهها الصغير بين كفيه.

- وحشتني أوي يا بوي.

- وانتي كمان يا بتي.

من الغرفة الجانبية غرفة أمه السابقة خرج محمود وأحمد

oboeikan.com

وارتموا في حضن أبيهم، تعالت أصوات الضحك والتي بدت غريبة في هذا البيت حتى الطيور أخذت تصيح وتدور في أنحاء البيت محتفلة بالضيف العزيز.

●●●

استيقظ جلال مبكرًا في ذلك اليوم رغم أنه لم ينم إلا بعد أن نام سيد، كان يراقبه طوال الليل حتى طلع الفجر، كان يعد عليه كم مرة دخل إلى الكوخ، كم مرة شرب الشاي، متى أكل، كيف يجلس؟!

كان يتأمله وهو يقف موليًا ظهره للبوابة الحديدية مستقبلاً الدار كأنه عملاق تأهب لهدم المباني الضعيفة، كان يطيل النظر في المبنى الكبير ثم ينظر ناحية المبنى المميز في حركة بانورامية بطيئة كما لو كانت رأسه كاميرا كبيرة ثبتت على عامود ضخم تتوقف رأسه وترتفع قليلاً كأنه ينظر إلى نافذة جلال.

كان جلال يتراجع خلف الشيش عند هذه الحركة، تتتابع أنفاسه سريعًا وتعلو دقات قلبه كما لو أن سيد رآه.

كان جلال يحس أن سيد يشعر به من خلف الشيش ويعلم أنه يراقبه.

obeikan.com

ينظر جلال مرة أخرى إلى سيد بحرص وقد قرب عينه من جانب النافذة فيجده لازال ينظر ناحية نافذته.

يبتسم سيد ويجلس على دكته.

نفض جلال رأسه مبعدًا فكرة أن سيد يعلم بنيته أو حتى أنه يراقبه، أعمل جلال عقله بأسلوب علمي فكل شيء له سبب، فسيد لم يعتد على هذا المكان بعد فهو يشعر بالخوف، ليس الخوف على الدار فمن الذي سيقتحم بيتًا للعجزة والمسنين إنما هو يخاف من الدار نفسها، يخاف من السكون الذي يلفها، يخاف من ملامح سكانها الذابلة، من عيونهم الشاردة، من صمتهم الطويل، وكرد فعل طبيعي لأي شخص كلف بحراسة أو مراقبة شيء أنه يولي ظهره لأكثر النقاط أمانًا ويبقي بصره على ما يخاف منه أو على ما يخاف عليه فلم يخف سيد من الشارع وحركة المارة فيه إنما خوفه من تلك الشواهد المنتصبة الساكنة كأنها شواهد القبور.

ظل جلال يقاوم النوم أمام سيد حتى استسلم الأخير ودخل كوخه ولم يخرج، بعدها شق آذان الفجر سكون تلك الليلة.

ظل جلال بعد أن استيقظ يتابع سيد الذي جلس على الدكة تتهادى رأسه إلى أسفل حتى يصطدم ذقنه بصدره ثم تنتفض الرأس إلى أعلى مرة أخرى كأنها لامست أسلاك الكهرباء العارية، كانت آثار ليلة أمس بادية عليه.

رأى جلال سعاد وهي تدخل الدار وكيف انتفض لرؤيتها وهبّ ليفتح الباب المغلق ورأى بعد بضع ساعات ثريا وهي تتهادى في ثقة ناحية الباب ممسكة بيدها الحقيبة التى أهداها إليها كأنها مسافرة من مسافري الطائرات تتجه ناحية باب كبار الزوار وكيف استوقفها سيد وأطال الحديث معها قبل أن يفتح لها الباب.

اكتفى جلال بهذا الكم من المراقبة وبعد أن اطمأن على زهيرة نزل متوجهًا إلى المبنى الكبير.

خطى جلال بخطوات ثابتة، كان مطرقًا إلى الأرض تدوس قدمه على تلك الأعشاب الذابلة منها والذي لازال يقاوم الذبول، كانت أعشابًا بلون باهت تميل إلى اللون الرمادي أقرب منه إلى الأخضر، امتلأت بأشواك مدببة التصقت بالأرض كأنها لا تريد أن تنمو.

لابد أن الأرض تشعر بما يشعر به من يعيش على ظهرها فتنبت له ما يحس ويشعر، كان جلال ينظر إليها نظرة الضيف المودع يشفق عليها أكثر مما يتأذى لمنظرها.

دخل جلال باب المبنى الكبير، كانت سعاد تجلس وإلى جوارها منتصبة على ركبتيها زينب تنظران إلى شاشة الكمبيوتر، اقترب جلال من الباب وقال في هدوء.

- صباح الخير عليكم.

اعتادت سعاد على صوت جلال فلم ترفع رأسها من أمام الكمبيوتر وقالت في لا مبالاة.

- صباح الخير يا أستاذ جلال.

نظر جلال إلى زينب في ابتسامة فبادلته مثلها وهي تمرر أطراف أناملها السمراء على حبات عقدها الملون الذي زين جيدها، نظر جلال مرة أخرى إلى سعاد التي لازالت محدقة في شاشة الكمبيوتر، هتف محاولاً لفت انتباهها.

- يارب تكونوا بخير.

في عدم اهتمام من خلف الشاشة.

- الحمد لله احنا بخير.

اقترب جلال من مكتبها.

- ممكن أستخدم الكمبيوتر اللي في القاعة أشوف الأخبار؟؟

سكت برهة وأردف.

- حضرتك مبقيتيش تجيبيلي الأهرام؟!

شعرت بالارتباك قليلاً ورفعت رأسها إليه.

- اتفضل هو حد منع عنك الكمبيوتر أقعد براحتك.

opeikan.com

- شكرًا.

استدار جلال ودلف إلى حجرة الترفيه وجلس على الكمبيوتر، ضغط على زر الباور فأضاءت الشاشة.

أخرج من جيبه الفلاشة الصغيرة التي أحضرها له محمد عاشور وغرسها في مؤخرة الكيسة القابعة على الأرض، اختار عددًا من الملفات وضغط على زر النسخ ثم اللصق فظهر ذلك الخط الذي تتطاير الأوراق من جانبه إلى جانبه الآخر تنقل تلك الملفات على الفلاشة ثم فتح ملفًا آخر به صور النزلاء وفعل به ما فعل بالملفات الثلاثة السابقة.

كانت عينه حائرة بين باب الحجرة وبين شاشة الكمبيوتر يفرك في يده وتنتفض قدمه في حركة منتظمة من التوتر.

انتهى نسخ الملفات على الفلاشة، نزعها بسرعة ودسها في جيبه.

فزع جلال من صوت عميق أتى من خلفه.

- أنا عارفة إنك هتروحله.

كاد قلبه أن يتوقف فاستدار بسرعة فرأى أم نبيل تقف فوق رأسه ممسكة ورقة من كراسة الرسم التي أعطاها لها، مدت يدها إليه بتلك الورقة في هدوء.

- أول ما تشوفه أديله الجواب ده وقوله يبقى يقفل الشباك كويس عشان الدنيا برد.

ضمّت الشال الذي فوق كتفيها ملتمسة منه بعض الحماية من ذلك البرد الذي يدق عظامها طأطأت رأسها ناظرة إلى قدميها العاريتين وقالت في ضعف.

- وقوله يلبس الشراب الصوف اللي عملتهوله وما يقلعوش وهو نايم عشان يدّفى.

لم يستطع جلال في هذه اللحظة أن يدرك معنى هذا الكلام فقد كان يحمل مسحة من الماضي واستشرافًا للمستقبل ووصفًا لحاضر تعيشه.

أخذ جلال الورقة من يدها ونظر فيها.

«وجه مستدير ينزل منه خط عبارة عن رقبة وخطوط لذراعين وقدمين في هيئة رجل ملأ معظم الصفحة ووجه آخر صغير أحاطته بدائرة خرج من جانبها ضفيرة شعر صغيرة وخيوط أصغر لرقبة ويدين وقدمين، أحد الخطوط التي تمثل اليد تمسك بالخط الآخر ليد الرجل كتبت فوق الرأس المستدير للرجل- نبيل-».

obeikan.com

لـم يـدرِ جـلال مـاذا تريـد أن تقـول بتلـك الخطـوط، هـل تذّكـر نبيـل بمـا فعـل يـوم أحضرهـا وتركهـا أم تسـتعطفه ليأخذهـا في يـده مـن هـذا المـكان.

أخذ جلال الورقة وطواها ونظر إليها في إشفاق.

- إن شاء اللّه هبعتله الجواب ده.

نظـرت أم نبيـل إلـى جـلال في عينيـه في ثبـات كأنهـا تكلمـه ثـم اغرورقـت عيناهـا بالدمـوع كمـا لـو كانـت تودعـه، ظلـت هكـذا للحظـات قبـل أن تسـتدير لتعـود إلـى مكانهـا.

في جانـب الغرفـة كان زكريـا يجلـس أمـام شاشـة التلفـاز يـكاد يلتصـق بهـا يضحـك كطفـل صغيـر يشـاهد فيلمًـا لنجيـب الريحانـي.

●●●

في خطوات واسـعة خرج راجـي مـن مبنـى الشـركة وأمـام واجهته الرخاميـة مـن داخـل السـور الحديـدي أخـرج الورقـة التـي دون عليهـا الرقـم، تأملهـا للحظـات ثـم أخـرج هاتفـه المحمـول ونقـر الأرقـام علـى شاشـته ثـم ألصـق الهاتـف علـى أذنـه اليسـرى وأكمـل متجـاوزًا البوابـة الحديدية.

أشار له فرد الأمن الجالس على البوابة وصاح في ابتسامة.

- ما لسه بدري يا أستاذ راجي؟؟

رمقه راجي شذرًا ولم يجبه، فتح سيارته المتوقفة أمام الشركة في شارع الهرم وارتمى فيها قبل أن يأتيه صوت شاب من سماعة الهاتف.

- ألو.

- ألوو ممكن أكلم الأستاذ مازن؟

- مين حضرتك؟

- أنا من الشركة المصرية للاتصالات.

- هو مش موجود دلوقتي فيه حاجة أبلغهاله؟

- فيه مشكلة بخصوص خط التليفون ولازم أكلمه بسرعة.

- كلمه على موبايله.

أسند الهاتف على كتفه برقبته وأمسك الورقة والقلم.

- اديني الرقم كده.

دوّن راجي الرقم وأغلق الهاتف ثم طلب الرقم الذي دونه بسرعة.

- ألوو الأستاذ مازن؟

- مين معايا؟

- أنا راجي اللي قابلتك مع سبيل فاكرني؟؟

- أه أهلاً بيك.

- أنا كنت عايز أعرف الموضوع بتاع التوكيل إيه أخباره سبيل قالتلي إنه عطلان من ناحيتك.

باغته في دهاء.

- هي قالتلك كده؟

إنت آخر مرة شوفتها إمتى؟

ارتبك راجي قليلاً.

- من أسبوع تقريبًا.

تغيرت نبرة صوت مازن وقال في جدية.

- بص يا أستاذ راجي اللي حصل منك ده عيب ومكنتش أتوقع منك كده.

دون أن يشعر وضع راجي يده على آثار الجرح في خده وقال في ضعف.

obeikan.com

- هي سبيل حكيتلك؟

- سبيل مش بتخبي عني حاجة هي بتعتبرني أخوها الكبير.

- طيب أنا عايز أشوفها عشان أصالحها.

- مفتكرش إنه هينفع دلوقتي خالص.

بتملق بدا على صوته.

- البركة فيك يا أستاذ مازن أنت بتقول إنها بتعزك زي أخوها.

- هحاول بس الموضوع صعب.

المهم موضوع التوكيل عايزين نخلص منه.

قال مازن في حماس.

فى استسلام قال راجي.

- أنا جاهز.

استغل مازن انكساره فواصل طلباته.

- الشقة محتاجة توضيب.

عايزه شوية ديكورات تخلصهم أكون أنا ظبطلك موضوع سبيل.

راوغ راجي محاولاً إبقاء أي كارت في يده.

- خلصلي موضوع سبيل الأول بس عشان نفسيتي تعبانة ومليش نفس أعمل حاجة.

- خلال الأسبوع ده هتلاقيه خلصان.

- ممكن تديني رقمها.

- أنا قولتلك سيبلي الموضوع عشان هي مجروحة منك.

سيبني أهديها وهتصل بيك نتقابل كلنا ونرجع المايه لمجاريها.

- أوك واعتبر أي توضيب أو أي حاجة تعوزها حصلت.

- تمام هبقى معاك على التليفون لو فيه جديد.

- سلام.

- سلام.

أغلق مازن الهاتف وابتسم ابتسامته الغامضة.

كانا ذئبين جمعتهما المصلحة فصارا رفقاء، لكن رفيق الخيانة دائمًا خائن.

رن هاتف مازن.

- ألوو.

obeikan.com

- أيوا يا ريس.

- فيه إيه يا شوقي؟

- فيه حد من الشركة بتاعة الاتصالات اتصل وقالي إن فيه مشكلة واديته رقمك.

- تمام كلمني خلاص.

اسمعني كويس تروح لبيت البت سبيل وتطلبني من هناك وتديهالي على التليفون عشان مش معايا رقمها الجديد.

- تمام يا ريس.

أغلق الهاتف ثم نظر إلى بورده الجالس أمامه فاتحًا أذنيه وعينيه على مصراعيهما.

- قوم هاتلنا حاجة ناكلها.

- هي أبلة سبيل أخبارها إيه يا ريس؟

لم ينتبه لسؤال بورده وتمتم في شرود.

- كله هيبقى تمام كل حاجة مدروسة.

قالها وهو ينفس آخر نفس في سيجارة كانت تتألم بين أصابعه.

انتبه على صوت بورده وهو يسأل في فضول.

obeikan.com

- هي مالها مش بتيجي ليه؟

صرخ في وجهه غاضبًا.

- إنت مال أهلك امشي شوف هتطفحنا إيه!

انتفض بورده وقفز إلى الباب.

رن هاتف مازن.

- ألوو.

- سبيل معاك يا ريس.

اتكأ بظهره على الفوتيه وقال في برود.

- إيه يا مزة الواد هيموت عليكي وعايز ييجي يبوس الأيادي.

فغرت سبيل فاها وجحظت عيناها.

- واد مين؟

- واد مين انتي تعرفي كام واد! الواد راجي.

تلعثمت وصاحت في خوف.

- إوعى تكون عرفته سكتي؟؟!!

- عيب عليكي مش أنا اللي أعمل كده بس الصراحة الواد صعب عليا ده مستوي خالص.

obeikan.com

دمعت عينا سبيل ولم تستطع أن تنطق.

انتفض مازن واقفًا وقطّب جبينه.

- اسمعيني كويس هما كلمتين أبرك من عشرة.

يومين وهعدي عليكي وهجيبه يعتذر لك.

أنا عايز الشقة بتاعته هتكملي دورك وتخليه يوضبها ويمضي معايا عقد إيجار ١٠ سنين يبقى انتي كده براءة ومش هخليه يعرف طريقك وأنا كمان مش هعوز منك حاجة تاني.

ابتلعت ريقها ولازمت الصمت وتابع مازن بهدوء.

- اديني رقمك عشان مش كل شوية نزعج أم سبيل لا تسمع كلمة كده ولا كده.

أمسك مازن ورقة بجانبه ودوّن رقمها.

وأغلق الهاتف.

مدت سبيل يدها بالهاتف إلى شوقي الواقف بجوارها دون أن تتكلم تقاوم دموع تجمدت بين حدقتيها المحتقنتين.

●●●

في مكانهما المميز في كافيه الأفندية جلس ياسين يستمع إلى سبيل.

obeikan.com

كانت تنتفض كعصفور أطبقت عليه دفتي فخ حديدي في أرض جرداء يرفرف بجناحيه لا يستطيع الطيران من ثقل الفخ.

بعيون دامعة تعلقت بوجه ياسين.

- أنا مكنتش عايزه أحكيلك كنت عايزه أبقى معاك من غير ما أشيلك مشاكلي.

ربت على يديها الباردتين من شدة الخوف.

- أنا مستاهلكيش لو معشتش معاكي على الحلوة والمرة.

صمت للحظات ثم أردف في تصميم.

- الفترة دي من حياتك لازم تتمسح.

- والله أنا بحاول أصلح أي حاجة غلط عملتها.

أنا روحت دار صفا أديت الغفير ٥ تلاف جنيه يوصلهم لبابا راجي ينفعوه في أي حاجة.

في دهشة.

- انتي جبتيله المبلغ ده منين؟!

- كان فيه ٣ تلاف كنت خدتهم من راجي عشان أديهم لمازن وألفين كنت محوشاهم.

- بس هو هيعمل إيه بالمبلغ ده متهيألي مش هيفيده بحاجة في الدار؟؟

- كان راجي مرة قال قدامي إنه عايز شوية طلبات بطاطين ودفاية وأنا الصراحة بكفّر عن غلطتي إني كنت سبب إنه يدخلهم الدار.

صمتت قليلاً ثم أردفت.

- المشكلة إني لسه متورطة بين مازن وراجي.

- أنا بيني وبينك راهنت إنهم يسيبوكي في حالك ومحدش منهم يضايقك بس طالما مصرين يبقى هما اللي جنوا على نفسهم.

مدّ يديه فأمسك بأناملها المرتعشة وفركها بين راحتيه.

- أنا مش عايزك تخافي طول ما أنا جنبك هما أضعف من إنهم يمسوا شعرة منك.

رفعت عينيها إليه حتى لامست أهدابها قوس حاجبها دون أن تنطق.

كانت كلماته تضيء في قلبها باعثة إحساسًا بالدفء والأمان لم تشعر به من قبل.

●●●

obeikan.com

في المساء جثا جلال على ركبتيه أمام زهيرة وهي جالسة على السرير أمامه وأمسك يديها الاثنين لثمهما في حب ثم رفع رأسه إليها.

- خلاص يا زهرة روحي هنسيب الدار النهاردة.

بدا القلق على وجهها.

- النهاردة! إزاي؟

بصوت دافئ.

- أنا رتبت كل حاجة متخافيش.

عايزين نلم حاجتنا كلها في الشنط.

أطلّ الخوف من عينيها.

- طيب هنروح فين ممكن تطمني؟؟

- أنا هحكيلك كل حاجة.

نهض جلال يجمع ملابسه وهو يحكي لها.

كانت ملامحها مزيجًا بين الفرح والقلق، نهضت متثاقلة تمسك بعض الأشياء وتضعها في الحقيبة معه، كان جلال بين لحظة وأخرى ينظر تجاه البوابة يراقب سيد الغفير.

obeikan.com

أخرج جلال هاتفه الصغير وطلب محمد عاشور.

- ألوو.

- أيوا يا أستاذ جلال.

- إنت جاهز على معادنا؟

- طبعًا وقبل المعاد كمان.

بقول لحضرتك لو حصل أي حاجة كلمني أنا جايب معايا واحد صاحبي ممكن نهدّ الدار على اللي فيها.

اقترب جلال من زجاج نافذته ينظر إلى البوابة.

- اللي فيها غلابة يا ابني المشكلة في الغفير.

- إحنا نجيله نكتفه وناخدك يا عم جلال.

- لأ لأ إنت خليك مكان ما قولتلك وأنا إن شاء الله هعرف أخرج وأجيلك.

- زي ما إنت عايز يا عمي خلي بالك من نفسك.

- سيبها على الله.

●●●

obeikan.com

كانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل، عاد ياسين إلى المقهى بعد أن رافق سبيل حتى البيت ورآها تصعد إلى شقتها أمام عينيه.

أمام المقهى من الناحية الأخرى لشارع فيصل وقف شاب في بقعة مظلمة من الشارع يرتدي سويت شيرت أسود اللون وضع الكاب تشو على رأسه فأخفى معالمه.

عبر ياسين الشارع حتى توقف أمام الشاب، أطفأ الشاب سيجارة كانت في يده وسلم على ياسين وهو يتلفت يمينًا ويسارًا.

تبادل ياسين حديثًا قصيرًا معه ثم ودعه الشاب وابتلعته إحدى الشوارع الجانبية.

عاد ياسين إلى المقهى مسرعًا.

●●●

في قريته أمام دوار عائلة البدراوي وقف حشمت مترددًا في الدخول، كان القمر قد استحال محاقًا فلم يظهر من الدوار غير سلالمه العريضة التي انعكس عليها ضوء أصفر منبعثًا من مصباح يتأرجح على عمود حديدي قابع بجوار المدخل، لازال يذكر تلك السلالم التي كان يهبط عليها قفزًا وهو صغير وتلك النخلة التي كان يقذفها بالحجارة فيزعق جده لأمه الحج بدراوي صارخًا لا يميز من كلامه غير انت يا شقي ثم سعال متصل إلى أن يخرج خاله الكبير بكري فيضربه على يده وتتدخل أمه في إشفاق.

obeikan.com

- سيبه يا خوي يعني هو عمل إيه؟

ثم يهدأ الجد ويناديه.

- تعالى هنا يا شقي.

فيقترب حشمت في خوف فيربت الجد على رأسه ويخرج تمرات رطبات من جيبه يدسها في يده الصغيرة.

- النخلة لسه بلحها رامخ يا وليدي خد دول.

وينظر إلى ابنته دهب.

- ولدك طالعلي بيحب البلح.

ويضحك ضحكته المخلوطة بالسعال حتى تدمع عيناه.

كان البيت دافئًا بحسه فيه وكان الخير يجري دائمًا بين يديه، يجلس بالساعات على دكته أمام الدوار ممسكًا سبحته يعبث بشاربه الكثيف الأبيض إلا بقعة تحت أنفه اكتست بلون أصفر باهت من أثر تدخين التبغ لا يرد سائلاً يقصده، يصيح دائمًا.

- هات يا بكري رغيفين لعمك فلان.

اعمل شاي قوام لخالك علان.

obeikan.com

فضلاً عن جلسات الصيف التي يأتي فيها الريس عبد الباسط بربابته ينشد فيها السيرة وما تيسر من مربعات الواو لابن عروس، يجتمع أهل القرية يهيمون ويتمايلون في تأثر كأنهم مسحورون.

تداعت أيام طفولته أمامه كأنها حدثت البارحة، انتشلته ضحكات من الداخل فانتبه من ذكرياته.

كانت سلالم الدوار تكسرت معظم درجاتها، شعر ببرودة الجو فأحكم لف الشال حول رأسه وعنقه وارتقى سلالم الدوار التي بدت شاحبة باردة قاسية نُزع منها دفء الماضي.

وقف حشمت أمام باب خشبي يتخلله زجاج عسلي غُطي بقضبان حديدية ملتوية.

كان الباب قد فُتحت إحدى دفتيه، صفق حشمت على يديه فجاءه صوت من الداخل.

- مين؟

- أنا حشمت.

خرج فوزي ابن خاله.

- أهلاً أبو محمود إيه الزيارة العزيزة دي جيت ميته؟

صافحه حشمت في ابتسامة باهتة.

- أهلاً يا أبو خالو وصلت الصبح.

أشار له فوزي بالدخول وتقدمه إلى داخل الدوار فتنحنح حشمت.

- تعالى مفيش حد غريب.

دلف من الباب إلى صالة واسعة وضعت بها مجموعة من الدكك على الجوانب في شكل منتظم.

في ترقب سأل حشمت.

- خالي بكري صاحي؟؟

- لو أخرت شوية مكنتش لحقته كان داخل ينام.

دلف فوزي من باب الصالة إلى باب آخر يؤدي إلى حجرة صغيرة منبثقة من الصالة.

رأى حشمت خاله بكري جالسًا مربعًا قدميه على دكة خشبية في صدر الحجرة، كان خاله بكري قد قارب الثمانين من العمر، أخذ هيئة أبيه الحج بدراوي ولكن اختفت من وجهه الطيبة والبساطة واستبدلهما بعينين متحجرتين وجبهة معقودة زادت تجاعيد وجهه.

Obeikan.com

اقترب حشمت من خاله ومد يده فرفع خاله يده قليلاً فسلم عليه.

- ازيك يا خال.

- ازيك يا حشمت عاش من شافك كيفك وكيف عيالك؟

- الحمد للّه واللّه يا خال.

ابتسم حشمت ابتسامة مصطنعة محاولاً تملق خاله.

- واللّه لساك شديد يا خال.

في فتور وصوت متحشرج.

- الحمد للّه.

نظر بكري ناحية فوزي الذي كان لايزال واقفًا.

- اعمل شاي يا فوزي،

ولا تتعشى؟؟؟

قالها وهو يرمق حشمت بنظرة باردة من طرف عينه.

- اللّه يخليك يا خال دايمًا عامر.

التفت حشمت إلى فوزي وقال في خجل.

obeikan.com

- أشرب شاي.

انصرف فوزي وساد صمت حتى ابتدر حشمت الكلام.

- كنت عايز أتكلم معاك في موضوع كده يا خال؟

رمقه بكري كمن يعرف أنه يريد شيئًا فلم يكن حشمت كثير الزيارة قبل أن يسافر إلى القاهرة فضلاً عن أنه لم يزرهم في المرات القليلة التي زار فيها البلد.

- أنا عايز ورث أمي يا خال؟؟

جحظت عينا بكري وتحولت ملامحه وداعب ذقنه بسبابته وقال في برود.

- ورث إيه يا حشمت!!!

في ثبات.

- ورث أمي من جدي.

- أمك فاتت ورثها وماتت.

في تحدٍ وقد ارتفع صوته قليلاً.

- أمي ما فاتتش حاجة أمي كانت خايفة تطالبك بورثها.

ضحك بكري ضحكة ساخرة تقطر غيظًا.

obeikan.com

- وانت مش خايف وجاي تطالب؟؟

- مش حكاية خايف ولا ما خايفش ده شرع ربنا وده حق أمي وحقي من بعدها.

كان حشمت يقذف بكلماته مستدعيًا صورة جلال أمامه وهو يقول له- اللي يعاديك عاديه روحك ماهياش في إيده-

دخل فوزي بصينية الشاي فلمح تجهم وجه أبيه وصمت وإطراق حشمت.

- فيه إيه يا بوي؟

نهض بكري مستندًا إلى عكازه المعقوف مشيحًا بوجهه بعيدًا.

- اسقي ولد عمتك الشاي شكلها مصر لحست دماغه ونسته الأصول.

وقف حشمت زافرًا نفسًا كان يحبسه.

- أنا منسيتش الأصول أنا جيتك الأول ومشيت على الأصول وكده عداني العيب بس بعد كده متلومنيش يا خال؟

أمسك حشمت طرف جلبابه مشيحًا به وخرج مسرعًا ناحية الباب تاركًا خاله وولده ينظران بعضهما إلى بعض.

●●●

oobeikan.com

أنهى جلال حزم حقيبة كبيرة وضع بها ملابسهم وكذلك حقيبة أخرى أصغر حجمًا وضع بها بقايا أدوية زهيرة وبعض أدواتهم الشخصية، كانت الساعة قد اقتربت من الثالثة فجرًا.

وقف جلال يراقب سيد الذي جلس على دكته وقد أشعل بعض قطع الخشب وقد فرد كفيه الكبيرين يسطلي بهما النار ويمسح براحتي يده وجهه الذي جمده البرد، خبت النار فلم تعد تغني من البرد شيئًا فنهض سيد يرتجف ودخل إلى الكوخ.

ابتسم جلال ولمعت عيناه وتمتم.

- نام بقى يا أخي.

فجأة انبعث صوت الراديو تتقلب موجاته في سرعة دون هدف فقطب جلال جبينه وغمغم في حنق.

- منك لله يا حشمت ما كنت خدت الراديو معاك سايبه يتسلى.

تعب جلال من الوقوف فارتمى على طرف السرير، أحس بالخوف والتوتر يتسلل إلى زهيرة التي ظلت تسأله كل دقيقة.

- نام؟ نام؟!

كان سيد لا يستقر على موجة أكثر من ثلاث دقائق من القرآن الكريم للشباب والرياضة للبرنامج العام كان التعب يقتله لكن الخوف والقلق يمنعانه النوم.

obeikan.com

فجـأة صمـت الراديـو فانتفـض جـلال واقفًـا، اقتـرب مـن النافـذة مختلسًـا النظـر مـن وراء الشـيش يبحـث عـن سـيد لـم يـره علـى الدكـة ولا أمـام البوابـة.

فجـأة انطفـأ مصبـاح الغرفـة ولـف الـدار صمـت رهيـب إلا مـن دقـات قلـب جـلال وزهيـرة، انتظـر جـلال سـاعة حتـى يسـتغرق سـيد في النـوم ثـم تحسـس شـيئًا في جيـب بنطلونـه، امتـدت يـده إلـى ذلـك البالطـو الصـوف فألبسـه زهيـرة وأغلـق أزراره حتـى رقبتهـا وأمسـك الحقيبتـين وهبـط في بطء مـن خلفـه زهيـرة تتشـبث بذراعـه كطفـل خائـف.

كان جـلال لا يسـمع سـوى دفقـات دمـه تطـنّ في أذنيـه، ترتجـف يـداه المطبقتـان علـى الحقائـب، أنفـاس زهيـرة المتلاحقـة تلهـب ظهـره، خطـى أول خطـوات نحـو البوابـة.

كانـت المسـافة بـين البوابـة والمبنـى المميـز لا تتجـاوز الخمسـين متـرًا لكـن جـلال أحـس أنـه يـدور حـول اسـتاد القاهـرة.

تشـبثت زهيـرة بذراعـه اليمنـى التـي خدلتهـا الحقيبـة الكبيـرة ودسـت رأسـها في كتفـه وأغمضـت عينيهـا لا تريـد أن تـرى الطريـق.

قبـل البوابـة بأمتـار وقبـل أن يصبحـا أمـام بـاب الكـوخ وقـف جـلال ودلـى الحقيبتـين وتـرك زهيـرة وتسـلل حانيًـا ظهـره حتـى قـارب الأرض، اختلـس نظـرة إلـى داخـل الكـوخ فلـم يتبـين شـيئًا في الظـلام.

اقترب قليلاً فتبين سيد ممددًا ككومة كبيرة على السرير ملتفًا ببطانية من الصوف ينبعث منه نغمات متقطعة كشكمان سيارة مخروم.

نظر جلال خلفه ناحية زهيرة التي انكمشت فبدت كأنها حقيبة أخرى وضعت على الأرض.

خطى خطوتين واسعتين فالتصق بقضبان الباب الباردة، أمسك بالقفل الواصل بين طرفي الجنزير وأخرج مفتاحًا صغيرًا من جيب بنطاله وأولجه في القفل وأداره ببطء فسمع طقة الفتح المميزة، أزاح بعدها القفل والجنزير وعلقهما في دفة الباب الثابتة وحرك الأخرى فانفرج الباب قليلاً، تركه على هذه الحالة وعاد لاهثاً إلى زهيرة ربت على ظهرها وضمها مطمئنًا تجمعت قطرات من العرق فوق حاجبيه أزاحهم بظهر يده ثم حمل الحقيبتين وتبعته زهيرة ممسكة بذراعه حتى خرجا من الباب على بعد أمتار خارج الدار في بقعة معتمة أوقف جلال زهيرة ووضع الحقيبتين بجوارها ثم عاد إلى البوابة فأغلقها كما كانت بالجنزير والقفل.

خلا الشارع من المارة، مال جلال ناحية زهيرة برأسه وزفر بارتياح حذر.

- خلاص اهدي بقينا برة خلاص.

عاد إليها وعيها ولسانها التي فقدتهما منذ أن خرجت من غرفتها.

- الحمد لله أنا كنت هموت من الخوف.

سار جلال يسارًا في الشارع حتى انتهى سور الدار الذي ميزه جيدًا من الخارج فقد كانت أشجار الكازورينا تطل بأعناقها من خلف السور كأنما تريد الهروب هي الأخرى.

بعد السور مباشرة ظهر مبنى ضخم وضعت أمامه حواجز أسمنتية، زحفا بخطوات بطيئة حتى أصبحا أمامه.

بدت من أعلى المبنى لافتة صفراء لم يميز مما كتب عليها غير كلمة اللاجئين، أحس بداخله أن الكلمة تصفهما وهم في هذه الحالة، على بعد خطوات بدت تحت ضوء أعمدة الإنارة وجوهًا سمراء افترشت الأرض وقد التفت ببطاطين صوفية من تلك النوعية التي تسلم للعساكر.

تجاوزهم جلال وزهيرة بقليل قبل أن يستوقفهم صوت من خلفهم.

- لو سمحت؟؟

obeikan.com

انتفض جلال والتصقت به زهيرة وسقطت من يده إحدى الحقائب، تخيل أن سيد لم يكن نائمًا وأنه تركهم يخرجون من الدار حتى يضبطهم متلبسين وأنه كان يتبعهم خطوة بخطوة.

استدار جلال ببطء فإذا بجندي الحراسة على المفوضية قد أطل برأسه من دشمته معلقًا بندقيته الآلية روسية الصنع بشكل متقاطع.

كرر الجندي كلماته في لهجة تشبه لهجة حشمت.

- لو سمحت الساعة تجيلها كام دلوك؟؟

نظر جلال في ساعته وقال بصوت مبحوح.

- الساعة ٤ ونص.

شكره الجندي وعاد برأسه إلى دشمته.

هكذا هم عساكر الخدمة دائمًا ما يسألون على الساعة، فالوقت يمر عليهم ثقيلاً وهم يقفون في نوبات الحراسة المتأخرة.

من بعيد وقفت سيارة أضاءت فوانيس الانتظار بعد أن جاوز جلال وزهيرة سور المفوضية بقليل، قفز شاب من السيارة المتوقفة وتقدم ناحيتهم مهرولاً حين اقترب منهم ميز جلال ملامحه إنه محمد عاشور.

انحنى ممسكًا الحقائب من يد جلال.

- عنك يا عمي إزيّ حضرتك يا مدام زهيرة؟

- ازيك يا محمد؟

قالها جلال وزهيرة في نفس واحد.

أمسك محمد الحقائب بيد وأمسك يد جلال يساعده على النزول من على الرصيف أمام السيارة.

ألقى محمد الحقائب في شنطة السيارة وفتح الباب الخلفي للسيارة، ركبت زهيرة ثم جلال وركب هو بجوار شخص ضخم الجثة عريض الأكتاف كان يجلس على مقود السيارة.

أشار محمد لذلك الشخص بالانطلاق.

كان جلال يتأمل هذا الشخص من ظهره الذي أغلق الرؤية أمامه ولولا معرفته بمحمد عاشور لظن أن ذلك الشخص هو سيد يكمل خدعته ليوقع بهم في تلك السيارة ويقتادهم مرة أخرى إلى الدار.

●●●

بدت الدار في ذلك اليوم طبيعية، البوابة مغلقة، يجلس سيد على دكته يشرب كوبًا دافئًا من الشاي.

obeikan.com

دخلت سعاد إلى الدار في موعدها المعتاد، فتيات الدار يجولون في أرجائها جمعًا للقمامة وأوراق الشجر المتساقطة، كان كل شيء يبدو طبيعيًا.

النزلاء كل في مكانه المعتاد لا يتغير شيء في هذه الدار.

شيء وحيد بدا غريبًا وغير مألوف حين تجاوزت سعاد الباب متجهة إلى المبنى الكبير وقبل أن تدخل باب المبنى رأت مشهدًا أصابها بالفزع وجعلها تتسمر مكانها دون أن تنطق بكلمة.

أم نبيل تجلس مفترشة الأرض تضع يدها على رأسها تتمايل يمينًا ويسارًا في إيقاع رتيب، تئن بكلمات غير مفهومة أشبه بعديد في مأتم من زمن بعيد.

قفز إلى ذهن سعاد منظرها قبل خمس سنوات حين رأتها تجلس نفس الجلسة عندما كانت سعاد عاملة كباقي العاملات في الدار، يومها حاولت سعاد أن تقنعها بأن تعود لمكانها داخل قاعة الترفيه إلا أنها ظلت تتمتم بتلك الكلمات.

ما جاناشي ما جاناشي.

من الشباك طليت عليه.

لكنه ما شفناشي.

ماجاناشي ماجاناشي.

ع الباب سألت عليه.

شاورولي كان ماشي.

ما جاناشي ما جاناشي.

والزين ليه دايمًا ماشي.

كانت سعاد تخشى من مدام شكرية- التي كانت مديرة للدار حينها- أن تتهمها بالتقصير في حق أم نبيل فقد كانت تحبها أكثر من أي نزيل أو نزيلة.

يومها لم تحضر شكرية إلى الدار ثانية عند الظهيرة جاء خبر وفاتها على سريرها في بيتها.

أصاب مشهد جلوس أم نبيل وعديدها سعاد بقشعريرة في جسدها فقد كان بمثابة إنذار بشيء محتوم سيحدث، تُرى من سيموت!

وقفت زينب بجوار أم نبيل كعسكري أمن مركزي منتظرة أي إشارة من سعاد لكنها أشارت لهم بكف يدها.

- سيبوها محدش يزعلها هي هتقوم لوحدها.

أطرقت سعاد إلى الأرض وانطفأ وجهها ودخلت إلى مكتبها في صمت تبعتها زينب ووجهها ناحية أم نبيل وهي تواصل عديدها.

ما جاناشي ما جاناشي.

من الشباك طليت عليه.

لكنه ما شفناشي.

ماجاناشي ماجاناشي.

ع الباب سألت عليه.

شاورولي كان ماشي.

ما جاناشي ما جاناشي.

والزين ليه دايمًا ماشي.

دخلت زينب مكتب سعاد وفي بلاهة سألتها.

- هي بتقول إيه؟!!!!

في نظرة خوف وتوتر.

- أنا عارفة هي بتغني لابنها ولا لمين أنا المكان ده بقى بيخوفني.

واصلت زينب أسئلتها البريئة.

obeikan.com

- هتخافي من إيه؟

لم تستطع سعاد أن تكتم خوفها وغضبها أكثر من ذلك فانفجرت.

- انتي قاعدة تحكي معايا!!!!!

روحي شوفي شغلك.

قفزت زينب كعداءة إفريقية في سباق ٥٠ متر حواجز فأصبحت خارج مكتب سعاد.

حملت زينب صينية الإفطار الخاصة بجلال وزهيرة وتوجهت بها ناحية المبنى المميز.

بينما غرقت سعاد في تنبؤات محاولة معرفة ما سيحدث في الدار.

لم تستطع الجلوس فقامت تتجول في الدار، دخلت غرفة الترفيه فلم تجد ضالتها، كلٌ في مكانه، التقت عيناها بعينّي ثريا التي جلست ترصّ بعض الزجاجات في حقيبتها.

- يمكن ثريا هتموت هي أكتر واحدة صاحبة أم نبيل؟!!

أخذت تنظر إلى كل الوجوه باحثة عن أي علامة فقد كانت تحاول استباق القدر.

تخشى مفاجآته، تحاول أن تريح عقلها من التفكير.

فجأة سمعت صرخة مفزوعة وصوت بدا كصوت ماعز جبلي وقعت بين فكي ذئب.

انتفضت مسرعة ناحية باب الدار فاصطدمت بزينب التي كانت تطير في الهواء في إحدى أروع قفزاتها.

- فيه إيه الله يسوّد أيامك زي وشك؟؟

كانت أنفاسها تتلاحق كقطار فحم أوشك على القيام.

- جل جل جلال.

أمسكت بها من كتفيها تهزها.

- ماله؟ ماله؟ مات؟ مات؟

كانت لا تتلقى أي صوت غير هزة من رأسها نافية توقعاتها.

- أمال ماله أغمى عليه؟ وقع اتكسر؟

نطقت زينب كلمة كانت أبعد ما تكون عن خيالها.

- مش موجود.

كأنها لم تسمع.

- إيه؟

بنفس الصوت اللاهث كررت.

obeikan.com

- مش موجود.

صكت سعاد صدرها بيدها وصرخت في غضب.

- يعني إيييييييه؟؟؟؟؟؟؟

واصلت الصراخ وهي تنظر للعاملات اللاتي تجمعن حولها.

- تعالوا معايا.

هرولت خارجة من المبنى رمقت أم نبيل التي توقفت عن العديد وانتصبت من جلستها وأخذت تنظر إليهم في ابتسامة كمن أدّت مهمة الإنذار المبكر بنجاح، في طريقها إلى المبنى صرخت في سيد الذي وقف خائفًا منذ أن رأى زينب تخرج مفزوعة من المبنى.

- اقفل البوابة وتعالالي؟

أغلق البوابة في فزع وهرول ناحيتهم في خطوات واسعة كآلي شرير.

في غرفة جلال وقف الجميع يجولون بأبصارهم بحثًا عن جلال وزهيرة كأنهم سيجدونهم في ركن من الأركان أو تحت كرسي أو داخل دولاب.

obeikan.com

الحقيقة العلمية تقول أنهم غير موجودين لكن عدم تصديق جميع الواقفين جعلهم يتقبلون احتمال أنهم موجودون لكنهم لا يرونهم.

نظرت سعاد إلى سيد الواقف بجانبها كدولاب ضخم.

- إنت المسئول؟؟

قولي راحوا فين؟

جحظت عيناه وامتلأ وجهه وصوته بالخوف.

- أنا قافل البوابة بالجنزير والقفل لا يمكن يكونوا خرجوا برة الدار.

صاحت به.

- أمال هما فين؟

تلفت حوله في حيرة.

- ندور عليهم هنا ولا هنا.

صرخت فيهم كأنها ضابط من ضباط المباحث تبحث عن مجرم فار.

- فتشوا الدار حتة حتة.

obeikan.com

انتشر الجميع في الحديقة وفي غرف النزلاء وخلف الأشجار حتى كوخ سيد ولم يجدوا لهم أثرًا.

أخرجت سعاد هاتفها المحمول وطلبت رقمًا.

- ألووو.

جاء صوت مكتوم لم يستيقظ بعد.

- فيه إيه؟

معلش صحيتك بس عندي مصيبة.

- حد مات؟

- ياريت.

- أمال إيه؟؟

- جلال ومراته مش لاقيينهم في الدار.

انتفض مدكور من سريره.

- بتقولي إيه؟!!

يعني إيه مش موجودين؟؟!

- إحنا فتشنا الدار حتة حتة مش موجودين.

obeikan.com

- متعمليش أي حاجة أنا هقوم ألبس وجايلك.

أغلقت الهاتف وتمتمت.

اللّه يخرب بيتك يا أم نبيل على بيت اليوم اللي شوفت فيه جلال.

●●●

في محكمة صدفا بشارع الجيش خطى حشمت خطوات خائفة مترددة، كان أول مرة في حياته يدخل محكمة، في الطرقة الكبيرة المؤدية إلى قاعة المحكمة رآه ابن بلدته الأستاذ منجي المحامي، سلّم عليه في دهشة.

- حشمت في المحكمة!!

- كويس إني لاقيتك أنا حاسس إني وقعت في البحر.

- خير يا راجل يا طيب؟؟

همس في أذنه.

- عايز أعمل إعلام وراثة؟؟

صمت منجي قليلاً ثم سحب حشمت من يده.

- تعالى أعزمك على سندوتش طعمية سخنة وكوباية شاي ونتكلم.

Obeikan.com

على إحدى المقاهي البلدي أمام المحكمة جلس حشمت بينما صفق منجي فهرول صبي القهوة.

- هات لنا أربعة طعمية سخنين واتنين شاي كشري تقال وكتّر السكر.

سحب كرسي خيزران وجلس.

- شوف يا أبو عمو أنا معنديش مشكلة أعملك الإعلام ده أكل عيشي بس إحنا في الأول والأخر بلديات ووشنا في وش بعض.

أنا شايف إنك تروح لخالك بكري.

هتف مقاطعًا.

- أنا روحتله.

أنا أعرف الأصول كويس يا أستاذ منجي.

- وقالك إيه؟

- سابني ودخل نام.

- طيب سيبني أنا أكلمه ونحل الموضوع بالود لو مقدرتش نبقى نعمل الإعلام.

تمام؟

obeikan.com

في استسلام.

- تمام.

وضع صبي القهوة الطعمية الساخنة والشاي وانصرف.

●●●

لم ينم محمد عاشور سوى ساعتين قبل أن يرن المنبه مشيرًا إلى السابعة، نهض في خفة واسترق السمع من غرفة أبيه القديمة التي جهزها قبل يومين كان جلال وزهيرة قد راحا في نوم عميق، قام بتحضير بعض البيض المقلي مع الجبن الرومي والجبن الأبيض وطبق فول.

وضع كل ذلك على ترابيزة السفرة في الصالة ثم ارتدى ملابسه وغادر إلى عمله في الوزارة.

غرفة كالغرفة وسرير كالسرير ووقت كالوقت لكنهما ناما كما لم يناما من قبل، إنها الحرية التي تجعل كل شيء مختلفًا.

قد تكون ممن يحبون التفاح لكن لو أن طبيبًا أخبرك بأن ما تعانيه من مرض يستوجب أكل التفاح مرة أو مرتين في اليوم حتمًا ستكرهه، وقد تجلس ليوم كامل في غرفتك تأبى الخروج ولا تطيق ساعة محتجزًا في سجن.

obeikan.com

إنها الحرية.

الحرية تنبع من داخلك.

استيقظ جلال وفي قلبه فرحة كفرحة من عاد إلى وطنه بعد غربة طويلة يبتسم إلى وجه زهيرة الذي بدا هادئًا كطفل بريء لا يعبأ بالعالم.

أحس جلال أنه ودع انكساره وحزنه على باب الدار وأنه لقي شبابه وسنواته التي مرت، لقيها بجواره على الوسادة فصافحها واحتضنها حتى اخترقت ضلوعه إلى قلبه ودمه فاستحال رجلاً آخر.

لم يستطع على ذلك الإحساس صبرًا، كان يريد زهيرة أن تشاركه فأخذ يداعب وجهها بأنامل حانية يمررهم على خطوط العمر في جبهتها وعلى خديها يتمنى لو بلمسته تلك يمحو كل ذكرى أليمة تركت جرحًا في قلبها.

حرك أصابعه بعيدًا عن وجهها فمالت ناحيتهم تبحث عنهم على الوسادة، فتحت عينيها فوجدته أمامها يبتسم فابتسمت، مد يده لها فاعتدلت على السرير.

- قومي عشان مفيش وقت.

o p e i k a n . c o m

- مفيش وقت على إيه؟

- مش باقي من عمرنا قد اللي راح.

عايز أعيش معاكي كل ثانية نستمتع بعمرنا اللي فاضل.

- أنا معاك طول عمري.

- لا فيه أوقات كتير مكنتيش معايا.

خلينا نعترف إن إحنا عشنا غلط.

وضعت يدها المعروقة على خده.

- حبيبي هنتعاتب على الصبح كده؟؟

وقف بجوار السرير ثم دار حوله ثم نظر في عينيها.

- لإن فعلاً مفيش وقت.

التجربة اللي فاتت علمتني حاجات كتير جداً متعلمتهاش من الكتب اللي قريتها.

قريت عن اليأس في الكتب بس لقيته حاجة تانية في عينين اللي في الدار.

التجربة في العالم الافتراضي غير الواقع.

obeikan.com

نظرت إليه في حيرة وقالت في خوف.

- انت زعلان مني؟

اقترب منها ووقف أمامها.

- أنا مش ممكن أزعل منك بس فيه عتاب لازم أقولهولك.

استدار ببطء وأعطاها ظهره كان يخشى أن يضعف أمام نظراتها فيصمت ولا يعاتب.

قال في تأثر.

- الوضع اللي كنا فيه مكنش ينفع فيه كلام ولا عتاب إحنا حرمنا نفسنا من متعة الحياة وفضلنا ندّي راجي كل حاجة ونحرم نفسنا نديله فوق اللي هو محتاجه ونديله كمان اللي ممكن يضره عشان ده ابننا الوحيد ده كان المبرر.

وكنا منتظرين إنه يردلنا ده في وقت عجزنا وضعفنا.

استدار حتى واجهها ثم جلس أمامها بعينين عاد لهما الثبات.

- بس اللي اتعود ياخد صعب في يوم يقدر يدي.

بدا عليها التأثر فأمسك يديها وقبلهما ورفع رأسه.

obeikan.com

- انتي غلطتي في تربيتك لراجي وأنا قبلك غلطت اتقمصت زي العيال الصغيرة وقبلت إني أبقى كمّ مهمل في البيت أشوف حبيبة عمري بقت مشغولة عني لدرجة إنها متخدش بالها إن كنت موجود ولا لأ؟؟

نزلت من عينيها دمعة ملتهبة ملأت شقوق خديها فمسحها جلال برفق.

- معلش استحمليني.

هسألك سؤال.

كنا بنحتفل بعيد جوازنا احتفال أسطوري صح؟ بعد ما خلفنا راجي احتفلنا بيه؟!!!!

كان كل واحد فينا بيقعد يفكر هيعمل إيه للتاني في عيد ميلاده قبليها بشهور بقيتي تنسي عيد ميلادي ولما أعملك مفاجأة وأعملك عيد ميلاد كنتي تقوليلي كبرنا يا جلال كنا عملنا بالفلوس دي حاجة لراجي كنا جبناله شهادة استثمار لحد ما بقيت أحس إن أنا أناني وإني مش بفكر في راجي وإن الغلط فيا فمات إحساسي بحاجات كتير حلوة بينا.

ضمها جلال إلى حضنه كمن يجري عملية جراحية لمريض تؤلمه لكنها ستشفيه.

obeikan.com

- لو خدتي بالك الحاجة اللي خلتنا نقدر نعدي التجربة دي هي ذكرياتنا الحلوة اللي مع بعض قبل راجي.

كانت بتفكرني إن كان فيه حب كبير محدش يقدر يموته.

خلي بالك راجي ابني وأكتر حاجة حبيتها بعدك بس كان نفسي يعيش معانا حبنا لبعض.

كنت عايزه يحس قد إيه إحنا عزاز على بعض عشان منهونش عليه زي ما هنّا لإنه شافنا طول الوقت بنيجي على نفسنا عشانه فاتعود إننا ولا حاجة إيه المانع إننا نعيش في دار مسنين هو إحنا بعد العمر ده هنكون محتاجين إيه غير ناكل ونشرب ونستنى الموت؟؟

ده المنطق اللي اتعلمه طول عمره وللأسف إحنا اللي علمناه.

كان نفسي نجتهد في تربيته أكتر ما نجتهد في دلعه.

كنا ندرس نسأل نذاكر إزاي نربيه أحسن ما كان همنا كله نأمن مستقبله ماديًا ونلبي كل طلباته اللي مبتخلصش.

لو كنا ربيناه صح وماسيبنالوش فلوس كان ها يصونا ويعمل هو الفلوس لما مربناهوش وسيبناله فلوس رمانا وزمانه ضيع الفلوس هي دي المعادلة.

تنهدت في ألم وأطرقت إلى الأرض.

ebelkan.com

- أنا اتصرفت كأم.

اتحملت نظرات الناس ليا طول ٩ سنين، نظرات كانت بتحسسني بعجز ونقص ملهمش حدود

كنت بخاف عليك إنك تضيع مني وتدور على واحدة طبيعية تخلفلك اللي نفسك فيه.

كنت بموت ولما خلفت مكنتش مصدقة.

كنت بخاف أصحى من النوم ملاقيهوش جنبي أحيانًا كنت بشك إني بحلم وإني ولا خلفت ولا حاجة.

إديته من عمري ووقتي زي أي أم.

المفروض يردلنا ده هو يعني ذنبنا إننا كنا حنينين عليه بزيادة؟؟؟

- الحنية عاملة زي الملح في الأكل لازم يكون مظبوط.

لو الحنية زادت عن حدها يطلع شخص أناني بيحب نفسه ولو قلت بيبقى شخص قاسي معندوش رحمة.

عاد للوقوف مرة أخرى.

- طول الوقت في الدار كنت بفكر إيه اللي خلى راجي عمل كده؟؟

كنت بموت في الدقيقة ألف مرة حاسس إني أنا السبب مهما حصل منك أنا المسئول في النهاية.

أمسكها من يديها وأنزلها من على السرير وضمها.

- مفيش كلام تاني هيتقال في الموضوع ده.

عايزين نبدأ نعيش أيامنا اللي باقية كإننا لسه مخطوبين والعمر قدامنا.

- أنا معاك زي ما طول عمري معاك.

- إوعدينى نفضل متبتين في بعض ومفيش حاجة تهزمنا؟؟

- أوعدك يا حبيبي.

ابتسمت ونظرت إليه مداعبة.

- بس انت متأكد إنك هتبقى زي ما كنا مخطوبين؟؟

- وحياتك عندي وأحسن كمان.

انتبها معًا إلى المكان من حولهم كانت غرفة صغيرة وضع بها أثاث بسيط يحمل عبق الماضي يتكون من سرير حديدي ودولاب خشبي صغير نحتت عليه بشكل بارز أشكال كثيرة من القويما، على الجدار علقت سبحة خشبية كبيرة توسطها برواز أحاط بصورة عاشور رجل تبدو عليه ملامح الطيبة رسمت على جبهته

علامة كبيرة من كثرة السجود ذو شارب أبيض خفيف وضع على الصورة من أعلى شريط حرير أسود علامة الحداد.

فتح جلال الباب المطل على الصالة كان هناك كنبتان وضعتا بجوار الحائط على شكل زاوية قائمة علتهما مرتبتان من القطن بنفس حجمهما فوقهما غطاء مشجر أزرق اللون بورود بيضاء أمامهم، وقعت عينه على سفرة خشبية عتيقة علتها بعض الأطباق الألمونيوم ظهرت من تحت غطاء من القماش الأبيض الشفاف.

اقترب منه جلال وأزاح الغطاء فوجد الإفطار الذي تركه لهم محمد، انبعث من حجرة نومهما صوت أزيز هاتف جلال فدخل الغرفة يبحث عنه إلى أن وجده في جيب الجاكت الذي كان يرتديه ليلة أمس.

- ألوو.

- صباح الفل يا عم جلال حضرتك صحيت ولا أنا قلقتك؟

- صحينا الحمد لله.

- يارب تكونوا نمتوا كويس؟؟

- يا ابنى أنا كنت نسيت طعم النوم.

- أنا حضرتلكم لقمة خفيفة كده على السفرة في الصالة.

obeikan.com

- شكرًا يا حبيبي مش عارف أشكرك إزاي؟؟

- عمي إنت زي والدي بالظبط.

هسيبكم تفطروا وأنا هخلص شغل وأجي على طول.

- بقولك يا حبيبي ممكن تسأل على المعاش بتاعي إزاي أقبضه لإن الكارت مش معايا وياريت حد غيرك يسأل مش عايز حد يحس إن في كلام بيني وبينك من أساسه.

- حاضر يا عمي متقلقش.

●●●

دخلت سبيل بهدوء ومشت على أطراف أصابعها واقتربت من راجي.

أحس راجي بيد تداعب شعره وبرائحة برفان نفاذة تدغدغ أنفه، التفت وقبل أن ينطق وضعت يدها على فمه.

- بلاش عتاب.. بلاش عتاب يا حبيبي.

أبعدت يدها عن فمه وألصقت بدلاً منها شفتيها المكتنزتين.

شعر بأنغام الموسيقى تنساب من حوله والفراشات ترفرف على أنفه.

- انتي عارفة إني بحبك.

oboeikan.com

- وأنا مقدرتش أبعد عنك أنا أسفة.

قبلته مرة أخرى وأردفت.

- أنا ملكك أنا بتاعتك إنت وبس ومش هسيبك تاني.

اقتربت منه حتى لامس جسده جسدها فضمها بقوة.

- إوعي تسيبيني تاني يا سبيل؟؟

- عمري ما هسيبك أبدًا.

اقترب منها يريد أن يلتهم شفتيها الملتهبتين وفجأة رنّ جرس هاتفه المحمول فانتفض من على سريره واصطدمت رأسه بالكمودينو القابع بجوار السرير، أمسك برأسه متألمًا ونظر حوله متلفتًا يبحث عن سبيل، نظر إلى الهاتف الذي يلح عليه بنغمته حتى يجيب بصوت مكتوم.

- ألوو.

- أيوا يا أستاذ راجي أنا سعاد بتاعة الدار.

- أيوا يا ست سعاد فيه حاجة؟؟

- أنا شكلي صحيتك من النوم.

صرخ فيها بعصبية.

- أيوا صحيتيني من الزفت فيه إيه؟؟

obeikan.com

ارتبكت وتهدج صوتها .

- كنت عايزة أشوفك عشان والدك محتاج فلوس.

- مفيش فلوس مش هدفع غير أجرة الإقامة قوليلهم كده مش بياكلوا ويشربوا عايزين إيه تاني؟

- يعني أبلغهم بالكلام ده؟؟

- بلغيهم ومش عايز أسمع أي حاجة تخصهم اتصرفي انتي وأول الشهر ابقي عدي عليا؟

- أوك زي ما حضرتك عايز وأنا أسفة على الإزعاج.

سلام.

أغلقت الهاتف ونظرت بجوارها إلى مدكور بيه الجالس على مكتبه .

- شكله ميعرفش حاجة وأنا مظنش إنهم هيروحوله؟

- خلاص سيبيه كده مش عارف عشان ميجيش يعملنا مصيبة لغاية ما نشوف هنعمل إيه؟

نظر أمامه إلى الكتلة الضخمة المتوقفة أمامه في خجل.

- أما أنت خسارة فيك العتاب جتك نيلة في شكلك وغباوتك.

obeikan.com

امشي من قدامي.

استدار سيد كونش ضخم وانصرف منكس الرأس.

جلس راجي على طرف السرير محملقًا إلى الهاتف تنتابه رعشة بخده الأيمن باتت متكررة مع عين دامعة باستمرار أخذت تطوف برأسه لقطات متقطعة من الحلم ممتزجة بلقطات لسبيل وهي تقاومه وتشق خده بقطعة الزجاج رفع يده متحسسًا الجرح ماسحًا دموع عينه اليمنى ثم طلب رقمًا على الهاتف.

- ألووو.

- إيه الأخبار؟؟

- عايز أشوفك ضروري؟؟

- فيه حاجة حصلت؟

في توتر.

- أيوا عايز أعرف أخرتها إيه؟

أنا عايز سبيل بأي تمن.

ابتسم مازن ابتسامته الماكرة.

- تحت أمرك شوف عايز نتقابل فين؟؟

obeikan.com

- الساعة ٦ في مطعم في أكتوبر اسمه كويت كورنر.

- هكون في المعاد.

سلام.

أغلق مازن الهاتف وشرد في ابتسامة ارتسمت على وجهه.

- حلو أوي الواد استوى على الأخر يا عيني على الحلو لما تبهدله الأيام.

●●●

طرق محمد عاشور الباب بطريقة طفولية وهو يغني على إيقاع الطرق يحمل في يده شيئًا ملفوفًا بورق جرائد، نهض جلال وفتح الباب فبادره محمد بابتسامة واسعة وهتف.

- عم جلال منور روض الفرج كلها.

دخل إلى زهيرة الجالسة على الكنبة المواجهة للباب وانحنى فقبل يدها.

- أمي عاملة إيه؟

ابتسمت في عطف وتبادلت نظرة مع جلال.

وضع محمد اللفة التي في يده وفتحها.

- أكيد وحشكم السمك.

obeikan.com

التفت لهم وقال في حركة استعراضية.

- أنا فكرت إيه أكتر أكلة تكون وحشتكم وقلت لا يمكن يكونوا بيعملوا سمك في الدار فعديت على القرموطي جبتلكم أحلى أكلة سمك مشوي.

نظر إليه جلال في تقدير.

- واللّه يا ابني إنت غرقتنا بجمايلك.

- لو سمحت يا عمي متقولش كده أنا زي ابنك.

- لا يا ابنى أنت مش زيه.

أدرك محمد معنى الكلمة ثم صاح.

- السمك هيبرد.

كانت رائحة السمك قد انتشرت في المكان وداعبت أنوفهم فجلسوا يأكلون، كان محمد يفصص السمك ويضع لحمه الطري أمام زهيرة وأمام جلال ولا يأكل فتوقف جلال عن الأكل ونظر إلى محمد.

- يا ابني مش هينفع كده إحنا هنعرف ناكل كل انت بس ومتشغلش بالك.

نظر محمد إلى جلال وزهيرة وقد بدا عليه التأثر.

- أبويا يا عم جلال تعب أوي عشان يربيني ويعمل مني راجل علمني أعتمد على نفسي.

مرضيش يتجوز بعد أمي ما ماتت حرم نفسه من حاجات كتير وأنا مكنتش واخد بالي إنه بييجي على نفسه كتير علشاني.

ولما جيت أردله ولو جزء من اللي عمله معايا كان الوقت فات.

كان تعب وصحته اتدهورت ومات.

كان نفسي أعيشه يومين ويدوق الراحة.

أنا نفسي أفضل أبرّه.

ممكن تدوني فرصة أبرّ أبويا فيكم؟

دهش جلال من كلامه وواصل محمد.

- مش لما واحد راح للنبي عليه الصلاة والسلام سأله إزاي أبرّ والديا بعد ما يموتوا فالرسول قاله إنك تبر صديقهما.

نظر جلال إلى زهيرة في تأثر ثم عاد إلى محمد.

- شفت يا ابني إنك مش زيه!!

هو رمانا في الدار وانت خرجتنا منها.

oreilkan.com

إنت عايز تبر والدك اللي مات وهو ما برش أبوه وأمه اللي عايشين.

أطرق في تأمل.

- والله يا ابني اللي بيحصل منك ده كمالة التجربة اللي ربنا راسمهالنا.

لازم الدرس يكمل.

ادينا لابننا كل حاجة عشان كنا عايزين كلمة حلوة زي كلامك ده بس بخل علينا بيها.

والدرس الأهم إننا منضيعش وقت نقدر فيه نسعد نفسنا أو نسعد اللي حوالينا لأن العمر مفيش حاجة بتعوضه، والوقت اللي بنستقطعه من الدنيا ونشارك فيه الناس اللي بنحبهم أوقات السعادة هو ده العمر.

مدّ جلال يده مربتًا على كتف محمد.

- بص يا ابني متخليش الدنيا تسرق عمرك من غير ما تحس اسرق إنت عمرك من الدنيا.

نهض محمد ومال على رأس جلال فقبلها.

- اعتبرني ابنك وخليني أحاول أسعدكم؟؟

o p e l k a n . c o m

- أنت ابني فعلاً.

ابتسم محمد مداعبًا.

- نكمل أكل بقى ولا السمك مش عاجبكم؟؟!!

●●●

أمام مطعم كويت كورنر وصل مازن مبكرًا كعادته عندما يذهب إلى مكان لأول مرة يدور حوله يعرف مداخله ومخارجه ويدخل ليجلس في آخر نقطة في المكان بحيث يرى جميع من في القاعة، دخل مازن وجلس على ترابيزة في آخر صالة المطعم لم تكن الترابيزة المثالية من وجهة نظر مازن لكنها كانت تفي بالغرض.

اقترب صلاح النادل من مازن فوضع المنيو أمامه وهمّ بالإنصراف فأشار له مازن بالإنتظار.

استقر سريعًا على ما سيشرب.

- اسبريسو دوبل

كتب صلاح وهم بالإنصراف فاستوقفه.

- الأستاذ راجي بيقعد هنا؟

- راجي جلال؟ أه ده زبون المكان.

obeikan.com

- تمام شكرًا.

كان ياسين يبدل ملابسه استعدادًا لمغادرة المكان عندما دخل عليه صلاح وأخبره بسؤال شخص عن راجي.

بدا عليه القلق وقطّب جبينه وأعاد ارتداء اليونيفورم.

- أنا مكمل سيبني أنا في الصالة.

خرج إلى الصالة في دخول راجي لم يتبينه ياسين بسبب تغير هيئته فقد بدا هزيلاً طالت لحيته، بدا مضطربًا دار بعينيه في المطعم فهرع إليه ياسين.

- راجي بيه ازيك؟

إيه الغيبة الطويلة دي اتفضل.

- فيه واحد هنا مستنيني؟

بذكاء سأله ياسين.

- اسمه إيه؟

- مازن.

قالها راجي بتلقائية.

obeikan.com

دار ياسين هو الآخر برأسه في المكان فلمح شخصًا يجلس في سكون في أخر المطعم.

- هو ده يا راجي بيه وأشار إلى مكان مازن.

- تمام هو شكرًا.

تقدم راجي ناحية مازن الذي وقف مصافحًا ثم جلسا.

تبعهما ياسين مسترقًا السمع.

لاحظ مازن وقوف ياسين فرمقه قبل أن يتحدث.

- شوف هتاخد إيه يا راجي بيه؟

- إنت ضيفنا عيب تشرب إيه؟

أشعل سيجارة ونفس دخانها ناحية ياسين.

- أنا طلبت اسبريسو دوبل.

نظر راجي إلى ياسين.

- أنا عايز عصير وهاتلي شاليمو.

أصبح راجي لا يستطيع أن يشرب من أي كوب مباشرة، كانت السوائل تسقط من شفتيه لا يتحكم فيها، انصرف ياسين والتفت راجي إلى مازن.

obeikan.com

- فين سبيل؟

تجاهل مازن سؤاله وأخذ يحدق في وجهه المرتعش.

- إنت مالك شكلك مش عاجبني أنت عيان؟

بعصبية بادية.

- سيبك مني أنا فين سبيل؟

- أنا من ساعة ما كلمتك وأنا يوماتي معاها على التليفون كانت قافلة منك أوي أوي.

اضطرب راجي وارتعشت عضلات وجهه.

- يعني إيه؟

- متقلقش أنا لينت دماغها.

في لهفة فشل أن يكتمها.

- طيب إمتى هشوفها؟

- نتفق الأول.

- أنا تحت أمرك.

أنا مش معارض المشروع من الأول.

- لأ فيه حاجات اتغيرت.

obeikan.com

الراجل الهندي إحنا اتأخرنا عليه فالموضوع باظ.

واصل حديثه بينما أخرج مجموعة أوراق طواها داخل جيب الجاكت الداخلي.

- أنا عايزك تقرا ده وتمضيلي عليه؟؟

تناول منه الأوراق وأخذ يقرأها ثم غمغم في تعجب.

- عايز شقة في القصر العيني ٢٠٠ متر متوضبة ومفروشة بألف جنيه في الشهر وكمان لمدة عشر سنين!

ليه؟؟؟؟؟؟

- التمن هيبقى سبيل.

هتكلمك وتجيلك مكان ما إنت عايزها.

- إنت متأكد إنك هتقدر تعمل كده؟

في ثقة.

- أنا اللي مربيها.

مدّ راجي يده بالعقد إلى مازن.

- أنا مش همضي غير لما أشوفها.

التقط مازن العقد في ثقة تبدد أي شك.

obeikan.com

- طبعًا.

أنا كنت بعرفك أنا عايز إيه.

- هشوفها إمتى؟

- بكرة زي دلوقتي هاجي وهي معايا.

تمضيلى على العقد أسيبكم مع بعض وانت وشطارتك بقى ولا عايزني في دي كمان.

شعر بالحرج فأصيبت الشفة برعشتين قبل أن ينطق.

- لأ سيب الباقي عليا.

اقترب ياسين بالأوردر يحمله على صينية لم يسمع غير هذه الجملة.

«سيب الباقي عليا».

خفق قلب ياسين خوفًا على سبيل لكنه كتم خوفه ورمق مازن بنظرة لم يبلعها الأخير.

أنزل ياسين القهوة والعصير وناول راجي الشاليمو وانصرف يغلي من داخله كقدر على الجمر.

اقترب مازن من راجي.

obeikan.com

- الواد الويتر ده مش مستريحله عمال يبصلنا طول الوقت.

- ده عشان أنا زبون دايم هنا فبيبقى عينيهم عليا على طول.

لم يقتنع مازن لكنه رشف رشفة من الإسبريسو وأشعل سيجارة.

●●●

اصطفت الكراسي والترابيزات في مقهى الأفندية على شكل نصف دائرة يتوسطها مجموعة ترابيزات كبيرة التصقت بجانب بعضها مشكلة مسرحًا صغيرًا، اعتلى المسرح مجموعة من الشباب يمسك كل منهم آلة موسيقية يضبط إيقاعها، ازدحم المقهى بالشباب وتعالت الأصوات ممتزجة بأصوات النغمات النشاز المنبعثة من الآلات الموسيقية التي يجربها أصحابها.

كانت سندس تتنقل كالنحلة تضع زجاجات الماء على الترابيزات، على البار وقف عادل يحضر العصائر ويرص أكوابًا فارغة أمامه.

كانت سبيل تقف على باب المقهى تستقبل الشباب وتجلسهم بشكل منظم على الترابيزات، كانت تنظر إلى ساعتها كل دقيقة.

اقتربت من عادل على البار.

- ياسين اتأخر أوي؟؟

obeikan.com

- تلاقيها السكة.. النهاردة الاتنين الدنيا زحمة.

بدا عليها عدم الاقتناع، أخرجت هاتفها من جيب البنطلون الجينز الملتصق بجسدها وابتعدت عن الضوضاء خارج المقهى.

- ألوو انت فين؟؟

اتأخرت أوي وكلمتك كتير مردتش والحفلة هتبدأ وإنت مش موجود.

سمعت صوت ضحكاته فسكتت ثم أردفت.

- إنت بتضحك؟

- انتي مش مدياني فرصة أتكلم.

ضربت الأرض بأقدامها في حركات طفولية.

-إنت فين طيب إنت عارف إني ببقى تايهة من غيرك.

- بجد تايهة من غيري؟؟!!

في دلال.

- أيوا عشان أنا لسه مش واخدة على حد هنا.

- بس كده؟؟

obeikan.com

هزت رأسها في ابتسامة.

- بس كده.

- خلاص عشر دقايق وأبقى عندك.

- كتير برضه تعالى دلوقتي حالاً.

- المهم طمنيني الدنيا تمام.

- اليوم حلو أوي أول مرة أعيش الجو ده.

في حزم مصطنع.

- طيب يلا خشي شوفي شغلك معندناش حد بيتكلم في التليفون أثناء الشغل.

- حاضر يا ريس.

ثم أردفت في عصبية.

- وانت بسرعة انت متأخر على شغلك.

ابتسم ثم أغلق الهاتف.

توقف مجموعة من الشباب أمام سبيل فأشارت إليهم بالدخول وتقدمتهم ناحية إحدى الترابيزات وأجلستهم.

اقتربت منها سندس.

obeikan.com

- فين الواد ياسين؟؟

- خلاص داخل علينا السكة شكلها زحمة.

- متعوديهوش على الدلع.

أشارت ناحية عادل المنهمك في رص الأكواب.

- شايفة يقدر يتأخر ولا يتدلع كنت عذبته.

في رقة ودلع.

- ياسين ميهونش عليا مقدرش أعذبه.

تنهدت سندس وأسبلت عينيها ساخرة.

- يا عيني على المشاعر اللي بدأت تبان.

دخل ياسين من باب المقهى في خطوات سريعة حتى وقف أمامهم وبابتسامة.

- أكيد جايبين في سيرتي؟؟

تهلل وجه سبيل واحمرت وجنتاها فازدادت جمالاً على جمالها ولمعت عيناها حين التقت بعيني ياسين الذي فغر فاه وتأملها من فوقها لتحتها.

- إيه الحلاوة والطعامة دي؟؟

obeikan.com

في حركة مباغتة سحبت سندس يد سبيل التي تعلقت عيناها بياسين.

- يلا ورانا شغل مش فاضيين للدلع ده دلوقتي.

ضحك ياسين واتجه إلى عادل على البار.

- إيه الأخبار؟

- كله تمام.

روح شيّك على البروجرام مع الشباب على المسرح عايزين نبدأ في معادنا.

قفز ياسين على المسرح وتبادل حديثًا قصيرًا مع الشباب الواقفين.

كانت الساعة تشير إلى الثامنة كان الكل في مكانه على الترابيزات، اصطف العازفون على المسرح، وقف بجانب المسرح شابان وفتاة منتظرين فقرتهم الفنية.

التفت ياسين إلى الترابيزات التي اصطفت أمامه ورفع يديه إلى أعلى فساد الصمت في المقهى.

أمسك بميكروفون ناوله له أحد الشباب وبصوت هادئ.

- مساء الخير.

obeikan.com

صفق الحضور وتعالت صافرات الإعجاب، تعلقت عينا سبيل الواقفة بجانب البار بياسين وقد تعالت ضربات قلبها في فرح ونظرت إلى سندس وعادل الواقفان بجوارها.

هدأ التصفيق فأكمل ياسين.

- الحمد لله حلمنا بيكبر.

حلمنا إن يبقى فيه مكان الشباب يقعدوا فيه في جو راقي كل واحد بيحترم المكان وبيحترم اللي قاعدين معاه.

حلمنا إننا نعبّر عن اللي جوانا ونشارك بعض أفكارنا.

حلمنا إننا نسمع بعض ونشجع الموهوب مننا ونقف جنبه.

كل أحلامنا دي بقت موجودة هنا.

تعالى التصفيق وازداد خفقان قلب سبيل، كانت تشعر أنها تعيش في عالم أسطوري مليء بالرومانسية، أحست أن في قلبها حب ينبت في بيئة نظيفة.

كانت تشعر أن قلبها أصبح يسع العالم من حولها، احتضنت سندس من ظهرها فربتت سندس على يدها مبتسمة ونظرت إلى عادل وضمت أصابعها على يده.

obeikan.com

أشار ياسين للجمهور بالسكوت.

- عايز أقولكم على مفاجاتين أحلى من بعض.

أول مفاجـأة إن الحفلـة دي هتتكـرر كل يـوم اتنـين بـدل مـا كنـا بنعملهـا مـرة في الشـهر واللـي هيحيـي الحفلـة كل مـرة شـباب زينـا وأي حـد عنـده موهبـة في أي مجـال إحنـا هنبقـى مبسـوطين إننـا نقدمـه.

تعالى التصفيق للمرة الثالثة دون انقطاع فقاطعهم ياسين.

- إنتوا مش عايزين تعرفوا المفاجأة التانية ولا إيه؟؟؟؟؟

تعالت الأصوات.

- عايزين قول يا ياسين.

- المفاجأة التانية إن كل خميس هنخصصه لأي اتنين مخطوبين أو عايزيـن يعلنـوا خطوبتهم هنحتفل بيهم وهنشـاركهم فرحتهم.

أي كابل حتـى لـو متجوزيـن هيبقـى يوم نعبـر فيـه عـن حبنـا لأي حـد بنحبـه وقبـل مـا تسـقفوا أنـا هسـيبكم مـع المواهـب اللـي معانـا النهـاردة.

أسـلم المايـك للشـاب الواقـف بجـواره وهبـط مـن علـى المسـرح وسـط تصفيـق وهتـاف واتجـه ناحيـة البـار.

استقبله عادل واحتضنه وسلّم على سندس، وقف بجانب سبيل وبتلقائية تلامست أيديهم تبث ما بداخلهم من مشاعر صادقة.

وقفوا جميعًا يتابعون الحفل ملبين أي طلب من رواد المقهى، أمسك محمود المايك من ياسين وأعلن عن أول موهبة فصعد شاب من الثلاثة الواقفين بجوار المسرح وبدأت نغمات العود تنساب منتفضة من بين أوتاره.

وأنشد الشاب رائعة الشيخ إمام.

- يا مصر قومي وشدي الحيل كل اللي تتمنيه عندي

لا القهر يطويني ولا الليل أمان أمان بيرم أفندي

رافعين جباه حرة شريفة باسطين أيادي تأدي الفرض

ناقصين مؤذن وخليفة ونور ما بين السما والأرض

يا مصر عودي زي زمان

يا مصر عودي زي زمان

أخذ الشباب يتمايلون وقد سرى في عروقهم حماس وتدفقت مشاعر حب مصر المدفونة داخلهم تنتظر من يحييها.

في وسط هذا الإحساس الدافئ انبعثت نغمة نشاز من هاتف سبيل فابتعدت ناحية الباب وأخرجت الهاتف من جيبها .

- ألوو مين؟؟

- مسحتي رقمي؟

جحظت عينا سبيل وتوترت ملامحها .

- أيوا معاك.

- بكره الساعة ٦ في كافيه كويت كورنر طبعًا عارفاه.

في عصبية وتوتر .

- مش فاهمة إيه اللي بكرة؟؟

- أنا وانتي وراجي هنقعد نصفي الموضوع اللي بينكم.

دارت الدنيا حولها واستحالت النغمات إلى صرخات في رأسها وأطل الماضي بوجهه القبيح فأخرجها من حالة الهيام التي كانت تعيشها .

في نبرة تهديد .

- متتأخريش؟؟

قالها مازن في حزم وأغلق الهاتف.

obeikan.com

جاء صوت انتهاء المكالمة كوخز الإبر في أذنها، ظلت واضعة الهاتف على أذنها حتى أنها لم تسمع ياسين وهو ينادي عليها.

اقترب منها ياسين وأمسك الهاتف من يدها.

- مالك يا حبيبتي؟

- انتبهت إلى يد ياسين وهو يمسك الهاتف فدمعت عيناها وشعرت بمرارة الكلمات في حلقها فلم تستطع أن تنطق.

بنظرة هادئة وبصوت واثق.

- مازن مش كده؟

هزت رأسها إيجابًا ودموعها تتساقط.

- عايزك تقابليه انتي وراجي؟

- بكرة الساعة ٦ عندك في المطعم.

ابتسم ياسين ووضع يده على رأسها وضمها إلى صدره.

- متخافيش مش هيبقى فيه بكرة ولا الساعة ٦.

انتزعت رأسها من على صدره وبعينين ملأتهما الحيرة والألم.

- مش فاهمة حاجة؟؟!!

- ممكن تثقي فيا ومتشيليش هم أي حاجة وأنا جنبك.

obeikan.com

هـدأت قليـلاً وبـدأت الإبتسـامة تتسـلل إلـى شـفتيها رويـدًا رويـدًا، أمسـك ياسـين يدهـا وسـحبها إلـى داخـل الكافيـه.

- تعالي عشان هيغنوا أغنية حلوة أوي عايزك تسمعيها؟؟

دخلت وراءه تمسح دموعها بظهر يدها كطفلة أخبرها والدها أنـه سيعطيها قطعة من الحلوى.

في الداخـل انبعثـت الموسـيقى في أذنيهـا مـن جديـد وقـد اعتلـى المسـرح شـاب آخـر أسـمر اللـون شـعره مفلفـل كأنـه محمـد منيـر مـن عشـرين عامًـا أمسـك المايـك بيـده اليمنـى ووضـع يـده الأخـرى في خصـره وبـدأ في الغنـاء.

«ربك لما يريد ربك لما يريد

أحلامنا هتتحقق وكلامنا هيتصدق والغايب هيعود

ربك لما يريد

قلب العاصي يسلم وعيونا هتتكلم ولا شيء يبقى بعيد

ربك لما يريد

الصعب بيتهون والحزن بيتلون طول ما الإيد في الإيد

ربك لما يريد

obeikan.com

حلاقيك بتقربلي تفتح حضنك قبلي ولا فيه بينا حدود

ربك لما يريد ربك لما يريد ربك لما يريد».

●●●

في منطقة الحسين تلألأت الأضواء منبعثة من المحلات العريقة منعكسة في تتابع على الأطباق النحاسية المنقوشة والتي عكستها بدورها على المارة المتأملون أمامها في إعجاب.

جلس جلال وبجواره زهيرة على مقهى الفيشاوى الشهير، استقر أمامهما كوبان من السحلب الساخن تتصاعد منهما الأبخرة، أمسكت زهيرة الكوب بأناملها النحيلة ملتمسة الدفء بينما امتزج صوت العود بصوت ناي حزين حرك قلبها فتمايلت طربًا.

نظر إليها جلال في سعادة.

- إيه رأيك؟؟؟؟

- حلو أوي.

أول مرة أسمع ناي بالحلاوة دي.

- انتي عارفة الناي ليه صوته حزين؟؟

في نظرة دافئة كدفء كوب السحلب.

- ليه يا حبيبي؟

obeikan.com

- عشان الناي ده بيتعمل من فرع من شجرة الغاب فصوته ده حنين إنه يرجع للشجرة اللي اتقطع منها.

ضحكت بعيونها الذابلة.

- طيب ما نرجعه للشجرة حرام.

- ونتحرم من صوته الحلو؟؟

قالها جلال وهو يمسك بيدها يدفئها.

كان جلال قد دعاها يومًا لأن يجلسا هذه الجلسة لكنها رفضت متعللة بسمير ويذكر أيضًا أنه قص عليها قصة الناي لكنها لم تتذكر فدائمًا يسمع الإنسان ويرى من القصص والحكايات لكن هذه الحكايات لا يكون لها أي تأثير، يسمعها ولا ينصت إليها يراها بصره ولا يعيها قلبه ولو أن كل واحد منا أنصت ووعى كل ما يمر به من تجارب لكان المصير مختلفًا لا محالة.

لم يرغب جلال أن يذكرها بذلك اكتفى بأنها أخيرًا أنصتت وأصبح قلبها يرى، كان يريد أن يأخذها إلى كل مكان طلب أن يذهب إليه معها وامتنعت لكن بدون أن يذكرها بذلك، كان يريدها أن تسعد سعادة كاملة.

على نغمات العود والناي تمايل الاثنان كعصفورين وجدا بعضهما بعد غياب.

●●●

بالتدريج تعلم راجي فن قتل الوقت، فن لا يعلمه إلا من أثقلته الهموم، أول تلك الفنون الهروب إلى النوم فإذا استعصى عليه استعان بعوامل أخرى تأتي بالنوم راكعًا.

أصبح راجي زبونًا عند دكتور مايكل في الصيدلية التي بجوار شقته، بدأ بالمسكنات بداية من الكاتافلام والكيتوفان حتى الترامادول.

ازدادت أعراض عدم التحكم في خده الأيمن، أصبحت تنتابه رعشة من حين لآخر وأصبحت السجائر لا تفارق إصبعيه، أصبح سيئ المزاج فأشار عليه أحد أصدقائه بالسجائر المحشية لجلب السعادة، دخل إلى ذلك الطريق المليء بالدروب لا يعرف مسالكه إلا من دخله.

جلس راجي على الأرض واضعًا أمامه تموين اليوم، كوكتيل الترامادول على سيجارة بانجو وقطعة حشيش صغيرة لازالت في ورقة السلوفان، أمسك سيجارة البانجو وأشعلها فانطلق دخانها الكثيف يخرج من أنفه وفمه.

وقف فجأة كان يتخيل لحظة اللقاء، أخرج المرآة الكبيرة التي في حجرة نومه ووضعها في زاوية من الصالة، وقف أمامها لحظات وضع يده في جيبه ناظرًا من طرف عينيه متخيلاً كيف سيمشي أمامها هي ومازن إذا وصلوا قبله.

- مساء الخير.

ازيك يا سبيل.

ازيك يا أستاذ مازن.

جلس راجي واضعًا قدمًا على قدم متحسسًا جرحه في خده.

- أنا جيت النهاردة عشان العشرة والعيش والملح واحد غيري كان باع.

نظر ناحية مازن مشيرًا له بيده أن يسكت.

- استنى يا أستاذ مازن لازم أكمل.

إنت متعرفش سبيل دي بنسبالي إيه حتى اللي حصل ده حب يمكن أنا طريقتي كانت مش لطيفة بس والله ده حب ولو هي مسألة سكس البنات كتير.

انتفض مرة أخرى واقفًا في عصبية.

- لأ لأ لأ مش حلو موضوع السكس ده.

رجع بخطواته إلى الوراء كأنه أمام كاميرا وطلب منه المخرج إعادة المشهد، ظل هكذا جيئة وذهابًا أمام المرآة حتى أنهى على سيجارة البانجو وأعقبها بسيجارة الحشيش ثم ارتمى على وجهه بجوار المرآة.

●●●

استيقظت زينب كعادتها مبكرًا وجلست على الحشائش خلف البرجولة ترقب البوابة بعينين زائغتين.

كانت الدار بالنسبة لزينب هي بيتها الذي لا تعرف غيره، لا تذكر جيدًا أنه كان لديها حياة في أي مكان آخر، سعاد هي كل عالمها تدور حولها تنتظر منها أي طلب لتسرع في تنفيذه، حفظت كل ملامحها تعرف متى تكون غاضبة ومتى تكون راضية، متى يكون في رأسها شيء يشغلها ومتى تكون مرحة تضحك معها؟!

لا تعرف ماذا يعني وجود هؤلاء العجائز في الدار، كانت تعتقد أن أي إنسان حين يكبر في السن لابد أن يأتي هنا وأنه يصبح خطرًا على نفسه وعلى الآخرين فيجب عليها أن تراقبهم طوال الوقت، تبلغ كل حركة منهم لسعاد حتى تتخذ الإجراء المناسب في الوقت المناسب حتى تنقذ العالم من خطرهم، لا تعرف أي شيء أبعد من ذلك.

كانت تنظر بتعجب لأم نبيل حين كانت تبكي وتذكر ولدها وما كانت تفعله لأجله تظل منصتة لها حتى تنتهي من كلامها ثم تمط شفتيها رافضة كل ما تقوله.

- أم نبيل خرفت وبيتهيألها حاجات مش موجودة.

obeikan.com

كانت تردد هذه الكلمة التي كانت ترددها سعاد حتى اقتنعت أن هذه الكلمات هي كلماتها ورأيها هي لدرجة أنها شكّت في وجود شخص اسمه نبيل من الأصل.

كانت تتأفف من مرافقة عم زكريا ذلك الرجل السفيه الذي تسبب له التلفاز في كل ما حدث له ولولا أن سعاد تشدد عليها في مرافقته ما جلست بجواره لحظة.

لم تعرف أبًا أو أمًا ولم تذق عطفًا من أحد لكنها منذ أن رحل جلال أحست بوحشة لم تشعر بها من قبل، كان جلال بالنسبة لها كأي شخص من هؤلاء الكائنات الهرمة التي ينتظر كل من في الدار أن ترحل رحلتها الأخيرة لكنها كانت تشعر في عينيه بطيبة لم ترها في أي من العيون التي حولها، كانت تشعر بنظراته الحانية عليها، كان دائمًا يبتسم لها لكنها لم ترَ إلا ما ترى سعاد.

«جلال ده شخص كهين مش سهل لازم نراقبه طول الوقت مش عايزينه يخرج برة الدار».

دار في رأسها مرارًا لماذا جلال بالذات لا يريدونه أن يغادر الدار.

- لازم جلال خطر ولازم عمل مصايب برة الدار.

في المرات القليلة التي تحدث جلال إليها كانت تغلب عليها فطرتها وتنسى لدقائق صوت سعاد في رأسها وتتجاذب أطراف الحديث معه، تأنس به وبكلامه معها ثم بعد أن يبتعد عنها كان صوت سعاد يعود ليصرخ في رأسها فتنتبه لما فعلته.

- لازم جلال ده بيسحرني بكلامه عشان أصدقه لإنه مش سهل زي ما الست سعاد بتقول.

أصاب عقلها الصغير ارتباك حين أهداها جلال هذا العقد من العقيق الملون فعلى مدار عمرها الصغير لم يعطها أحد شيئًا على سبيل الهدية، كان كل ما تأخذه يسلم لها كعهدة مثل زميلاتها، تأخذ الزي الموحد صيفًا وشتاءً، تأخذ أدوات نظافة ممسحة ومقشة وجاروف.

ظلت تسأل نفسها.

- هو ليه إداني العقد؟!!!!!

لازم عايزني مراقبهوش.

بس ليه إدى أم نبيل كراسة رسم؟؟

كان السؤال الأصعب.

- ليه مشي؟؟؟؟

obeikan.com

كانت تراقب غرفته دائمًا وتمسك بحبات العقد بين أناملها فتحس باشتياق لرؤيته تتمنى لو أنه يعود أو تخرج هي إليه، كانت تريد أن تسأله. «من أنت؟»

أخذت تخطّ في الأرض بغصن جاف تدور بعينيها في الدار، كانت لأول مرة ترى ذلك السور وتلك البوابة الحديدية.

●●●

جلس منجي وسط حشمت وولديه أحمد ومحمود على مصطبة طينية خارج الدار، بدا على منجي العجلة فابتدر الحديث.

- بص يا أبو محمود.

أنا لسه جاي من عند خالك بكري هو كان صعبان عليه منك ومن كلامك وكان منشف دماغه بس أنا فهمته إنك عندك حق والقانون والشرع معاك.

ووصلنا لحل وانت تشوف هتعمل إيه؟؟

- خير يا أستاذ؟؟

- شوف يا سيدي.

كل واحد من أخوالك التلاتة هيديك فدان من أرضه.

قاطعهم محمود غاضبًا.

- فدان بس ده إحنا نصيبنا عند كل واحد مش أقل من تلاتة.

نظر منجي إلى حشمت.

- اسمعوا كلامي للآخر.

أشار حشمت إلى ولده محمود بالصمت فأكمل منجي.

- التلات فدادين دول هتاخدهم حتة واحدة في الغيط البحري قريب من بيتك هنا.

وانت عارف إن الغيط ده أحسن غيط في أرضهم كلها.

أطرق حشمت مفكرًا فتابع منجي.

- فكر كويس ورد عليا.

نظر إليه حشمت يريد أن يستشف ما دار بينه وبين خاله من حوار وسأله في اهتمام.

- وإنت رأيك إيه يا أستاذ منجي؟

- والله أنا شايف إنك تقبل لسببين.

obeikan.com

أولاً. هتاخد الأرض من غير مشاكل ولا محاكم ولا النفوس تشيل من بعضيها وفي الآخر أنتوا أهل.

ثانيًا. لو اتعمل إعلام وراثة خالتك فريدة هتخش في الميراث ومش هتاخد أكتر من التلات فدادين بكتير.

بس هما عندهم شرط إنك تدفع مبلغ بسيط ويكتبولك الأرض بيع وشرا.

مش عايزين يعرفوا حد موضوع الميراث ده عشان انت عارف إن خالتك كانت متجوزة برة البلد وجوزها كان مبسوط ومش محتاجة فمش عايزين حد يعرف عشان متطالبش هي كمان بالميراث.

من خلف الباب أطلّت خديجة نادت على محمود لكي يأخذ منها صينية الشاي ثم ظلت خلف الباب تستمع إلى باقي الحوار في لهفة.

●●●

في الباركينج أمام المطعم جلس راجي في سيارته منتظرًا قدوم سبيل ومازن، كان يريد أن يدخل بعدهما طبقًا للخطة التي وضعها وتمرن عليها أمام المرآة طوال ليلة أمس.

ابتلع مجموعة من المهدئات لم تفلح في تهدئة شيء من أعضائه، نظر في ساعته كانت تشير إلى الرابعة وثلاث دقائق، دقق في الساعة لم يصدق أنه مر ثلاث دقائق فقط منذ وصوله.

- هو قالي المعاد ٦؟!!

مش مهم أنا عايز أشوفهم وهما داخلين وأدخل عليهم بعديها بنص ساعة ألطعهم شوية.

نفض رأسه وانتابته نوبة من الرعشات كأن أحدًا دسّ في عنقه صاعق كهرباء.

- نص ساعة كتير بعديهم بربع ساعة كويس.

نظر إلى الساعة تحرك العقرب قليلاً- الرابعة وسبع دقائق- أصابه الشك في ساعته، أخرج الموبايل- الرابعة وثمان دقائق-.

- خلينا في الموبايل ساعته أظبط.

نظر في مرآة السيارة إلى ذقنه التي احتار أيحلقها أم لا طوال ليلة أمس.

- أحلقها عشان أبان أحلى كده ومظبط.

بس الجرح هيبان وأنا مش عايزها تشوفني كده.

obeikan.com

أخذ يشذب فيها ويحاول ضبطها حتى أصبحت كقطع نجيل متناثرة في أرض رملية.

أخرج زجاجة صغيرة من جيبه وقطّر منها قطرات في عينه اليمنى ثم نظر إلى هاتفه- الرابعة وإحدى عشرة دقيقة-

كان الوقت يزحف ببطء كأنه دبّابة ضخمة تمر على جسده يسحق جنزيرها عظامه في تلذذ.

كان ياسين داخل المطعم يمر على زبائنه الجالسون يبدو عليه الوجوم والخوف، أمسك هاتفه وطلب رقم الكيش في يأس.

- الهاتف مغلق.

كان كلما سمع رسالة الهاتف المسجلة أنه مغلق ازداد خوفه لدرجة أنه كان يتردد كل مرة يهم أن يطلبه فيها، زاغت عينيه.

- هعمل إيه لو مازن وراجي جم ومجتش سبيل زي ما قولتلها !!!!!

ومازن هيعمل إيه؟!!!!

انتفض فجأة على رنين هاتفه أمسكه في لهفة معتقداً أنه الكيش تبددت اللهفة من على وجهه واستحالت إلى امتعاض وخوف.

- ألو أيوا يا سبيل.

- أنا بطمن عليك.

- يا شيخة انتي لسه مكلماني معداش ٥ دقايق.

- معلش أنا القلق هيموتني.

- أنا قولتلك متخافيش وطمنتك إن مازن مش هييجي.

- ما انت مش عايز تحكيلي أنت عملت إيه في مازن؟

في عصبية.

- يعني هكون قتلته!!

هدأ من نبرته وأردف.

يا ستي هبقى أحكيلك التفاصيل كلها في وقتها بس سيبيني دلوقتي عشان عندي شغل.

- طيب راجي جه؟

- لأ لسه.

- طيب لما ييجي ابقى قولي؟

- هكلمك أول ما أخلص الشيفت وأطمنك اهدي بس وخليكي واثقة فيا.

obeikan.com

أغلق الهاتف ونظر في ساعته كانت تقترب من السادسة، ضغط على اسم الكيش مرة أخرى لازال الهاتف مغلقًا.

غمغم في قلق.

- وبعدين يا كيش انت أول مرة تعمل معايا كده!!

كان الكيش رفيقه في مرحلة الثانوية العامة لكنه لم يكمل دراسته واختار طريقًا آخر، وعده حين التقاه أمام المقهى أنه سيتكفل بمازن لكنه اختفى من يومها وهاتفه مغلق دائمًا.

في الخارج كان راجي يتصبب عرقًا رغم برودة الجو، تنتابه تشنجات ورعشة في يده ووجهه.

ينظر في كل من يدخل المطعم، نظر إلى موبايله وتمتم بصوت متقطع.

- سسسسستة أمال هما فين!!!!!!

يمكن دخلوا وأنا مشفتهمش؟!!!!!

أكلم مازن أشوفهم فين؟

لأ لأ أكيد هي معاه مش عايزها تحس إني ملهوف عليها عشان متسوقش فيها.

أعمل إيه؟؟ أعمل إيه؟؟

أكيد دخلوا وأنا مشفتهمش.

فتح باب السيارة وخرج بخطوات مترنحة كأنه خرج من غرفة العمليات قبل أن ينتهي تأثير البنج، اصطدم بالباب الزجاجي للمطعم فأحدث صوتًا جعل كل من بالمطعم ينتبه إليه، أخذ يدور حول الترابيزات كالمجنون يتعثر في كل ما يمر به يبحث في الوجوه كطفل تائه.

من بعيد رآه ياسين فهرع إليه.

- مالك يا راجي بيه؟

بتلعثم وهو يدور بعينيه.

- مشوفتش الراجل اللي كان قاعد معايا إمبارح؟

حاول ياسين أن يبدو طبيعيًا إلى أقصى حد رغم التوتر الذي يسيطر عليه.

- لأ مشفتوش حضرتك.

اتفضل استريح استناه.

- اتكأ راجي على ياسين لا تحمله قدماه حتى أجلسه ياسين على كرسي في إحدى الترابيزات.

أحضر له ياسين كوبًا من عصير الليمون وناوله له فأمسكه لكن نوبة من نوبات الرعشة ضربت وجهه ويده فسقط الكوب من يده، أحضر ياسين أحد العاملين لينظف الزجاج المتناثر ومضى هو يحضر كوبًا آخر.

مضى الوقت بطيئًا على كليهما، أصبحت الساعة تشير إلى السادسة والنصف.

أمسك راجي هاتفه يحاول أن يطلب رقم مازن، كانت يده ترتعش استطاع بصعوبة طلب الرقم فجاءه الصوت الرتيب.

- الهاتف المطلوب ربما يكون مغلقًا أو خارج نطاق الخدمة.

هبّ راجي كمن لُدغَ من ثعبان وصرخ بصوت هستيري.

- سبيييييييييييل.

ثم خرج يركض ناحية الباب.

من بعيد قرب البار وقف ياسين ممسكًا بكوب العصير يراقبه حتى اختفى في الظلام.

بعد دقائق دخل سعيد أحد أفراد المطعم الواقفين خارجه وتقدم ناحية ياسين.

- فيه واحد بره عايزك قولتله يدخل مرضيش.

وضـع ياسـين الصينيـة التـي كان يمسـكها وتوجـه إلـى خـارج المطعم يتقدمه سعيد، أشار له على شخص يقف بعيدًا في الظلام موليًا ظهره لهم.

اقترب منه ياسين.

- حضرتك عايزني؟؟

استدار ببطء وفي هدوء.

- إيه يا شقيق إنت مش عارفني ولا إيه؟؟

صاح ياسين في عصبية.

- إنت قافل تليفونك ليه حرام عليك يا أخي تعبت أعصابي؟

- إيه يا شقيق اهدى كده ومتبقاش خفيف.

- طيب كلمني دقيقة واحدة قولي الموضوع تم ولا متمش.

- عيب عليك تقول كده للكيش طالما قولتلك هيتم يبقى بعون الله هيتم.

- مكلمتنيش ليه طمنتني؟

- لازم بعد العملية يبقى فيه حالة سكون انت متعرفش حالة السكون؟؟

obeikan.com

- سيبك من جو المخابرات ده واحكيلي إيه اللي حصل؟؟

ألقى الكيش سيجارة كانت في يده ثم بدأ يحكي لياسين ما حدث.

على ناصية شارع ربيعة من شارع فيصل وقف الكيش بنفس هيئته التي لا تكشف عن وجهه يلتفت يمينًا ويسارًا، دقائق وخرج من الشارع بورده صبي مازن يدندن بأغنية لا يحفظ منها غير كوبليه واحد يردده.

اقترب منه الكيش.

- مساء الخير يا شقيق.

انتفض بورده ورجع خطوة إلى الوراء.

- مساء النور.

- معايا حتة أي فون بكرتونتها عايز أصرفها؟

ظل بورده ينظر إلى الكيش في ارتياب فسأله الكيش.

- الريس موجود؟؟

- موجود تعرف تطلعله ولا أطلعك؟

- أمان أنا هعرف أطلع.

obeikan.com

تركه بورده وانصرف، ظل كيش يتابعه حتى عبر الشارع وابتلعه الظلام، أخرج الكيش هاتفه.

- ألوو الطير في عشه.

- طيب اخلع أنت.

عبر الكيش شارع فيصل وفي بقعة غاب عنها النور التصق بأحد الأكشاك المغلقة يراقب شارع ربيعة.

دقائق واقتربت سيارة ملاكي سوداء تبعتها أخرى دوبل كابينة نزل منها أربعة أشخاص وقفوا بجوار الملاكي التي نزل منها شخص بسرعة مهرولاً حتى اختفى داخل عمارة مازن تبعه الأربعة الآخرون.

لم تمض عدة دقائق حتى هبط اثنان يحيطون بمازن الذي كبلت يديه بكلبش ميري، ألقوه في مؤخرة السيارة وصعدوا خلفه.

بعد قليل هبط الشخص الذي تقدمهم يتبعه الاثنان الآخران يحملون كراتين كبيرة ألقوها في السيارة وانطلقوا.

أشعل كيش سيجارة ونفس دخانها بعيدًا في الهواء ونظر إلى ياسين في ثقة.

obeikan.com

- بس يا سيدي ورحت قافل تليفوني لا يكونوا في القسم مراقبينه وانت تكلمني رجلك تيجي في الموضوع.

- وانت هيراقبوا تليفونك ليه؟؟

مال كيش ناحية ياسين وهمس.

- ما اللي أنا كلمته ده المخبر الخصوصي اللي مع رئيس المباحث.

وقلت آجي أقولك عشان مش هينفع أقولك في التليفون.

احتضنه ياسين وربّت على كتفه.

- تسلم يا صاحبي.

- بقولك إيه أنا جعان أنتوا طابخين إيه النهاردة؟؟

ضحك ياسين.

- عندنا فضلة خيرك بيكاتا بالماشروم وكوردن بلو.

قاطعه الكيش بإشارة من يده.

- إنت فاكرني زبون هترصلي المنيو يا عم هاتلي نص فرخة وشوية رز وتبقى اتعشت.

- بس كده تؤمر يا صاحبي بس تعالى استنى جوه من البرد.

obeikan.com

- لأ أنا هنا تمام انت عارفني بحب دايمًا أبقى في الهواء الطلق.

تركه ياسين ودلف إلى المطعم.

دقائق وخرج ياسين بما طلبه الكيش تناوله منه.

وألقى سيجارة في فمه وأحكم الكابتشو على رأسه ثم تلاشى في الظلام.

●●●

جلس جلال بجوار زهيرة داخل غرفتهم يدلك لها قدميها بزيت النعام، انسابت قطرات الزيت دافئة على قدميها النحيلتين بأطراف أنامله مسح جلال الزيت على قدميها وأعمل أصابعه في قدميها.

بدأ الألم ينسحب من قدميها شيئًا فشيئًا.

- إيدك حنينة أوي.

أنا بحس إنك بتدلك روحي من كتر ما هي حنينة.

سألها.

- حاسة إن الألم خفّ شوية؟

obeikan.com

- الحمد للّه.

- طيب تحبي تسهري فين النهاردة؟؟

- زي ما انت عايز يا حبيبي.

وقف جلال أعاد زجاجة الزيت إلى مكانها واستدار إليها.

- إيه رأيك نتجنن ونخلي محمد يفسحنا فسحة شعبي كده على ذوقه وأهو منها يبقى معانا؟؟

- حلو أوي أنا نفسي من زمان أتفسح في مكان غير تقليدي.

اقترب منها وأمسك يديها وخرجا من حجرتهم فوجدا محمد جالسًا أمام التلفاز.

●●●

رضي حشمت أن يأخذ ثلاثة فدادين من أخواله، أشرف الأستاذ منجي على تنفيذ الاتفاق.

كان يومًا عظيمًا أحس فيه حشمت بجذوره تنبت في الأرض بعد أن كانت في الهواء، خطى على أرضه وحوله أولاده كأنه ملك الدنيا فلا شيء يعادل فرح رجل صعيدي بامتلاك أرض.

جلس حشمت وأولاده على رأس الغيط تحت نخلة قديمة، من بعيد لاحت خديجة وصفية التي وضعت فوق رأسها صينية غطتها بقطعة من القماش الأبيض.

obeikan.com

التفوا جميعًا حول حشمت، وضعت صفية الصينية بينهم وقد فاحت رائحة الفطير المشلتت بالسمن البلدي والعسل والجبن القريش.

امتدت أيديهم في سعادة يأكلون ويضحكون، سألت خديجة.

- ناوي على إيه يا أبو محمود؟

- الحمد لله على كده مش هعاود تاني على مصر.

- وهتسيب مكانك في الدار؟

سأل محمود.

- كفاية يا ولدي مش لزمانا الدار ولا اللي ييجي منها.

ده مكان حزين القعدة فيه تقصر العمر.

نظر محمود إلى أمه نظرة فهمتها فناولت حشمت قطعة فطير واقتربت منه.

- إيه رأيك تاخد محمود معاك مصر تسيبه مطرحك في الدار وأهو برضه منخسرش مكانك اللي فنيت فيه عمرك ويروح وييجي علينا وانت هنا وسطينا تاخد بالك من الأرض.

نظر حشمت إلى محمود.

- أنا مش عايز محمود يسيبني وبعدين الدار مش سهلة زي ما انتوا فاكرين هناك الناس غير هنا.

نظر محمود لأبيه في استعطاف.

- ونبي يا بوي سيبني أسافر أنا زهقان من البلد ونفسي أسافر زي كل شباب البلد وهنا يبقى معاك أحمد أخوي والأرض مش هتبقى محتاجانا كلنا.

ابتسم حشمت.

- انت بقى اللي عمال تزن على أمك تكلمني صح؟

التفت حشمت في حنان إلى صفية.

- وانتي يا وردة روحي مش عايزة تسافري مصر؟؟

ابتسمت في خجل واقتربت منه محتضنة ذراعه.

- طول ما انت وسطينا أنا مش عايزه أروح أي مكان بس متكسرش بخاطر محمود.

- عشان خاطر وشك اللي زي البدر ده أنا موافق.

- أيوا كده سيبه يا أبو محمود يشوف الدنيا ومتخافش محمود مش هيعمل زيك هيروح وييجي علينا.

- يا سلام عليكي هتفضلي فكراهالي طول عمرك.

onbeikam.com

تعالت ضحكاتهم وهم يكملون الإفطار.

●●●

أمام محل إكسسوارات مازن في منطقة أبو قتادة كانت الشمس تميل إلى الغروب عندما وقف شاب غريب الهيئة رث الثياب طويل اللحية والشارب، اقترب ذلك الشاب من أحد العاملين في المحل وسأل بتلعثم واضطراب.

- فين مازن؟

نظر له الشاب بازدراء.

- مين حضرتك؟

- أنا صاحبه.

- صاحبه مين؟

- أنا راجي.

أشاح الشاب بوجهه عنه وأكمل فحص الهاتف الذي بيده.

- هو مش موجود.

اقترب راجي من ذلك الشاب وأمسك بملابسه وأخذ يصرخ في تشنج.

- كلكم عايزين تخبوها مني؟؟

www.Opeikan.com

دفعه الشاب محاولاً التخلص منه إلا أنه ازداد تعلقًا به وأخذ يصيح بهستيرية وقد أزبد فمه واحتقنت عيناه.

- مش هسيبك غير لما تقولي هما فين؟؟

تجمع بعض الشباب من الواقفين في الخارج ودفعوه خارج المحل ليسقط على الأرض فتجمع حوله بعض الأطفال وأخذوا يركلونه بأقدامهم ويلقون عليه من حجارة الطريق ويصيحون.

- العبيط أهو العبيط أهو.

ركض راجي مبتعدًا عنهم، ظل يمشي حتى تركه الأطفال الذين كانوا يتبعونه، عاد راجي إلى سيارته وقاد السيارة مترنحًا حتى أنه كاد يصطدم بأكثر من سيارة في طريق عودته، توقف راجي على مشارف الحي السادس من مدينة ٦ أكتوبر بجوار سور إحدى المدارس فقد كانت إحدى قدميه قد أصابها حجر من حجارة الأطفال التي ألقوها عليه فبدأ يشعر بألم شديد لم يستطع معه الاستمرار في القيادة، خرج راجي من سيارته وارتمى على الأرض في بقعة مظلمة من السور.

●●●

اصطفت ترابيزات حديدية عليها مفارش من البلاستيك المنقوش على طول الشارع وسط المارة كأنها مائدة من موائد

oBeikan.com

الرحمن، في جانب الشارع علقت ذبائح أخذ بعض الشباب يقطعون اللحم منها ويناولونه إلى مجموعة أخرى من الشباب يضعون تلك القطع في أسياخ الحديد بعد أن يضيفوا عليها شتى أنواع البهارات والتوابل ويضعونها على الفحم المشتعل من تحتها، تعالت رائحة الشواء فجذبت الكثير من الزبائن الذين جلسوا على تلك الترابيزات يتناولون ما لذ وطاب من الريش البتلو وقطع الكباب المشوي.

في جانب آخر وقف شاب يمسك في يده حلة كبيرة فاحت منها رائحة الملوخية يصب منها بكبشة أمسكها في يده الأخرى يقترب ممن يرغب في تلك الأكلة المصرية الشهيرة وفي طريقة استعراضية يرفع الكبشة فينساب منها ذلك السائل الأخضر في الأطباق وهو يصيح بصوت جهوري.

- صلّي على النبي.

ثم يحضر شخص آخر التقلية أو الطشة كما يطلقون عليها فيوزعها على الأطباق فتتصاعد الرائحة الذكية في المكان تداعب الأنوف فيسيل لعاب الزبائن ويطلبون المزيد.

اقترب جلال وزهيرة يتقدمهم محمد عاشور إلى أحد العاملين وهمس في أذنه فصاح ذلك الشاب.

- أحلى ترابيزة للأستاذ ميدو وصحبته.

اقترب جلال من محمد.

- إنت اسمك ميدو؟؟

- ده اسم الشهرة هنا في المنطقة.

هنا كل واحد ليه اسم شهرة محدش من الشباب بنَّاديه بإسمه هي المناطق الشعبية كده.

أخذت زهيرة تتأمل المكان في إعجاب وهي تشاهد عرض الملوخية الشهير، همست في أذن جلال.

- المكان حلو أوي.

اقترب ميدو منها شارحًا.

- ده أشهر مطعم كباب ومشويات وأكل شرقي في روض الفرج.

تابع وهو يدور برأسه في المكان.

- عايز أقول لحضرتك إن هنا هتلاقي مشاهير كتير ممثلين ولعيبة كورة بييجوا هنا ياكلوا ويقضوا وقت ظريف.

اقترب منهم ذلك الشاب وقادهم إلى إحدى الترابيزات بعد أن جهزها لهم.

أخذ الجميع جلستهم إلى تلك الترابيزة وطلب لهم ميدو كل ما اشتهت أنفسهم خاصة الملوخية.

كانت نسمات الهواء الباردة تداعبهم محدثة تناغم مع رائحة الأكل ودفئه، بدت السعادة غامرة على وجه زهيرة التي كانت تنظر إلى جلال فيبادلها نظرة الرضا التي طالما عرفتها في وجهه.

●●●

توقف تاكسي أمام الدار تعلو شبكته الحديدية بعض الكراتين المنتفخة وقد ربطت بإحكام بواسطة أحبال الغسيل بجانبها بعض الأقفاص تقفز من داخلها مختلف أنواع الطيور من بط وحمام ودجاج بلدي.

هبط حشمت ومحمود من التاكسي وأنزلا الكراتين وأقفاص الطيور، تقدم حشمت ناحية البوابة وطرق الباب فخرج له سيد.

سلّم حشمت عليه وعرفه بمحمود ولده، كان سيد مطرقًا مهمومًا يبدو عليه الانكسار فسأله حشمت.

- مالك يا حاج سيد حزين كده ليه ده إنت لسه مكملتش أسبوع؟؟

بصوت حزين.

- كل اللي يجيبه ربنا كويس.

أثارت كلمة سيد فضول حشمت، كان جلال قد أخبره في

obeikan.com

مكالمة قصيرة أنه خرج من الدار لكنه كان يريد أن يعرف ماذا فعلت سعاد بعد أن غادر جلال وماذا فعلت مع سيد؟

حمل حشمت ومحمود الأقفاص والكراتين وتوجها ناحية المبنى الكبير.

دخل حشمت مكتب سعاد التي استقبلته بابتسامة فاترة وهي تنظر إلى ما يحمل في يده، ابتدرها حشمت.

صباح الخير يا ست الكل.

- حمداً لله على السلامة.

- الله يسلم حضرتك.

أشار إلى محمود.

- ولدي الكبير يا ست الكل.

اقترب محمود في ابتسامة وسلم على سعاد.

- أنا بسمع عن حضرتك كلام كتير حلو بس حضرتك أحلى كتير من الكلام.

نظرت إلى حشمت.

- شايف الكلام الحلو عمرك إنت قلت كلمة حلوة زي دي؟؟

obeikan.com

ابتسم ابتسامة واسعة فنبرة سعاد معه لا تحمله أي مسئولية تجاه هروب جلال، قال في إعجاب بولده.

- ده جيل متعلم مش زي حالاتنا.

نظرت إلى محمود في ود.

- واخد شهادة إيه يا محمود؟

- معهد كمبيوتر يا ست الكل.

- كويس عايزاك تعملي شوية حاجات على الكمبيوتر؟

- خدامك.

اقترب حشمت من سعاد وانحنى أمامها على المكتب.

- أنا جبت لحضرتك كل اللي طلبتيه وكمان جبت لحضرتك شوية عسل نحل طبيعي يستاهلوا خشمك.

ابتسمت ولمعت عيناها وهي تنظر إلى الكراتين القابعة بجوار مكتبها، استطرد حشمت.

- بس أنا عشمان في حضرتك في حاجة؟

ولدي محمود زي ما انتي شايفة شاب زي الفل ومؤدب وواخد شهادة.

نفسي ياخد مكاني في الدار ويبقى تحت إيدك.

obeikan.com

أنـا كبـرت ونفسـي أقعـد في البلـد كفايـة بُعـد وغربـة علـى الفاضـي.

نظرت إليه وإلى محمود.

– بس الموضوع مش سهل؟؟!!

– البركـة فيكـى يـا سـت الـكل إحنـا ملنـاش غيـرك وليـكِ عليـا أبعتلـك كل شـهر زيـارة حلـوة متخليكيـش تحتاجـي حاجـة مـن بـرة.

نظـرت إلـى الكراتـين وإلـى الحمـام والبـط في الأقفـاص وقالـت في ثقـة.

– خـلاص سـيب الموضـوع ده عليـا بـس دلوقتـي روح خـد المفاتيـح مـن الحيـوان اللـي علـى البوابـة.

في فضول مصطنع.

– ليه ماله عم سيد حصل حاجة؟

– جلال هرب من الدار.

رسم على وجهه ملامح الدهشة.

– كيف ده؟

– أكيد ساب البوابة مفتوحة.

ابتسم حشمت وحك جبهته بسبابته متذكرًا مواقف جلال.

- أتاريه كان دايمًا بيحوم حواليا عشان أغفل كده ولا كده.

في حنق بدا على وجهها.

- إنت طلعت واعي لكن الحيوان ده كان نايم زي البهيم.

نظرت إلى محمود.

- أديك سمعت يا محمود اللي يبقى معانا لازم يبقى مصحصح ويسمع الكلام.

اقترب حشمت من محمود.

- متخافيش أنا مرسيه على كل حاجة.

- خلاص خد محمود واطلع على البوابة خد المفاتيح من سيد وابعتهولي وأنا هكلم مدكور بيه عشان محمود.

انحنى حشمت ومحمود.

- كتر خيرك يا ست الكل.

قال حشمت في تملق.

خارج المبنى الكبير لمح حشمت زينب جالسة في زاوية البرجولة على غير عادتها، اقترب منها فوقفت، نظر إليها شذرًا وفي جمود.

- ازيك يا زينب.

- ازيك يا عم حشمت.

- مالك قاعدة لوحدك كده؟

- مفيش حاجة.

بتفاخر.

- تعالي سلمي على ولدي.

نظرت إلى الأرض ومدت يدها في حياء فسلم عليها محمود في ابتسامة.

وضع حشمت يده على كتف محمود واتجها ناحية البوابة.

- البت الكحلة دي بقى يا ولدي تخلي بالك منها.

كل حاجة بتحصل في الدار بتروح تنقلها لسعاد بت جوينة ومش سهلة.

بدا على محمود عدم الاقتناع بكلام والده.

- مع إن باين عليها بت غلبانة ومنكسرة.

توقف حشمت فجأة ونظر إلى محمود في جدية.

- متاخدش بالمظاهر يا ولدي وخدها مني حكمة.

من يبغضك لم يحبك

ولو طعمته الحلاوة السن للسن ضاحك

والقلب كله عداوه

أكمل حشمت ومحمود طريقهم إلى بوابة الدار.

●●●

كان جلال يغتنم أي فرصة تكون فيها زهيرة في حالة صحية جيدة ويصطحبها إلى مكان قضوا فيه ذكرى جميلة أو مكان كانوا يتمنون أن يزوروه وكان محمد عاشور لا يتوانى عن خدمتهم وبرهم، نجح في صرف المعاش إلى جلال بعد أن تحدث جلال إلى مدير الحسابات وكتب تفويض باستلام المعاش لمحمد عاشور.

كان اليوم يوم الجمعة، استيقظ جلال نشيطًا رغم أنه نام بعد أن صلى الفجر، أيقظ زهيرة بطريقته المعتادة مداعبًا وجهها بأنامله حتى فتحت عينيها.

- تحبي تيجي تصلي الجمعة معايا في المسجد؟

بصوت ضعيف لم يستيقظ بعد.

- روح انت أنا مش قادرة هصلي هنا.

مسح على جبهتها وشعرها بأنامله.

obeikan.com

- طيب كملي نوم ولما أرجع هصحيكي.

أومأت بأجفانها إيجابًا ونهض جلال وخرج إلى الصالة فوجد محمد يخرج من الحمام يقطر منه ماء الوضوء.

- صباح الخير يا محمد.

- صباح الخير يا عمي إيه هتصلي الجمعة معايا؟

شمر جلال عن ساعديه واتجه إلى الحمام.

- إن شاء الله يا ابني أنا بقالي كتير مصليتش الجمعة.

كان صوت القرآن يملأ الشوارع من الميكروفونات التي علقت على مآذن المساجد وينبعث من البيوت وسيارات الميكروباص.

في داخل مسجد منبر الإسلام في حي روض الفرج جلس جلال وبجواره محمد عاشور، شعر جلال بلذة ملأت قلبه من مشهد المصلين الذين يتوافدون إلى المسجد.

كان المسجد يعج بالمصلين من مختلف الأعمار، أطفال وشباب وشيوخ.

كان جلال يراقب الوجوه، تعلّم ذلك في الدار، كانت وجوه كبار السن ممن في عمره تشبه وجوه من في الدار إلا أنها لا تحمل ذلك اليأس والضعف والانكسار، أما الشباب فكان سوادهم

obeikan.com

يدخل المسجد في غير إكبار كأنهم أتوا لتأدية واجب يريحون به ضميرهم، شعر جلال أن شيئًا مختلفاً بدا في ذلك المسجد أو ربما هو الذي اختلف.

صعد المنبر شاب صغير لم يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره يرتدي الزي الأزهري، في أسلوب رصين حمد الله وأثنى عليه ثم بدأ الخطبة فمال واعتدل وفخم الراء والقاف وعلا صوته فصار أشبه بالصياح، كان صغر سنه لا يوحي بهذا الأسلوب الرصين الذي تحدث به، تذكر جلال في تلك اللحظة ذلك الشيخ الذي صلى وراءه منذ ثلاثين عامًا عندما رأى ذلك الصبي الصغير بصحبة والده، كانا متشابهين في الأسلوب مختلفين في العمر، لكن ما بدا من ثلاثين عامًا مؤثرًا لم يعد ملائمًا الآن، رأى ذلك في وجوه الشباب من حوله، كانوا منصرفين عن الخطيب، غارقون في أفكارهم بل إن منهم من انشغل بهاتفه يقلب فيه، أدرك جلال الفجوة بين الخطيب والمصلين رغم أن الخطيب من جيلهم إلا أنه انتهج الرصانة والصوت الجهوري، أسلوب قديم لم يتطور أما المحتوى فنموذج مكرر من خطبة سمعها مرارًا وتكرارًا طوال عمره، أتم الشيخ الصلاة فهرول الشباب يتزاحمون على الخروج كما لو كانوا محتجزين.

كانت التجربة التي مر بها جلال في الدار قاسية لدرجة أنها جعلته يرى الأشياء بشكل مختلف، أصبح يحلل ويتعمق لا يأخذ الأشياء بظاهرها، في خارج المسجد وقف محمد ينتظر خروج جلال، لحظات وخرج وسلم على محمد الذي ابتدره.

- تقبل الله يا عمي.

ابتسم جلال في وجهه.

- تقبل الله منا ومنكم.

إيه رأيك في الخطبة؟

صمت محمد للحظات يبحث في رأسه عن أي شيء علق في ذهنه مما سمع من الخطيب.

- عادية مفيش جديد.

- يعني استفدت حاجة؟

- والله يا عمي أنا مش باجي خطبة الجمعة بهدف الاستفادة أنا كله عشان الصلاة.

توقف جلال وأشار بيده إلى محمد.

- اسبقني انت يا محمد أنا هتمشى شوية.

obeikan.com

بدهشة وقلق.

- على فين يا عمي؟؟

- هتمشى بس مش رايح مكان.

اقترب محمد منه وأشار بيده أمامه.

- خلاص أنا جاي معاك.

- لأ اسبق إنت على البيت أنا حابب أتمشى لوحدي.

- يا عمي.

قاطعه جلال.

- متخافش أنا مش هروح بعيد هتمشى في الشوارع هنا.

استسلم محمد أمام إصرار جلال وتركه وانصرف.

كان الجو غائمًا لا تظهر الشمس إلا في بقع متباعدة، مشى جلال في هذا الشارع أمام المسجد يتأمل في الوجوه، كان الشارع مزدحمًا، تعالت أصوات الباعة الواقفين خارج المسجد ينتظرون المصلين ليعرضوا عليهم سلعهم، في الحقيقة أنهم لم يتوقفوا عن البيع والشراء حتى أثناء الصلاة، كان ذلك مظهرًا من مظاهر انشغال الناس بالحياة وإيقاعها السريع، واصل جلال سيره، كانت الوجوه عابثة مهمومة يهرولون كأنهم في سباق، غابت الإبتسامة

obeikan.com

وغاب التواصل بينهم، أصبح الناس لا يعرفون عن بعضهم سوى أنهم أحياء، حتى تلك المعلومة كانوا ينسونها لا يذكرهم بها إلا خبر موت أحدهم.

توقف جلال فجأة وشخص بصره، رأى لافتة من بعيد كُتِبَ عليها دار الأمل لرعاية المسنين، أحس بخوف تسلل فجأة إلى قلبه كما لو كان فارًّا من السجن وتوقف أمام قسم للشرطة لديهم صورة له هو وزهيرة نشروها على الجدران حتى يستدل الناس عليهم ويقبضوهم قبضًا، قرأ اللافتة مرة أخرى وتمتم في تأثر.

- نفس الأسماء الجوفاء التي فقدت معناها ومدلولها.

اقترب من مبنى الدار في بطء، كانت دارًا صغيرة أنيقة عبارة عن طابق أرضي بحديقة صغيرة في بناية مرتفعة، اقترب من مدخل الدار المنفصل عن مدخل البناية نظر من خلف باب حديدي يغلق المدخل، كان هناك سيدتان مسنتان تجلسان على أريكة من البامبو صامتتان تعلو وجوههم نفس الملامح ونفس الانكسار، عيونهم يائسة وجوههم ذابلة لم تغير أناقة الدار من الأمر شيئًا، يظل السجين سجينًا وإن نام على الحرير.

كان جلال ينظر إلى الناس وهم يمرون أمام الدار في الخارج غير مبالين بهم ولا بما يشعرون به، ينظرون نظرة مجردة، اسم

بـرّاق هـادئ وحديقـة جميلـة مـا أسـعدهم، اطرحـوا كل مسّـن هنـا يخلـو لكم وجـه الحيـاة وتكونـوا مـن بعـده قومًـا بارّيـن.

عـاد جـلال ينظـر إليهـم كان يشـعر بـكل مـا يـدور داخلهـم، تُـرى كـم قصـة خلـف هـذه الوجـوه، أيـن سـعاد وأيـن ثريـا وأم نبيـل وعـم زكريـا، لابـد أنهـم في الداخـل.

أطبـق جـلال بيـده علـى قضبـان البـاب الحديـدي يريـد أن ينزعـه ويحـررهـم.

تمتم في حزن.

- أعمل إيه عشان الناس تحس بيهم؟!!!!

●●●

أصبـح مقهـى الأفنديـة حديـث الطلبـة والشـباب علـى مواقـع التواصـل الاجتماعـي وأصبـح المكان لا يسـع الأعـداد يومـي الاثنـين والخميـس فقـام ياسـين وعـادل باسـتئجار الشـقة المجـاورة للمقهـى مـن خلـف العمـارة.

بـدأت سـبيل في اسـتقبال روح الحـب التـي انتشـرت في جسـدها فـرأت كل شـيء حولهـا جميـلاً شـفافًا بلـون وردي.

ترك ياسين عمله في مطعم كويت كورنر حتى يتفرغ لمشروعه الذي بدأ يكبر أمامه يومًا بعد يوم.

●●●

غادر حشمت الدار تاركًا محمود الذي حلّ مكانه وأصبح يعلم كل كبيرة وصغيرة في الدار وأصبحت سعاد لا تستغنى عنه في أي شيء.

قبل أن يركب حشمت القطار زار جلال، جلسا معًا على المقهى بجوار منزل محمد عاشور بروض الفرج.

حكى له جلال بالتفصيل كيف خرج من الدار وحكى حشمت ماذا فعل في بلدته مع أخواله وعن محمود وعن الدار.

وقف حشمت بعد أن أنهى كوب الشاي معتزمًا الرحيل.

- هقوم أنا عشان ألحق القطر.

وقف جلال ومشى معه خطوات خارج المقهى وهمس في هدوء.

- خلي بالك من ولادك ومراتك.

عوضهم عن غيابك عنهم كل السنين اللي فاتت.

- والله يا بيه أنا بقيت لما بطل في وش بتي صفية وهي بتحوم حواليا بحس إني ضيعت عمري وحرمت نفسي منيهم.

opelkan.com

- ومراتك يا حشمت.

- دي بقى يا بيه عايزة عمر فوق العمر عشان أعيشه معاها تاني.

- إلحق اللي باقي من عمرك ومتضيعهوش.

العمر مابيستناش حد.

- عارفه يا بيه بيفرط من يد الواحد كيف حبايات السبحة لما خيطها يتقطع.

- علم ولادك يعني إيه بر الوالدين وعلمهم يحبوا الناس وميبقوش أنانيين وميغركش إنك عشان بتحبهم فلما تكبر هيحبوك لازم يبقى مع الحب تربية.

ابني قتلنا مع إننا طول عمرنا بنحبه.

حبينا بس ماربيناش.

ربت حشمت على كتف جلال.

- الحمد لله إن ربنا نجاك وجعلك عمر تعيشه وانت لساك حر.

عانقه جلال بحرارة.

- ابقى طمني عليك وعلى ولادك ولما تيجي تاني لازم أشوفك.

obeikan.com

- إن شاء اللّه يا بيه.

غادر حشمت إلى المحطة تاركًا جلال واقفًا يجتر بعض الذكريات.

●●●

في أحد المطاعم الشهيرة بحي الزمالك كانت الموسيقى الهادئة تنساب من ذلك الباند الشهير الذي كان علامة مميزة لذلك المطعم، كان المكان ممتلئًا عن أخره بالشباب من الجنسين، منهم من جلسوا على هيئة مجموعات من الأصدقاء والأحباب ومنهم من فضّل أن يجلس إلى حبيبته، كانوا جميعًا قد تعودوا على الحضور يستمتعون بالأطباق الشهيرة التي يقدمها المطعم بمصاحبة موسيقى الباند الرائعة.

امتزجت الموسيقى بهمهمات الجالسين وتمايلهم وأحاديثهم وضحكاتهم، خلق ذلك ضجيجًا خافتًا تألفه الأذن.

فجأة خيم على المكان الصمت، سكتت الأصوات فلا تسمع إلا همسًا، لاحظ العازفون هذا الصمت فتوقفوا عن العزف، التفتت العيون إلى باب المطعم فزاد الهمس، فمنهم من هو مستنكرًا أو مندهشًا ومنهم من أبدى إعجابه بابتسامة خفيفة رسمها على وجهه.

obeikan.com

كانت زهيرة تقف عند مدخل المطعم متأبطة ذراع جلال ممسكة بباقة جميلة من الورود، ترتدي فستانًا رقيقًا نُقِشَ بورود كتلك التي تمسكها، تضع فراءً غطى كتفيها، تقدم جلال بخطوات هادئة ناحية إحدى الترابيزات الخالية في أخر القاعة، كان جلال يرتدي بدلة سوداء وقميصًا أزرقاً بسيطًا بدون رابطة عنق، دثّر نفسه ببالطو رمادي من الصوف، كان يبدو عليه الارتباك قليلاً، التصقت زهيرة به في خجل، تبعتهم العيون في فضول، كانوا كمن جاءوا من زمن بعيد أو أخطئوا المكان.

اقترب أحد العاملين بالمطعم منهم فاستل جلال الفراء من على كتف زهيرة وخلع البالطو فأخذهما الرجل باحترام وابتعد عنهما.

بانحناءة خفيفة وابتسامة صافية سحب جلال أحد المقاعد وأجلس زهيرة في رفق.

تحرك العازفون وبدأت الموسيقى تنساب كما كانت، تهامس الجميع وهم ينظرون ناحية جلال وزهيرة لحظات وانهمكوا في الموسيقى مرة أخرى.

نظرت زهيرة إلى جلال وإلى باقة الورد في يدها وقالت في خجل.

- كنت مكسوفة أوي وأنا داخلة.

دار جلال بعينيه متفقدًا وجوه الجالسين.

- همـا مسـتغربين إن اتنـين عواجيـز زينـا لسـه بينهـم مشـاعر الحـب اللـي بينـا.

أمسك يدها ومال عليها فقبلها ثم تابع في حرارة.

- دول مساكين لو يعرفوا اللي في قلبي ناحيتك كانوا حسدونا.

ضحكت في خجل.

- أنـا حاسـة إن احنـا رجعنـا أيـام الخطوبـة بالعكس كمـان أنـا حاسـة إنـي بحبـك أكتـر مـن الأول مليـون مـرة.

بـدا التأثـر علـى جـلال ولمعـت عينـاه وانتفـض واقفًـا فصاحـت بـه زهيـرة.

- جلال رايح فين؟؟

التفت إليها في حماس.

- نفسي كل الدنيا تعرف قد إيه أنا بحبك.

اتجه جلال ناحيـة الفرقـة الموسيقية واقتـرب مـن عـازف الكمان وهمس في أذنه.

- ممكن تعزف موسيقى الفصول الأربعة بتاعة فيفالدي؟؟

هز العازف رأسه.

obeikan.com

- للأسف أنا معرفهاش.

كسا الحزن وجه جلال فتابع العازف.

- ممكن أعزفلك حاجة تانية؟؟

- أنا كنت عايز الموسيقى دي عشان ليها ذكرى عندي.

اقترب أحد العازفين كان يسمعهم.

- أنا عارف الكونشرتو ده بس انت عايز أي فصل من الفصول؟؟

عادت الإبتسامة إلى وجه جلال وهمس.

- الربيع.

أشار له العازف بالجلوس.

- اتفضل حضرتك دقايق وهتكون جاهزة.

عاد جلال إلى مكانه تعلو وجهه ابتسامة واسعة وجلس إلى زهيرة.

في فضول سألت زهيرة.

- انت كنت بتعمل إيه؟

اقترب منها بعيون لامعة.

obeikan.com

- دقايق وهتعرفي.

دقائق وانبعثت موسيقى فيفالدي الربيع من سماعات المكان فقد قام العازف بتحميلها من على النت على هاتفه وأوصله بالسماعات.

انتبهت زهيرة إلى الموسيقى فطالما رقصا عليها في بيتهم، اتسعت عيناها ولمعت بدموع ترقرقت في حدقتيها وارتسمت ابتسامة على وجهها فأضاء.

أمسك جلال بيدها وأنهضها فاستسلمت له في تأثر.

خيّم السكون على المكان مرة أخرى عندما لاحظ الحاضرون جلال وزهيرة يتجهون ناحية الفرقة.

استقبلهم العازف فمال جلال على أذنه وهمس.

- ممكن نرقص على الموسيقى؟

ابتسم العازف وطلب من زملائه إفساح مكان لهم.

تابع جلال كلامه.

- أنا هستأذن من الناس عشان ما أسببلكش حرج.

ناوله العازف الميكروفون، أمسك جلال الميكروفون وأمسك يد زهيرة بيده الأخرى وقال بصوت متهدج.

obeikan.com

- أنـا بسـتأذنكم أسـمعكم موسـيقى جميلـة اسـمها الفصـول الأربعـة لموسـيقار عظيـم اسـمه أنطونيـو فيفالـدي.

تابع في توتر وأشار بعينيه ناحية زهيرة.

- أنا بهدي الموسيقى دي لأحب إنسانة لقلبي.

بهديها لأجمل إنسانة بتشوفها عينيا.

ضمّ جلال زهيرة إلى كتفه ودمعت عيناه وقال بصوت تغيرت نبراته.

- بهديها لرفيقة عمري.

أنا بشكركم إنكم هتدوني الفرصة دي.

التفت جلال ناحية العازفين وانحنى شاكرًا لهم، أشار العازف إلى زميله فبدأت الموسيقى تنساب في نقاء.

موسيقى الفصول الأربعة لفيفالدي مكونة من أربع مقطوعات موسيقية واحدة لكل فصل، كان يحاكي في كل مقطوعة معالم فصل من فصول السنة، الصيف والشتاء والخريف والربيع، تجلت عبقرية هذا الفنان إنك حين تسمع موسيقى أي فصل تشعر أنك تعيش فيه، كانا جلال وزهيرة يعيشان ربيع العمر بعد أن عاشا كل الفصول.

obeikan.com

أمسك جلال بيد زهيرة وبدأوا يتمايلون في خطوات هادئة، تعلقّت عيونهم الدامعة ببعضها، كانت كل العيون مشدوهة ناحيتهم في إعجاب.

كان مشهدًا أسطوريًا من مشاهد الزمن الجميل.

في حياتنا نعيش جميعًا كل الفصول، فقد تعيش الصيف بحرارته اللافحة وقد تعيش الشتاء ببرودته، وقد تذبل أوراقك كالشجر في الخريف ثم تزهر مرة أخرى في الربيع.

اجعل الربيع في قلبك مهما قست عليك الفصول.

●●●

أضاءت الشمس فجأة بدون مقدمات أحرقت عينيه المتقرحتين، كان ضوءها يقضم أهدابه يرى خيالات تقطع الضوء لا يميز الزمان ولا المكان يشعر بمطرقة تدق على رأسه أصوات تقترب ثم تبتعد، رائحة كريهة تنبعث قريبة منه وربما منه هو، استطاع أن يفتح عينيه لا يذكر شيئًا سوى ذلك الخيال الذي برز له في الظلام وتلك الضربة التي تلقاها على رأسه فغاب عن الوعي.

تحسس راجي جيوبه لم يعثر على شيء، كذلك اختفت ساعة يده، رفع رأسه من على الأرض التي افترشها طوال الليل، كان

obeikan.com

الناس ينظرون إليه نظرات متفحصة تقطع في لحم وجهه كسكين بارد، تنتابه الرعشة وتسيل دموع من عينه اليسرى أصبحت صفراء تنزل على خده الملطخ بالتراب فترسم خطًا مقززًا على وجهه.

نظر باحثًا عن سيارته فلم يجدها مكانها، استند بظهره إلى السور الذي كان يرقد تحته، واجهته الشمس التي بدأت ترتفع في السماء فاتقاها بيده، وقف أمامه مجموعة من التلاميذ الصغار في طريقهم إلى المدرسة فحجبوا عنه الضوء تساءل أحدهم.

- إيه الراجل ده؟!!!!

قال آخر.

- ده شكله عبيط.

اقترب أجرأهم منه فصاح بقيتهم مبتعدين.

- إوعى يا شادي ممكن ينط في وشك.

كان ينظر إليهم في ذهول واستسلام من خسر كل شيء حتى لم يعد يكترث بلعب الصبية به في الشارع.

نظر إليهم شادي في شعور بالبطولة.

- أنا ممكن أضربهولكم وأجري وميقدرش يعملي حاجة.

obeikan.com

صاح التلاميذ في تصفيق والتفوا حوله، اقترب منهم رجل ممن ينظفون الشارع في زيه البرتقالي وأشار لهم بيده لكي يبتعدوا.

- بس يا حبيبي انت وهو امشوا يلا على مدرستكم.

انطلق التلاميذ يضحكون ويتغامزون.

كان إحساس الضعف والهوان واليأس يقتله ليس له ركن يأوي إليه، تداعت عليه الذكريات حينما كان صغيرًا يهرب إلى أمه مهما فعل فيجد عندها الأمان والغفران.. تمتم.

- انتي فين يا ماما؟؟

حاول الوقوف وأخذ يشير إلى ذلك الرجل الذي أبعد عنه الأطفال فاقترب منه في حذر.

- عايز حاجة؟

في تلعثم وبكاء انتابه فجأة.

- عايز أروح دار صفا بتاعة المسنين.

- فين الدار دي يا ابني؟؟

بصعوبة بالغة وصوت متقطع ونظرات زائغة استطاع أن يخبر الرجل أين يريد الذهاب.

obeikan.com

توقفت إحدى سيارات جمع القمامة الضخمة أمام أحد الصناديق الحديدية الكبيرة، نزل العمال من السيارة وشرعوا في إفراغه.

اقترب منهم الرجل وأشار لهم على راجي.

- ونبي يا أسطى مرعي نزله عند الدار اللي جنب المفوضية غلبان ينوبك فيه ثواب.

بعد أن انتهوا من إفراغ الصندوق اقترب منه أحدهم وأمسك بيده وبصعوبة أجلسه على جزء معدني بارز في مؤخرة السيارة، أحس بألم شديد في مؤخرة رأسه من أثر الضربة التي تلقاها.

كان يشعر بالألم في كل جزء في جسده.

انطلقت السيارة تجمع القمامة من كل صندوق تمر به، تقترب السيارة فينزلونه ذليلاً منكسرًا ويضعونه على الأرض ثم يحملونه على ذلك الجزء الحديدي مرة أخرى وتنطلق السيارة حتى وصلت أمام الدار، أنزلوه وانطلقت السيارة مكملة طريقها.

●●●

جلست زهيرة على سريرها نافضة بقايا الكرى من على عينيها، كان جلال يجلس بجوارها على ترابيزة حديدية قديمة وكرسي خيزران أحضرهما له محمد بناءً على طلبه.

كان منهمكًا يكتب على أوراق صفراء كانت موجودة في متعلقات عاشور.

همست زهيرة بصوت ضعيف.

- جلال.

انتبه جلال إلى صوتها فنهض واقفًا من أمام أوراقه وجلس بجوارها على السرير.

- صباح الفل.

بصوت ازداد ضعفًا.

- عايزة أطلب منك طلب؟

- إيه يا حبيبتي؟

- عايزة أروح بيتنا؟

بدهشة.

- بيتنا؟ إيه اللي فكرك بيه دلوقتي؟

- معلش أخر طلب هطلبه منك.

اقترب منها جلال في إشفاق وقد امتقع لونها وزاغت عيناها.

- حاضر يا حبيبتي بس الموضوع هيبقى فيه مخاطرة؟!!

obeikan.com

راجي لو عرف هتبقى مشكلة وممكن نرجع الدار ده غير إن راجي ممكن يكون غير كالون الشقة.

- إنت معاك المفاتيح القديمة؟؟

- معايا.

- طيب عشان خاطري مش هطلب منك حاجة تاني عايزة أشوف أوضتي وسريري.

أحس جلال بالقلق وأخذ يتفحص وجهها براحة يده وسألها برفق.

- مالك يا زهيرة؟؟

- مفيش يا حبيبي والله حاسة إنهم وحشوني نفسي أروح هناك.

- انتي شكلك تعبان خليها لما تبقي كويسة.

ابتلعت ريقها بصعوبة.

- أنا لو روحت هناك هبقى كويسة.

بتردد.

- ولو أنها مخاطرة بس حاضر.

obeikan.com

ارتـدى ملابسـه ولملـم الأوراق التـي كان يكتبهـا وألبـس زهيـرة ملابسـها وقبـل أن يخـرج مـن الشـقة أخـرج هاتفـه وطلـب محمـد عاشـور.

- ألوو.

- صباح الخير يا عمي.

- صبـاح النـور بـص يـا ابنـي أنـا هـروح أنـا وعمتـك زهيـرة شـقتي القديمـة عارفهـا طبعًـا!

- أه يا عمي عارفها أنا جيتلك فيها زمان مع والدي.

عمتك نفسها تروح.

- بلاش يا عمي عشان ابنك هيعرف.

- إحنا مش هنتأخر يا دوب ساعة وكمان فيه حاجات عايز أجيبها.

- براحتك يا عمي.

- متقلقش ولو حصل حاجة هبقى معاك على التليفون.

من أمام المنزل أوقف جلال تاكسيًا استقلاه وانطلق بهما.

●●●

obeikan.com

سمع محمود طرقًا عنيفًا على باب الدار فانتفض خارجًا من الكوخ، وجد ذلك الشخص الذي ألقته سيارة القمامة.

اقترب منه محمود ودون أن يفتح الباب.

- مين حضرتك؟؟؟

بتلعثم.

- أنا راجي.

- عايز مين؟

سعاد افتح عايز سعاد.

تردد محمود في إخبار سعاد لكن صراخ راجي حسم الأمر.

- خليك هنا أنا هديها خبر.

أعطاه محمود ظهره وطلب سعاد على هاتفها المحمول وقال وهو يرمق راجي.

- فيه واحد شكله غريب بيقول عايزك.

- مقالش هو مين؟!

- بيقول اسمه راجي.

قطّبت جبينها وقالت في توتر.

obeikan.com

- خليه يدخل.

في صوت خافت.

- الأحسن إنك تيجي لأن شكله مينفعش ندخله الدار.

- طيب أنا جاية.

نظر محمود إلى راجي مستنكرًا هيئته محاولاً أن يستشف العلاقة بينه وبين سعاد ومن أين يعرف اسمها، كان راجي يمسك بقضبان البوابة الحديدية مستندًا عليها لا يقوى على الوقوف.

اقتربت سعاد تسبقها نظرات قلقة متفحصة ذلك الواقف كالمصلوب على البوابة لم تتعرف عليه، بتعالٍ وصلف.

- إنت مين وعايز إيه؟؟

- انتي مش عارفاني أنا راجي.

- راجي مين؟

- راجي ابن الأستاذ جلال.

جحظت عيناها وتعالت أنفاسها واقتربت منه أكثر، غمغمت بصوت غير مسموع.

- هو إيه اللي عمل فيه كده ده!

obeikan.com

مصيبة هقوله إيه على أبوه؟؟!!

في ارتباك.

- أنا مش عارفة إنت مين وجلال مين اللي بتتكلم عليه؟!!!

انتابت راجي نوبة هيجان وصرخ في سعاد.

- أنا عايز أدخل محدش يقدر يمنعني افتحوا الباب افتحوا الباب.

ابتعدت سعاد مرتعدة عن البوابة وصاح به محمود.

- امشي من هنا وإلا هطلبلك النجدة؟

اقتربت سعاد من محمود وهمست في أذنه.

- بلاش النجدة.

- يعني نسيبه يقعد يزعق ويصرخ كده؟؟

- ابعده عن البوابة وإوعى تدخله سيبه كده شكله مجنون هيزهق وهيمشي.

أومأ محمود إيجابًا ودخلت سعاد مهرولة إلى الداخل، ظل راجي يرج الباب ويصرخ حتى أصابه الإعياء فارتمى على الأرض أمام الدار.

●●●

obeikan.com

أولج جلال المفتاح برفق فدست زهيرة وجهها في كتف جلال من الخوف، أدار المفتاح ببطء فانفتح الباب.

تنهدت زهيرة وأخرجت وجهها وتمتمت.

- الحمد لله مغيرش الكالون.

دخل جلال في حرص إلى شقتهم، سمع صوت تحطم زجاج تحت قدميه، أضاء الصالة ودخلت زهيرة.

لاحظ جلال بقايا الزجاج المحطم المتناثر في جوانب الصالة، التقط صورة زهيرة من على الأرض محطمة هي الأخرى، نظر إلى الحائط لازالت صورته وهو مطرق في تأمل مكانها على الحائط بجانب صور مجموعة الأطفال الصغار المعلقة حول صورة راجي، أمسك بيد زهيرة حتى تجاوزت الزجاج.

لاحظ جلال مقاعد السفرة الملقاة، انحنى فالتقط قطعة من الزجاج لاحظ لونًا داكنًا عليها.

التصقت زهيرة بجلال وسألته في خوف.

- إيه اللون ده؟

- ممكن يكون دم.

obeikan.com

- أنا خايفة لا يكون حرامي دخل على راجي وعمل فيه حاجة؟؟

- لو كان حصله حاجة كنا عرفنا.

بصوت ازداد ضعفًا همست زهيرة.

- دخلني أوضتى يا جلال.

أمسك جلال يدها ومرا من الطرقة التي طالما خطوا فيها، نظرت إليه زهيرة بعيون منكسرة طافت بمخيلتها ذكريات استيقظت من ثبات عميق.

جلست زهيرة على سريرها ومررت يدها عليه كأنها تتحسس وجهًا غاب عنها سنوات طويلة.

كان التراب يغطي الغرفة لكنها لازالت تحتفظ برائحة ذكرياتهم فيها، اقترب منها جلال هامسًا.

- فاكرة أيامنا الحلوة؟؟

أسبلت عينيها كأنما تتذكر.

- ساعدني أنام.

obeikan.com

أمسك يدها حتى تمددت على السرير ونظرت إليه في حنان.

- عايزاك تسامحني على كل حاجة زعلتك فيها؟

- أنا عمري ما زعلت منك.

- عايزاك تسامح راجي؟

دور عليه يمكن لما يعرف إني تعبانة قلبه يحن.

أمسكت يده وقربتها من فمها ولثمتها.

- مش قادرة أستحمل أكتر من كده سامحني.

حاولت بس خلاص.

كان وقع كلماتها غريبًا على أذني جلال لكنه أبى أن يقاطعها.

أدارت عينيها في وجه جلال وقالت في حزن.

- أول مرة هروح مكان من غيرك.

أسبلت عينيها وهدأت أنفاسها وسكن الجسد.

ماتت زهيرة.

صرخ جلال كطفل صغير ارتمى بجوارها تذرف دموعه، ماتت زوجته وأمه ماتت صغيرته التي كان يرعاها، ماتت الدنيا كلها،

obeikan.com

ماتت وتركته وحيدًا، انكمش على الأرض ككائن ضعيف سقط على كوكب غير كوكبه، استحالت الدنيا من حوله ظلامًا حالكًا.

تمدد الظلام كوحش ضخم لا يرى له أول ولا آخر، كان يمسك يدها يقبلها يخشى أن ينظر إلى وجهها فيرى ذلك السكون، يخشى ألا تجيبه إذا ناداها، يخشى لو لمس وجهها بأنامله ألا تفتح عينيها كما عودته.

كانت له رفيقة العمر، الحضن الدافئ من البرد والملاذ الآمن من الخوف، نبع من الحنان يتدفق بلا توقف لآخر لحظة ينبض قلبها بالحنان والخوف على ولدها رغم عقوقه.

ماتت وفي قلبها جرح منه لن يندمل ليته يعلم بما في قلبها.

لكنه حتى وإن علم الآن ضنت عليه الدنيا بفرصة برها حتى وإن أتى زاحفًا على وجهه يطلب صفحها فات الأوان لم تعد هناك كي تصفح.

دس وجهه في جانب السرير.

بكى ثم بكى ثم بكى ثم سكت.

مرت ساعات طويلة لم يدر جلال أين هو، يسمع همهمات لا يميز أصحابها.

openelkan.com

وقف محمد عاشور وأمامه دكتور حاتم جاره يكتب بعض الأدوية، على طرف السرير جلس الأستاذ مظهر ينظر بحزن على صديق عمره ممددًا على السرير.

فتح جلال عينيه بصعوبة فصاح مظهر.

- فاق يا دكتور.

اقترب دكتور حاتم وأمسك بيد جلال يتحسس النبض ونظر إلى محمد.

- خليه تحت ملاحظتك هو لسه تحت تأثير الصدمة.

انبعث صوت أنين من جلال يتمتم بصوت مكتوم.

- زهيرة زهيرة.

نظر محمد إلى دكتور حاتم في قلق.

- دلوقتي لازم ندفن المرحومة ولازم هو يحضر الدفن.

- هو صعب يعمل أي مجهود لازم راحة تامة أما موضوع الدفن فا أنا هكتبلك تقرير بأسباب الوفاة ده هيسهلك تطلع تصريح الدفن.

- هي ماتت من إيه يا دكتور؟

قال مظهر في أسى.

- غالبًا هبوط حاد في الدورة الدموية ناتج عن ضعف عام وغالبًا كان فيه أنيميا حادة وآلام شديدة من مرحلة متأخرة من الروماتويد ده واضح من شكل عضم إيديها وشكل المفاصل.

واضح إنها كانت بتتألم.

نظر عاشور لدكتور حاتم.

- لأ يا دكتور دي كانت طبيعية وبتخرج وبتتحرك.

- هي كانت بتاخد مسكنات كتير؟

- مكنش معاهم أي أدوية في البيت.

- يبقى هي كانت بتتحامل على نفسها زيادة.

بالمناسبة فين ولادهم؟

- هو مالوش غير ولد واحد وأنا بكلمه تليفونه مغلق وكلمت الشركة اللي بيشتغل فيها قالولي منقطع عن شغله مش بيروح.

نظر محمد إلى مظهر.

- هو مكنش بييجي هنا يا عم مظهر؟

- أنا شوفته مرة واحدة بس هنا.

obeikan.com

نظر دكتور حاتم لمحمد.

- معاك بطاقة المرحومة؟

- لأ يا دكتور ومعتقدش إنها هنا؟!!

- على العموم تعالى معايا يا محمد أنا رايح مديرية الشئون الصحية أخليهم يطلعولك التصريح بسرعة.

نظر إلى مظهر.

- خليك جنبه هو واخد مسكن قوي متقلقش عليه.

غادر محمد مع دكتور حاتم تاركين مظهر بجوار جلال.

كانت زهيرة في الدار تعاني آلامًا مبرحة في مفاصلها تعدت مرحلة الاحتمال، كتمت آلامها إشفاقًا على جلال فقد كان لا يملك شيئًا، لم تبح بشيء بينما كانت حالتها تسوء يومًا بعد يوم.

تكتفي بحبة الفاميد التي لم تعد تجدي نفعًا مع حالتها المتأخرة، نفذت منها حبوب المسكن، أصبحت تتنفس بصعوبة، كانت يائسة اجتمعت عليها آلام المرض وذل الحبسة في الدار مع إحساس باللوعة ومرارة العقوق من ولدها.

حين خرجوا من الدار وعاتبها جلال ورأت في عينيه إقبالاً على الحياة ورغبة في تعويض ما فاتهم لم تستطع أن تخبره بما تعاني.

تحاملت أكثر على نفسها، كان الألم يعتصرها في كل مكان زارته مع جلال، مرات كثيرة كانت دموعها تنساب منها من فرط الألم لكنها كانت تبتسم إلى جلال فيظن أنها تبكي من فرط سعادتها معه، كان جلال يريد أن يعوضها ما فاتها أو أنه كان يريد أن يعوض نفسه.

لكن كل شيء يمكن تعويضه إلا العمر لأنه حين يأتي الأجل فليس هناك فرصة أخرى.

أحست بالموت يقترب في موعده فآثرت أن تموت بين يديه على فراشها رغبة منها في اختصار مشهد النهاية.

●●●

توقفت سيارة الشرطة الزرقاء أمام باب الدار وهبط منها ضابط يحمل أمر ضبط وإحضار في قضية سرقة أجهزة إلكترونية، كان يتبعه اثنان من عساكر الأمن المركزي طرقا الباب ففتح لهم محمود في خوف سأله الضابط.

- مدام سعاد مشرفة الدار.

تقدمهم محمود إلى المبنى الكبير في قلق، اقتحموا المكتب على سعاد انتفضت واقفة هرب الدم من وجهها حين رأتهم.

اقترب منها الضابط.

obeikan.com

- انتي سعاد الخولي؟

انعقد لسانها فلم تجب فاقتادها الضابط أمامه، كانت مستسلمة زائغة البصر كأنها كانت تتوقع ذلك المشهد، كانت تنظر في عيون النزلاء الذين تجمعوا حول المكتب، كانت عيونهم شاخصة إليها في اندهاش إلا وجه من بعيد كانت تعلوه ابتسامة غامضة، كانت أم نبيل.

في الخارج كانت زينب ترتعد من الخوف وهي تبكي بحرقة، ربت محمود على كتفها محاولاً طمأنتها.

لم يرَ من في الدار وجه سعاد مرة أخرى.

●●●

وقفت فتاة في كامل زينتها تمسك ميكروفونًا ووقف أمامها بعض الأشخاص يلتفون حول كاميرا وجهت ناحيتها مع كشافات الإضاءة فجعلتها تلمع كنجمة سينما.

أخذت نفسًا عميقًا وأشار لها أحد الأشخاص بيده أن تبدأ.

- النهاردة إحنا قدام أشهر مقهى في شارع فيصل، المقهى اللي أصبح حديث الشباب، المقهى اللي كل عروسين بيحرصوا إنهم ييجوا هنا قدامه يلتقطوا صور وتبدأ الزفة من قدامه.

obeikan.com

بس النهاردة يوم استثنائي، النهاردة المقهى بيحتفل بزفاف الاتنين المؤسسين للمقهى وأصحاب الفكرة، تقدروا تتابعوا من خلفي مشهد وصول السيارات اللي بتزف العرسان.

في خلفية المذيعة.

ملأت الزينة الشارع أمام مقهى الأفندية، تجمع عدد كبير من رواد المقهى وحشد من الصحفيين، توقفت سيارتان تعلوهما باقات الزهور البيضاء.

هبط ياسين وفي يده سبيل من السيارة الأولى وهبطت سندس وعادل من السيارة الأخرى فالتف حولهم الأهل والأصدقاء وجموع الصحفيين.

- حلم تحول لحقيقة وتجربة تستحق التقدير.

أماني عزمي التلفزيون المصري.

●●●

بعد دفن زهيرة لم يعد جلال مع محمد عاشور مرة أخرى إلى روض الفرج، بحث عن راجي في كل مكان فلم يعثر عليه ولم يعلم أحد من زملائه أو جيرانه أين ذهب؟؟!!

ظل جلال في شقته يجلس كل يوم يكتب في أوراقه كأنما

obeikan.com

يسابق الزمن يخشى من غدره، قبل أن ينام يفتح باب الشقة على مصراعيه ويضيء أنوار الشقة أملاً في أن يمر عليه راجي يومًا.

استغرق جلال في الكتابة في ذلك اليوم حتى أوشك الفجر أن يبزغ، لملم كل الأوراق التي كتبها وانحنى في وهن تحت السرير فأخرج حقيبة علاها بعض التراب فتحها وأخرج من داخلها ورقة مطوية، فردها تأمل الرسم الذي خطته يومًا أم نبيل وتذكر وجهها وهي تعطيها له، نهض في تثاقل وغلف بها الأوراق التي كتبها، أمسك قلمًا وكتب بخط مرتعش.

«قتل مع سبق الحب».

وضع الأوراق بجانبه وأخرج من جيبه فلاشة صغيرة ووضعها فوق الأوراق.

أمسك صورة زهيرة قبلها ثم ضمها على صدره بيديه ونام في ثبات عميق.

●●●

بعد سنوات توقف تاكسي أبيض خارج الدار، هبط منه الحاج حشمت ونادى على ولده محمود الذي خرج إليه مهرولاً.

احتضنه محمود في شوق.

- طولت الغيبة عليا يا بوي؟

obeikan.com

اتكأ حشمت على يد محمود وقال في ضعف.

- أمك بقت بتخاف أطلع برة البيت لأحسن ما عاودش.

أشار بعكاز يمسكه في يده ناحية التاكسي.

- نزل يا ولدي الحاجات اللي على العربية دي؟

أنزل محمود ما أحضره أبوه من على التاكسي وأدخله داخل الدار، نظر حشمت في شرود إلى مباني الدار المنتصبة في حزن، أحسّ أنها تضخمت وازدادت قسوة أو ربما هو من انحنى ظهره ووهنت قوته فرآها كذلك.

التفت بجانب الكوخ فوقعت عيناه على دكته الخشبية سار ناحيتها ببطء، جلس في جانب منها شاردًا بينما تسللت يده تتحسس مكانًا بجانبه جلس عليه يومًا رجل كان عزيزًا على قلبه.

اقترب منه محمود.

- تعالى أقعد جوه يا بوي؟

نظر إليه حشمت في تأثر.

- خليني هنا يا ولدي القعدة دي وحشتني.

أشار حشمت على كرتونة من الكراتين التي أحضرها.

obeikan.com

- فيه هنا فطير مشلتت سخن أمك فضلت صاحية للفجر تعملهولك طلعه وتعالى نفطر مع بعض.

أخرج محمود الفطير وفرش ورق الجرائد القديم وجلسوا، من بعيد اقتربت زينب وانحنت على يد حشمت وقبلتها وجلست معهم.

نظر إليها حشمت يتأملها فأطرقت إلى الأرض خجلاً.

- إيه يا عمي بتبصلي كده ليه؟؟

- لسه مش مصدق يا بتي إنك بقيتي خطيبة ولدي البكري.

ضحك محمود ونظر إلى زينب.

- هتفضل كل ما تشوفها تقولها كده يا بوي.

أمسك محمود بنصف فطيرة كبيرة ووضع في قلبها قطعة من الجبن وقام فاستوقفه حشمت.

- على فين يا ولدي؟؟

هديها لعم راجي الراجل البركة اللي قاعد برة ده ثواب يا بوي.

في الخارج افترش رجل الأرض يجلس على كرتونة مفرودة ويمسك بعصا، كانت لحيته تغطي وجهه، رث الثياب تنتابه رعشة بين الحين والآخر، تحول شعره إلى كتل طينية جافة من امتزاج التراب بالعرق.

obeikan.com

ناولـه محمـود الفطيـر فتمتـم بدعـاء غيـر مفهـوم وأزبـد فمـه وراح يـأكل في شـرود وهـو ينظـر إلـى بـاب الـدار.

تمت

obeikan.com

للتواصل مع الكاتب

الصفحة الرسمية للكتاب

http://www.Facebook.com/Qatlm3sabqel7ob/

الحساب الشخصى للكاتب:

Magdy Kamal

E-mail: magdykamal.ms@hotmail.com

opeikan.com

obeikan.com

حقوق الطبع محفوظة للناشر

أطلس

للنشر والإنتاج الإعلامى

يحظر نشر أو اقتباس أى جزء
من هذا الكتاب إلا بعد الرجوع
إلى الناشر

obeikan.com